دراسات تاريخية

دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية- الجزائر

العدد السادس (6) – جانفي 2017

الجدل الديني الاسلامي المسيحي من خلال كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»
د. حسام الدين شاشية

تحولات الشخصية اليهودية عبر العصور
د. سمير ربوزي

التاريخ الرياضي ودوره السلمي عبر العصور
د. عبد النور العمري

الدراسات التاريخية الجزائرية في حقل الوثائق الارشيفية
أ. ليلى غويني

سكك الحديد بتونس خلال الحماية الفرنسية
أ. سليمان الدهان

ادارة الفلاحة وتحديث الزراعة الاستعمارية بتونس
د. ناجي كشيدة

الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامي من بداية الفاطميين الى نهاية المماليك
أ. محمد عيساوة

اقليم توات خلال القرن (9هـ، 15م) وموقف الشيخ المغيلي التلمساني من يهودها
أ. شبايبي ياسين

الأواني النحاسية الجزائرية الموقعة والموقفة في العهد العثماني
أ.د. شريفة طيان ساحد

الرقم الدولي ISSN 2352 – 9741

دراسات تاريخية

دورية فصلية محكمة تصدر عن:

مركز البصيرة

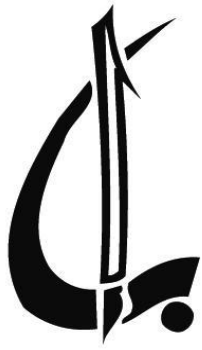

للبحوث والاستشارات والخدمات التعلّمية

- العدد السادس -

(06)

جانفي 2017

رئيس التحرير:

الدكتور: الحاج عيفه

elhadjaifa@yahoo.fr

نائب رئيس التحرير:

الأستاذ: جمال سهيل

souhilsoda@gmail.com

مساعد رئيس التحرير

د/ وهيبة قطوش

المراجعة اللغوية:

د/ سمير ربوزي

الأمانة:

حمزة معمري

المرا سلات باسم مدير مركز البصيرة
حي ماكودي 2 وادي السمار- الجزائر
الهاتف: 00213)23757581(
الفاكس : 00213)2375758(
البريد الالكتروني
bacera.studies@gmail.com

الموقع لكتروني
www.albasseera.net

رقم الإيداع القانوني: 6056-2013
ردمد (ISSN): 2352-9741

التوزيع

دار الخلدونية للنشر والتوزيع
05 شارع محمد مسعودي القبة الجزائر
ها/فا: 021.68.86.48
ها: 021.68.86.49

قواعد النشر

دراسات تاريخية

دورية فصلية محكّمة، تُعنى بنشر المواضيع العلمية المبتكرة، والمقالات الأكاديمية الجديدة، وترحّب بإسهامات الأساتذة الأفاضل، والباحثين الأكارم، في المواضيع ذات الصلة بمجال الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة لها، على أن يراعى في هذه الأعمال قواعد النشر التالية:

قواعد النشر:

1- أن يتّصف البحث بالجدة، والأصالة، والموضوعية، والإثراء المعرفي.

2- ضرورة الالتزام بالأمانة العلمية، وتوثيق المعلومات بالطرق المتعارف عليها منهجيا.

3- تعتمد المجلّة في توثيق المعلومات على الطريقة الآتية: (ذكر لقب واسم المؤلف، عنوان المصدر أو المرجع، دار النشر، مكان النشر، سنة النشر، الطبعة، الجزء، الصفحة).

4-يُطلَب من الباحثين الأفاضل ذكر الهوامش والحواشي في نهاية المقال.

5- يُرفق المقال -إجباريا- بملخّص باللغتين، العربية والأجنبية، وكلمات مفتاحية.

6- تخضع المقالات للتقييم من قبل أساتذة خبراء، ويحتفظ القائمون على الدورية بحق نشر الأعمال المقبولة حسب التوقيت الذي يرونه مناسبا، ووفق المعايير العلمية، وعلى هذا الأساس تقوم الدورية بإخطار الباحثين بالقرار النهائي المتعلق بالقبول أو التعديل، كما تمنح الدورية كل باحث إفادة بقبول بحثه.

7- الدورية غير ملزمة ببيان أسباب رفض المقالات، أو تأجيل نشرها.

8-لا تتحمل الهيئة العلمية للدورية أية مسؤولية عن آراء الباحثين التي يتم نشرها.

9- تُقبل المقالات باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية.

10- يتوجّب على الباحثين أن لا يقل عدد صفحات مقالاتهم عن خمس عشرة صفحة (15)، ولا يزيد عن خمسة وعشرين (25)، وأن لا يزيد عدد الأشكال والملاحق عن خمسة عشر بالمائة (15%) من حجم المقال.

11- تُكتب المقالات ببرنامج **(Word)** مع التقيد بنوع الخط والحجم:

المقالات المكتوبة باللغة العربية نوع الخط: **(Arabic Transparent)**، الحجم: 14 للمتن و 10 للهامش.

أما المقالات المكتوبة باللغة الأجنبية فتكتب بخط: **(Times New Roman)** حجم 12 للمتن، و10

الهيئة العلمية

أ.د/ ناصر الدين سعيدوني	جامعة الجزائر 2
أ.د عمر بن خروف	جامعة الجزائر 2
أ.د / شلبي إبراهيم الجعيدي	جامعة المنصورة -مصر-
أ.د/ بشاري محمد الحبيب	جامعة الجزائر 2
أ.د/ محمد الأمين بلغيث	جامعة الجزائر1
أ.د/ مولود عويمر	جامعة الجزائر 2
أ.د/ علاوة عمارة	جامعة -قسنطينة-
أ.د/ بوبة مجاني	جامعة -قسنطينة-
أ.د/ عبد القادر بوباية	جامعة وهران
أ.د/ دحو فغرور	جامعة وهران
أ.د/ محمد رزوق	جامعة عين الشق-المغرب-
أ.د/ توفيق مزاري عبد الصمد	جامعة يحيى فارس –المدية-
د/ الحاج عيفه	جامعة الجزائر 2
د/ محمد المختار ولد السعد	جامعة نواكشوط - موريطانيا-
د/ ناجي كشيدة	جامعة سوسة - تونس-
د/ محمد الشيخ برابح	جامعة زيان عاشور –الجلفة-
د/ سمير ربوزي	جامعة الجزائر 2
د/ الصادق دهاش	جامعة علي لونيسي -البليدة-
د/ وهيبة قطوش	جامعة الجزائر 2
د/ عبد القادر بوعقادة	جامعة علي لونيسي -البليدة-
أ/ جمال سهيل	جامعة زيان عاشور –الجلفة-

ترسل المقالات مرفقة بملخص بلغة غير لغة نص المقال (فرنسية-إنجليزية) في حدود (150-200 كلمة) بالإضافة إلى الكلمات المفتاحية ونبذة مختصرة عن السيرة الذاتية للباحث على بريد الدورية الإلكتروني: m_bassira.histoire@yahoo.fr

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة يوسف: ١١١

أمة تتعلم، أمة تتقدم

دورية دراسات تاريخية/العدد السادس
رمضان 1438هـ/جوان 2017م

المحتويات

الافتتاحية	د/ الحاج عيفه رئيس التحرير	07
الجدل الديني الإسلامي- المسيحي من خلال كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" لأحمد بن قاسم الحجري (ديغو بخارنو)	د/ حُسام الدين شاشية جامعة منوبة الجمهورية التونسية	08
تحوُّلات الشخصية اليهوديّة عبر العصور	د/ سمير بوزي جامعة الجزائر2	29
التاريخ الرياضي ودوره السلمي عبر العصور.	د. عبد النور العمري. جامعة يحي فارس المدية.	70
الدراسات التاريخية الجزائرية في حقل الوثائق الأرشيفية كتاب:"الحرف والحرفيون لعائشة غطاس أنموذجاً"	أة/ ليلى غويني جامعة علي لونيسي -البليدة-	92
سكك الحديد بتونس خلال الحماية الفرنسية قراءة في نشاط الشركات الأجنبية (1880- 1920م)	أ/ سليمان الدهان جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف-	107

إدارة الفلاحة وتحديث الزراعة الاستعمارية بتونس	د/ ناجي كشيدة كلية الآداب- -سوسة الجمهورية التونسية	123
الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصّليبية بالمشرق الإسلاميمن بداية الفاطميين إلى نهاية المماليك(362هـ - 922هـ /973م- 1517م)	أ/ محمد عيساوة جامعة باجي مختار- عنابة-	154
إقليم توات خلال القرن (09هـ/15م)، وموقف الشيخ المغيلي التلمساني من يهودها.	أ. شبايبي ياسين جامعة زيان عاشور -الجلفة-	175
الأواني النحاسية الجزائرية الموقّعة والموقّفة في العهد العثماني	أ.د/ شريفة طيان ساحد معهد الآثار- جامعة الجزائر2	195

الافتتاحية

بعد انقطاعٍ دام قرابةَ حولين كاملين، تسبّبت فيه ظروف وعوامل، لا حاجة بنا إلى تكدير الخواطر بذكرها، ها هي ذي مجلّتكم، **"دراسات تاريخية"**، تعود من جديد، لتلتقيَ بقرّائها الكرام، وأساتذتها الأفاضل، بحُلّةٍ جديدةٍ، وطاقم جديد، وكلّها عزمٌ على مواصلة المسير، إلى غدٍ مُشرق، عامر بالنشاط العلمي، والكتابات الجادّة، التي عليها المعوّل في بناء منظومة فكرية متماسكة، وعقل عربيّ ناضج ومستنير، في وسعه مواكبة التطوّرات المتسارعة، والتحوّلات الرّهيبة، التي يشهدها عالم اليوم، عالم المعرفة والإعلام.

وإذ نغامر في هذا الشّرف العظيم، فلأنّه يحدونا أمل كبير في تجاوب أصحاب الأقلام العلمية الجادّة معنا، واستجابتهم لدعوتنا، فما نحن –بعد الله عزّ وجلّ- إلا بهم، ولا يساورنا شكّ في كرم من عقدنا أملنا هذا على نواصيهم، فما نحن بأحرصَ على خدمة العلم، وبناء هذا الوطن الحبيب منهم، ألا فبُيوتنا مفتوحةٌ لكم، وبريدنا مسخّر لاستقبال مقالاتكم وبحوثكم، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وأودّ في هذه العجالة أن أهمسَ في آذان حضراتكم بكلمة، هي أنّنا نستأذنكم في إجراء بعض التعديلات، التي منها ما يتعلّق بشكل المجلّة، وطريقة إخراجها، ومنها ما يرتبط بمضامينها وآلية تحكيمها، وما ذلكم إلا خطوة في طريق الترقّي بهذا المنبر إلى مستوىً يليق بكم، ويستجيب لتطلّعاتكم، وفي ختام هذه الافتتاحية، أستغلّ هذه الكلمة في إشعار كلّ من له فكرة يقترحها، أو نصيحة يقدّمها، أو أيّةِ وسيلة تخدم مجلّتنا هذه، بأنّنا كلُّنا آذان صاغية لكلّ صوت إيجابيّ، بل إنّه لمن دواعي السرور أن تصلَنا تعليقاتكم ومقترحاتكم عقيب كلّ عدد، حتى نستفيد منها في إخراج العدد الذي يليه، فقد صحّ عن الرسولﷺ أنّه قال: "المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيباً أصلحه".

رئيس التحرير

الجدل الديني الإسلامي- المسيحي من خلال كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"

لأحمد بن قاسم الحجري (ديغو بخارنو)[1]

د/ حُسام الدين شاشية

جامعة منوبة

الجمهورية التونسية

الكلمات المفتاحية: الجدل الديني- المسيحية - الإسلام الحجري- ناصر الدين- الكتاب المقدس.

الملخص:

يتناول المقال قراءة في كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، لأحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، الذي زار بعض الدول الأوروبية مع بداية القرن 17م، وألّف كتابا حول سفره هذا بعنوان: "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب أو ناصر الدين على القوم الكافرين"؛ وقد جمع المؤلف في كتابه هذا ملاحظات حول سفره إلى فرنسا في سنة 1610م، والمقاطعات المتحدة في سنة 1613م، وحجه إلى مكة المكرمة في سنة 1636م. كما تضمّن الكتاب مجادلة للمسيحيين واليهود في كثير من عقائدهم المنحرفة، وأفكارهم الضالة

يعتبر الكتاب أهمّ مصدر تاريخي أندلسي كتب بعد قرار نفي الأندلسيين المورسكيين، وظروف انتقالهم إلى شمال إفريقيا، الذي اعتبره المؤلف بمثابة هجرة الخلاص.

Résumé :
l'article traite une fiche de lecture sur " Triomphant de la religion contre les Incroyant", à son auteur " Ahmed Ben ELFAKIH Kacem ben Chikh Elhadjeri ELANDALOUSIE" . Il a visité certains pays européens à l'aube de 17(dix-septième) siècle où il à rédigé son livre mentionné au dessus. Ahmed BEN ELFAKIH prit des remarques lors de la visite de:

- France en 1610.
- les provinces unies en 1613.
- son pèlerinage à Mecca en 1636...

Également le livre englobe des polémiques avec les chrétiens et les juifs.
Le livre se considère une source historique d'Indalousie la plus importante écrit après l'exil de d'Indalousie MOURSKINE vers le Nord d'afrique dont l'auteur y considère l'Immigration de Paisibilité

نتناول بالبحث في هذه الدراسة الجدل الديني الإسلامي-المسيحي، من خلال كتاب **ناصر الدين على القوم الكافرين**، لأحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، المولود سنة 1569، بجهة أورناشوس(Hornachos)، أين تعلم الإسبانية والعربية، ثم توجه إلى غرناطة تقريبًا منذ سنة 1588، فقرأ على الشيخ الفقيه الأكيحل الأندلسي "شيخ الترجمة بالإجازة"، وأصبح مُترجمًا لرئيس أساقفة غرناطة بدرو دي كاسترو(Pedro de Castro). ورغم كل الامتيازات التي تمتع بها الحجري في غرناطة، فقد خير الهروب إلى المغرب تقريبًا سنة 1598، وتحديدًا إلى مدينة مراكش حيث أصبح مُترجمًا لمولاي زيدان، ومن بعده أبنائهِ إلى حدود سنة 1635، عندما ركب "ركب البحر بنية الحج"[(2)]، فتوجه إلى تونس ثم القاهرة، فمكة، ومنها إلى المدينة مارًا في طريق عودته بمصر مرة أخرى، التي يبدو أنهُ استقر بها لفترة وجيزة[(3)]، مُنتقلاً بعد ذلك إلى تونس، تقريبًا منذ أواخر سنة 1637[(4)]، حيث توفي على ما يبدو بعد سنة 1641، تاريخ إتمامه لتعديل كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين" بتونس، وهو الكتاب الذي تطرح علينا الزاوية التي ندرسهُ منها أي الجدل الديني، جملة من الأسئلة التي لعل أهمها:

ما هي دوافع الكاتب للتأليف في موضوع الجدل الديني؟.

لمن كُتب هذا الكتاب؟.

هل هناك تجديد في غرض الجدل الديني؟.

هل يُعبّر هذا الكتاب عن وجود "فضاء عمومي" في تونس، النصف الأول من القرن السابع عشر؟.

I- الكتـــاب:

كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" هو مختصر لكتاب "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، انتهى من تأليفه الحجري بمصر سنة 1637[5]، أما النسخة التي بأيدينا والتي يمكن أن نُسمها "بالنسخة التونسية"[6]، فهي نسخة مُعدلة فيها إضافات مختلفة يقول: "وأزيد في هذه النسخة ما لا هو في النسخ التي كُتبت قبلها"[7]، فقد كان الانتهاء منها سنة 1641 بمدينة تونس.

قسّم الحجري مؤلَّفهُ هذا إلى مقدمة وثلاثة عشر بابًا مختلفةً من حيث الطول والمواضيع، حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

- من الباب الأول إلى الباب الثالث: تحدث في هذا الجزء عن ما وقع له في غرناطة وقصة هروبه إلى مراكش.

- من الباب الرابع إلى الباب الثاني عشر: المنُاظرات مع النصارى واليهود.

- الباب الثالث عشر والأخير: ذكريات الطفولة في الأندلس.

ليختم بعد ذلك كتابهُ بما يمكن أن نسميه: "مُلحقًا"، تحت عنوان "مواهب الثواب"، وقد اتبع في هذا التبويب مسارًا كرونولوجيًا، يبدأُ بالهروب من غرناطة إلى مراكش، ومنها الرحلة إلى فرنسا فهولندة، ثم العودة إلى مراكش، فالخروج نحو سلا، وركوب البحر بنية الحج، فالمرور في طريق العودة بمصر، ثم الاستقرار النهائي بتونس.

فيما يخُص لغة الكتابة، تبدو في الغالب لغة سهلة، تتسم بغياب الاستطرادات والمفخمات البلاغية، التي تُوصف بها كتابات تلك الفترة، وهو ما يمكن أن نفسره بضيق الوقت الذي ضغط على الكاتب وطبيعة الكتاب، أي أنهُ "مختصر" يرمي إلى الاختصار ،لا التفخيم والاستطراد، وكذلك بخلفية الحجري الثقافية، المراوحة بين دار الإسلام والعالم المسيحي، الذي عاش فيه ردحًا هامًا من حياته، أي تقريبًا اثنان وثلاثون سنة، فكل هذه السنوات لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها في طريقة كتابته ومنهجية تفكيره.

بالنسبة للأسباب التي دفعت الحجري لتأليف كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين"، فيذكر في عديد المواقع أنه عندما رجع إلى مراكش من رحلته إلى بلاد الإفرنج(فرنسا)، وبلاد الفلامنك (هولاندة)، "حدّث الكثير من الإخوان" عن الحكايات

والمناظرات التي وقعت لهُ في تلك الرحلة، فحضُّوه على التأليف فيها[8]، إلا أنهُ لم يُجب هذا الأمر إلا بعد ما يقارب الأربع وعشرين سنة، عندما طلبهُ منه الشيخ الأجهوري المالكي[9]، وهو مارٌ في طريق عودته من الحج بمصر. هذه الاستجابة تطرح العديد من الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذا العمل، فلماذا انتظر الحجري كل هذه السنوات لتدوين رحلته؟، ولماذا دونها في ذلك الزمن بالذات؟.

يُجيبنا الحجري عن السؤال الأول "بأنه لم يتفق العمل"، أي يُرجع الأمر للقدر أو للظروف، وهي إجابة لا تبدو مُقنعة كثيرًا، فنحن نتساءل عن الظروف التي سمحت لهُ بالتأليف في مواضيع مختلفة كما يُشير، في حين لم تسمح لهُ بالتأليف في موضوع الرحلة، رغم الطلبات المتعددة من الأصدقاء من داخل المغرب وخارجها[10]. كما نستغرب كذلك أن مولاي زيدان، وهو الذي عُرف بولعه بالكتب والجغرافيا، لم يطلب من مُترجمهِ أن يُؤلف في موضوع الرحلة، وهو الذي كلفهُ بها، فلعل هذا من الأسباب التي جعلت الحجري يتراخى في تدوين رحلته، أو حتى يعدل عنها، إلى أن جاء طلب التدوين من شيخ "جليل"، هو الأجهوري، يقول الحجري: "هو العلامة الشهير علمهُ وثناؤه في الأقطار والبلدان"[11].

رُبما يكون طلب الأجهوري أحد الأسباب التي دفعت الحجري لتدوين رحلته، إلا أننا نعتقد، وكما يؤكد الكاتب، أن التأليف في موضوع الرحلة، ومن من ورائها المختصر، مُرتبط بالزمن، بمعنى أن الحجري الذي كان يبلغ من العمر حينها أربعاً وسبعين سنة، والذي أتم فرضًا أركان الإسلام بقيامه بالحج لم يبقَ لهُ إلا الجهاد، وهو الذي يعتبرهُ أحد أركان الإيمان، يقول في خاتمة ترجمته لكتاب "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع": "واعلم أن الجهاد ركنٌ عظيمٌ في الإسلام"[12]، فإذا كان الرد على النصارى من أشكال الجهاد، كما أكد لكاتبنا قاضي المسلمين في مراكش عيسى بن عبد الرحمان السكني، الذي قال لهُ: "أن الجهاد يكون بمحاربة الكفار، وبالرد عليهم فيما يقولون من الكذب في ديننا ودينهم.."[13]، فإن تأليف الرحلة، التي هي أساس المختصر، يكون تتمة لإسلام الحجري، المشكوك فيه، باعتباره موريسكيًا.

هذه هي الأسباب التي يسوقها لنا الكاتب لتبرير أخذه للكلمة في "الساحة العامة"، بمعنى الأسباب التي دفعتهُ لتأليف كتاب ناصر الدين، ولكن رغم أن هذه الأسباب تبدو مقبولة نسبيًا، إلا أنها لا تكشف بصورة كاملة عن الدوافع الحقيقية لسياق تأليف هذا الكتاب. هذه الدوافع التي سنحاول التوصل إليها من خلال معالجتنا لموضوع الجدل الديني الإسلامي-المسيحي، الذي وجد لنفسه مكانةً هامة في العالم الفكري للقرن السابع

عشر: فماذا يميز الجدل الديني في الفترة الحديثة؟، وهل ظهر تجديد في هذا النوع من الكتابة أم أنه تكرار لما قيل من قبل؟.

II- الجدل الدينـــي الإسلامي-المسيحي:

رغم أن الجُزء الأكبر من كتاب ناصر الدين مخصص للجدل الديني، فإن عددًا هامًا من صفحاته لم تطرح هذا الموضوع، وذلك نظرًا لطبيعة الكتاب أي أنهُ مُختصر للرحلة التي قام بها الحجري بين سنتي 1611 و1613، وهو ما يعود كذلك إلى طبيعة الجدل الديني المطروح في هذا الكتاب، فهو جدل مناظراتي شفوي. فبما أن الحجري اتبع في مختصره مسارًا كرونولوجيًا، هو نفس المسار الذي اتبعهُ في رحلته، فإن "القدوم إلى بلاد الفرنج" لن يكون إلا في الباب الرابع[14]، لتنطلق من هناك المناظرات التي يُقارب عددها السبعة وعشرين مناظرة، سنعتمد في تقسيمها على أهمية الغرض الجدلي.

1- التثليث

يُعتبر التثليث من الأغراض المهمة في الجدل الديني، فهو من نقاط الاختلاف الأساسية، بين من يقول: "قل هو الله أحد الله الصمد"[15]، وبين من يقول في الإنجيل: "باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد"، فحول هذين المفهومين للتوحيد الإلهي أُثيرت المجادلات العنيفة بين المسلمين والمسيحيين[16].

في هذا الإطار نفهم حضور التثليث كغرض أساسي في المناظرات التي خاضها الحجري، والتي كان أولها مع عالم اسمه "أبرت"(Etienne Hubert)[17]، وراهب بمدينة باريس، وكان المبادر لطرح هذا الموضوع الحجري الذي استعمل في جدله حُججًا عقلية قائمة على المنطق والقياس، يقول: "وعلى هذا القياس..."[18]. كذلك على نفس هذا الأساس أي الحجاج العقلي سار في مناظرته حول نفس الموضوع مع العالم الهولندي "توماس أبيناس" بمدينة لايدن والراهب في مصر، ما يؤكد تأثر الحجري بالكتابات الجدلية التي كُتبت قبله، والتي كثيرًا ما حضر فيها توظيف الآلة المنطقية، كالقياس وبرهان الخلف.

على غرار المجادلين إلى حدود القرن العاشر، الذين كانوا مطلعين اطلاعًا واسعًا ودقيقًا، في كثير من الأحيان على نظرية الطرف المقُابل في التثليث[19]، فإن الحجري وباعتباره قد عاش ما يُقاربُ تسعاً وعشرين سنة من حياته في العالم المسيحي، فهو أكثر اطلاعًا على نظريات النصارى ممن سبقوه، وهو ما يظهر في استعماله الإنجيل في الرد على

مقولات الراهب المصري في التثليث. هذه الاستراتجية التي وإن استعملها المجادلون من قبل، فإنهم لا يبدون متمكنين منها تمكُّن الحجري الذي يستعمل اقتباسات دقيقة، على غرار: "أيضًا في الإنجيل ما ينسب لما قلت للراهب...قال في الفصل السابع والستين لمتي"[20].

لئن استعمل الحجري الإنجيل في حجاجه حول التثليث، فقد ختم إحدى مناظراته حول هذا الموضوع بآية قرآنية[21]، أمر يبدو جديدًا، على اعتبار كما يؤكد عبد المجيد الشرفي، الغياب المطلق في جميع الردود الإسلامية على النصارى إلى نهاية القرن العاشر للاستشهاد بالقرآن لدحض عقيدة التثليث المسيحية، "فالفن الجدلي يقتضي تخير أمضى الأسلحة لتبكيت الخصم وإفحامه، فلم يرَ المُجادلون فائدة من شهر سلاح غير مُلائم، ما دام النصارى لا يولون القرآن المنزلة الإلهية الرفيعة"[22]. بهذا المعنى لا يمكننا أن نفهم استعمال الحجري للقرآن في حجاجه إلا على أن كتابه موجه بالأساس إلى الجبهة الداخلية.

2- تـأليه عيســى (عليه السلام):

إذا كان غرض التثليث من المواضيع الأساسية في مُجادلات الحجري مع النصارى، باعتباره يشكل أساس اختلاف جوهري بين الإسلام والمسيحية، فإن تأليه عيسى لا يقل أهمية جدلية، لا بل اعتبره المجُادلون "الكلاسيكيون" من "أشنع" الاعتقادات، يقول الجاحظ: "حكي عن النصارى أنهم قالوا: "المسيح ابن الله" وقال تعالى: "قالت النصارى المسيح ابن الله"[23]،..لأن أخِر من السماء أحبُ إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون"[24].

هذه الحساسية التي أبداها الجاحظ في التعامل مع هذا الموضوع لا تظهر عند الحجري بأي شكل من الأشكال، ففي رده على قول تاجر فرنسي بمدينة رون أن عيسى ابن الله، يستعمل أبياتًا شعرية نسبها للقاضي عياض، وهو أمر جديد ونادر، فتقريبًا هذه هي المرة الوحيدة التي يستعمل فيها "حجة شعرية" في رده على النصارى، ولعل هذا ما يمكن أن نفسره بالمعرفة الجيدة للطرف المقابل باللغة العربية، فهو يقول عنهُ: "ولطول مكثه ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غايةً"[25].

بهذا المعنى يمكننا القول أن الحجري كان ينوّعُ من أسلحته الحجاجية بحسب الطرف المقابل، فإذا كان قد استعمل الشعر في رده على مسيحي عارف بالعربية، فإنهُ يعود لاستعمال حجة عقلية في مناظرته مع أحد الرجال بمدينة بوردو، ففي أسلوب

حواري أرسطي، قائم على السؤال والجواب، استطاع الحجري كما يقول أن يجعل محاورهُ يقول: "للحاضرين من النصارى أن يشهدوا عليه، أنهُ نصراني يؤمن بكل ما في دينهم في رومة، ومع ذلك أقول أن هذا الكلام الذي قاله المسلم فيه كلام عظيم"[26]. كلامٌ عظيم ربما بالنسبة لهذا المجُادل الذي سمعه أول مرةً، في حين أن الحجة التي استعملها الحجري في نفي ألوهية عيسى، والقائمة على أن من خلق آدم وحواء بغير أبٍ وأمٍ قادرٌ كذلك على خلق عيسى من غير أبٍ، هي حجة "مُستهلكة"، استعملها أغلب المجادلين السابقين، على غرار الطبري الذي يقول: "فإن قلتُم إنه لعجيب مولده وشأنه، فليس مولدهُ وكونهُ أعجب من كون آدم، فلا أم لهُ ولا أب"، كما يقول الجاحظ: "إن كان المسيحُ إنما صار ابن الله لأن الله خلقهُ من غير ذكرٍ، فآدمُ وحواء إذا كانا من غير ذكرٍ وأنثى أحقُ بذلك"[27].

رغم أن الحجري في هذه الحجة كان مُقلدًا، فإن طريقة عرضه لها، أي الأسلوب الأرسطي القائم على السؤال والجواب-الذي فرضته ضرورةً طبيعة الجدل الذي خاضه أي المنُاظرات- يعكس ربما اطلاعهُ على الكتابات الفلسفية اليونانية بشكل مباشر، أو عن طريق الكتابات العربية الكلاسيكية المعُتزلية خصوصًا.

كما ذكرنا سابقًا يتخير الحجري في كل مرة سلاحه الحجاجي بحسب الطرف المقابل، ففي حين أنهُ استعمل نفس الأسلوب الحجاجي العقلي حول نفس الموضوع في جداله مع راهب في مصر، فقد أضاف إليه حجةً نقلية مُستمدة من الإنجيل، في إطار مُعارضة الخصم بسلاحه، وهو أسلوب لم يبتدعهُ كاتبنا، بل سبقهُ إليه غالبية المجُادلين، الذين كانوا يحاولون بناء ردودهم في نفي إلوهية عيسى من الإنجيل نفسه[28]، إلا أن ما يحسب للحجري هنا هو "قولبتهُ" لحجة نقلية في بناء عقلي، يتجاوز الاستشهاد إلى التفسير فالتأويل، أي بناء نتائج على المقُدمات، فقد انطلق من خلال الاتفاق مع الراهب على أن "الإله" يتصف بالعلم...في كل ما كان وما يكون"، فإذا ثبت في الإنجيل أن عيسى جاهل لقيام الساعة، فذلك ينفي عنه صفة الإله.

نفس هذه الحجة تقريبًا، ولكن بتفصيل أكبر، استعملها الحجري في جداله مع أحد الرهبان المسجونين في مدينة مراكش، فلعل هذا التفصيل يعود أولاً: إلى طبيعة الجدل هذه المرة، باعتباره جدلاً مكتوبًا قائمًا على المراسلة وليس شفويًا، كما هو الحال في المناظرات السابقة؛ وثانيًا: إلى الإطار المكاني لهذا الجدل، فإذا كان الجدل في المرات السابقة وفي أغلب الأحيان قد حصل في دار النصارى، عامل جعل الحجري مُقتضبًا في إجاباته، محتاطاً في ردوده، فإن ردَّهُ على هذا الراهب كان في دار الإسلام، ما يجعلهُ مُتجردًا

من كل الاحتياطات، مُستفيضًا في كلامه، لا يخشى ثورة "مسيحيٍ مُتعصبٍ"، أو حُكم راهب مُتأثرٍ بمحاكم التفتيش، يقول: "و مهما قصرت من الخوف أو الجزع، فكان ينزل علي الذُل عندهم"[29].

3- الفـداء:

يقوم الفداء على الاعتقاد بأن تعرُّض عيسى للصلب كان رغبةً منه في فداء الجنس البشري من الخطيئة التي ارتكبها آدم في حق الله، بأكله من الشجرة التي نُهي عنها. على الرغم من أنهُ من المكونات الأساسية للمنظومة اللاهوتية المسيحية، إلا أنه، وكما يؤكد عبد المجيد الشرفي[30]، لم يحظ باهتمام كبير لدى المفكرين المسلمين حتى القرن العاشر، أمر وجدناه يتكرر من حيث الكم في القرن السابع عشر في كتاب "ناصر الدين"، فلم يتحدث الحجري عن هذا الغرض سوى مرتين، المرة الأولى كان ناقلاً لمناظرة حدثت بين رجلٍ "من علماء النصارى" في مدينة مراكش ومولاي أحمد، الذي استعمل في رده على هذا الرجل حجة عقلية قائمة على القياس، رأى مُجادلنا أنه ليس له ما يزيد عليها، مُعتبرًا قول الراهب "كلامًا ليس فيه ما يُقال ولا ما يُكتب"[31] ، موهمًا بذلك الباحث أنه سيواصل على نفس درب من سبقهُ من المجُادلين في عدم إيلاء هذا الغرض الأهمية التي أولاها للغرضين السابقين. إلا أنهُ يفاجئنا في المنُاظرة الثانية مع قاضي عُمره ثمانون سنة، عاش خمس سنوات في القسطنطينية، بتفسير مُنافٍ تمامًا لكُل من سبقوه، ففي حين اعتبر كُل المجادلين تقريبًا عقيدة الفداء هذه فاسدة من الأساس، لأن آدم تاب إلى الله الذي قبل توبتهُ، - حيث أن التصور الإسلامي لله يقوم على أنهُ "توابٌ غفور رحيم"[32]، كما أن عقيدة الفداء قائمة على وضعية الخاطئ التي هي الوضعية العادية للمسيحي، بينما ينكرُ الإسلام هذا الشعور بالإثم إنكارًا مُطلقًا[33]-، فإن الحجري يُقدم تصورًا مُخالفًا وجذريًا، فهو - بدايةً- يُقر عقيدة الفداء، التي كما أشرنا سابقًا نفاها كل المجُادلين من الأساس، ولكنهُ يُدخل عليها تحويرًا جوهريًا يقوم على أن كل شخص يُكفرُ عن الذنب الذي ارتكبه آدم بنفسه. وذلك من خلال الوضوء، والغُسل للصلاة، باعتبار أن الفضلات التي تخرج من البدن "هي التي ورثها الإنسان بسبب الشجرة (شجرة التفاح)"[34].

هذا الرد الجديد، والطريف في الجدل، حول عقيدة الفداء، وإن كان الحجري كما يقول ناقلاً لهُ من كتاب قرأه قبل خروجه من الأندلس يسمى "مخُتصر جبريل"، فهو يؤكدُ تبنيه لهذه النظرية في الفداء، ويعكس التطور الحاصل في هذا الغرض الجدلي في القرن السابع عشر، من رفض مُطلق، إلى إقرار وتعديل، بما يناسب التصور الإسلامي، مع

الملاحظة أن الحجري كان يبدو واعيًا "لخطورة" ما يقول، ففي مُناورة ذكية انطلق فيها من تقديم هذا التفسير على أنهُ التصور الإسلامي البديل لعقيدة الفداء بقوله:"نحن عندنا خلاصٌ لما ورثنا من الفاكهة خيرٌ من خلاصكم"[35]، في الرد على القاضي، إلى القول في موضع آخر أنه مُجرد تفسير لعملية الوضوء، قرأه في كتاب قبل خروجه من الأندلُس يقول: "والسرُ في الوضوء على هذا الوجه"، تاركًا بذلك القارئ حائرًا حول الحدود التي تفصل الحجري عن الرأي الذي ساقهُ.

هذه المناورة تعكس الحذر الشديد للكُتاب عمومًا في ذلك العصر عند تقديمهم آراءً جديدة مُخالفة لما هو سائد، والحجري خصوصًا في مُجتمع لا يتوانى عن الاتهام بالزندقة والكُفر، ما جعلهُ ربما يحاول أن يحجز لكتابه "صكوك الأمان"، من خلال تأكيده أنهُ قد عرضه على الشيخ الأجهوري، شيخ المالكية في عصره بمصر و"طلب منهُ أن كل ما يظهر لهُ غير لائق أن يأمر بإسقاطه"[36]، كما قام بعرضه بعد أن زاد فيه على مفتي الحنفية بتونس، إمام جامع الترك أحمد الشريف الحنفي.

بهذا المعنى يكون الحجري قد رد على كل من انتقد بعض الأطروحات في كتاب ناصر الدين، والذين كانوا يقولون: "لو كتمت ما ذكرت في الأبواب الأخرى لكان خيرًا من ذكره"[37]، أي أن الكتاب "مبارك" ومقبول من قبل شيخ المالكية في عصره، ومفتي الحنفية في تونس، وهما شخصيتان لا يمكن نقض أحكامهما، أو على الأقل لآرائهما احترام واسع في أوساط أتباع المذهبين المالكي والحنفي، اللذين هما المذهبان الرسميان في تونس حينها.

4- تحريف الكتب المُقدسة:

إذا كان التثليث، وتأليه عيسى، والفداء، من أهم المسائل التي خاض فيها المجُادلون الأوائل ضد النصارى، فإن تأكيدهم على تحريف الأناجيل[38]، لا يقل أهمية عن المسائل الثلاث السابقة، بما أن هذا الغرض يدخل في إطار نقض أُسس الطرف المقُابل. وإذا كان الشك يحيط باطلاع هؤلاء المجادلين اطلاعًا مباشرًا على هذه الكتب، بما فيها التوراة، سواءً في لغتها الأصلية أو مُترجمة[39]، فإن الحجري، وكما يؤكد لنا، قد اطلع على هذه الكتُب مُترجمة إلى الإسبانية[40]، وهو ما سيجعل منطلقاته في هذا الغرض أكثر قوة ومتانة ممن سبقوه.

لئن لم يكن هذا الغرض في غالب الأحيان غرضًا مُستقلاً بذاته، بل يدخل في الحجاج حول الأغراض الأخرى، فإننا وجدنا الحجري يجُيب "قاضي الأندلس" في فرنسا،

الذي دعاه للعودة إلى النصرانية، بأن هذه الأخيرة مفتُوحة للزيادة والنقصان، مُدعمًا ردَّه بذكر أمثلة من الأحكام التي أدخلها الباباوات على المسيحية، والتي بلغ عددُها خمسة عشر تعديلاً[41].

إذا كان ما ذكره الحجري سابقًا، يؤكدُ تعرض الإنجيل لتحريف تأويلي، فإنهُ في موضع آخَر، وانطلاقاً من تجربته الشخصية، يؤكّد أن الإنجيل قد تعرض لتحريف لفظي، وهو ما استنتجهُ من خلال ترجمته للرق[42] قبل خروجه من غرناطة سنة 1598، عندما قال لهُ القس: "هذه الكلمة مُختلفة لما عندنا اليوم"، ليستنتج من ذلك "أنهم يزيدون وينقصون في إنجيلهم وكتُب دينهم"[43].

يظهر الحجري في هذا الغرض الجدلي، أي تحريف الكتُب المقُدسة، مُقلدًا لمن سبقوه من أصحاب الردود، مُتبعًا لنفس خطتهم القائمة على إبراز التحريف التأويلي، والتحريف اللفظي الحاصل في هذه الكتب[44]، في مُحاولة لإبراز تهافت مرجعية المجُادل أي الإنجيل، ولكنهُ، على عكس من سبقه، يقوم بمُقارنة بين التحريف الحاصل في هذه الكتُب والقرآن المحفوظ بضمان سورة الحجر: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[45]، وضمان الواقع التاريخي الذي عايشهُ، القائم على بقاء القرآن في الأندلس، رغم مرور أكثر من مائة سنة على منعه، يقول: "..رغم الحرص الشديد من الكفار على من يظهرُ عندهُ (يقصد القرآن) يقتلونه، ويأخذون مالهُ ويحرقونهُ"[46].

من هنا، وإذا اعتبرنا الخطاب موجهًا بالأساس إلى "الأتباع الضالين"، وكثير منهم موريسكيون، يصبح اختيار الإسلام هو اختيار للصحيح، الثابت والدائم، في حين أن العودة للمسيحية هي عودة إلى المحُرف، المتغير، أمر رفضه الحجري كما لاحظنا سابقًا، ويدعُو بقية الموريسكيين إلى رفضه.

5- نقد عبادات النصارى والرد على أحكامهم المسبقة حول الإسلام:

إذا كان إثبات التحريف الحاصل في الكتُب المقدسة عند النصارى ضربة قوية لأسُس الاعتقاد المسيحي، فإن إثبات هذا التحريف، سيؤدي بالضرورة إلى وضع عبادات النصارى موضع مُسائلة وتشكيك، أمر لم يغب عن أصحاب الردود[47]، كما لم يغب عن صاحب كتابنا هذا، لا بل أطنب فيه، مُعتبرًا أن عرض عبادات النصارى، وبيان فسادها، أمر ضروري كي "يرى (المسلم) الكُفر، فيشكر الله تعالى الذي نجاه منه"[48]. لنجد الجدل بعد ذلك مُحتدمًا حول وجود الأكل والشراب في الجنة[49]، ففي حين أنكر النصارى،

وتعجبوا من وجود نعيم مادي في الجنة، انبرى الحجري مُدافعًا عن اعتقاد المسلمين في وجود هذا النعيم، مُستشهدًا على غرار ابن ربن الطبري[50] بما جاء في الإنجيل.

هذا الاستشهاد بالإنجيل يضع الحجري، وكُل من سبقوه من أصحاب الردود، موضع مُساءلة، ففي حين أنهم يؤكدون على أن الإنجيل والتوراة تعرضتا إلى التحريف، فإنهم يعودون لاستعمالهما كسلاح في وجه المجادل، أمر وإن يعبر ظاهريًا عن التناقض، فإنهُ يكشف أسس نظرة هؤلاء للكُتُب المقدسة لأهل الكتاب، والقائمة على أن كُل ما يتوافق مع القرآن فهو صحيح، أما ما يخالفه فهو منحول ومُحرف، يستدعي الرد عليه.

هذا الموقف يعكس نظرة المجادلين "المرآتية"، التي تتضخم فيها صورة الأنا فيغيب الآخَر، ولا يبقى إلا الأنا ناظرًا إلى نفسه في المرآة، مُخلصًا صورتهُ من كُل ما يرى أنهُ شائبة، صورة الأنا المتُضخمة هذه هي نفسُها التي وجدناها عند الحجري في جدله حول الصيام مع قاضي الأندلُس وضيوفه، فما دام ليس صيامًا على الطريقة الإسلامية فهو ليس صيامًا صحيحًا مقبولاً، وما دام لحمُ الخنزير مُحرمًا في القرآن، فليس على الحجري إلا أن يؤيد ذلك ويُثبتهُ[51] بأسلحته الحجاجية المختلفة، من حجاج عقلي إلى استشهاد نقلي.

هذه الإستراتجية وجدناها تتكرر تقريبًا في أغلب مُناظرات الحجري، مهما تباعدت مواضيع الجدال، ومهما اختلفت الأطراف المتُجادل معها، سواءً كانوا رُهبانًا أو قضاةً، عُلماء أو حتى نساءً، ففي صورة طريفة[52] وجدنا الحجري جالسًا وسط مجموعة من النساء في منزل "صاحب الطابع"، مُجادلاً إحداهن حول الصور والأصنام، مُحاولاً أن يثبت لها، من خلال الإنجيل، أن الرسم والأصنام مُحرمان. مُتجاوزًا بعد ذلك مُخاطبة هذه المرأة إلى مُخاطبة القارئ مُباشرةً، من خلال إيراده حُججًا من التوراة، ثُم أحاديثًا للرسول(ص) تنهي عن التصوير وصُنع الأصنام[53]، خاتمًا هذا الموضوع بما يمكن تسميتهُ "قصة أحمد والصنم"[54]، قصة يقول أنهُ رواها في باب ذكر الأصنام في كتاب الرحلة.

في خضم كل هذا يقدم لنا الحجري صورة اجتماعية دقيقة، لتحرر المرأة الأوروبية عمومًا والفرنسية خصوصًا، صورة كان قد رسمها لنا بصورة أدق عند إيراده لقصة حبّه لإحدى "بنات الإفرنج"، وابتلائه بغرامها، في صورة لا تختلف كثيرًا عن قصص العشق في كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي[55].

صورة المرأة المتُحررة، ستظهر كذلك في الجدل حول شرب الخمر مع الضيوف الساهرين في منزل قاضي الأندلس بباريس، فبينما كان الحجري يُجيب هؤلاء عن السبب الداعي لمنع شرب الخمر في الإسلام، على أساس أنهُ من المسكرات التي تُذهب العقل، "و

هو أفضل ما تكرم به (الله) على بني أدم"، بادرت امرأة من الحضور إلى أخذ كأس و"وضعت فيه نقطة خمر وزادت عليه ماءً كثيرًا وقالت لصهرها قل لهُ: أي قوةٍ في هذا الماء؟"[56].

هنا لا يعنينا إجابة الحجري بقدر ما يعنينا الصورة التي قدمها لنا عن المرأة الأوروبية في ذلك العصر، تلك المرأة المتُحررة، الساهرة، العاشقة، المجُادلة، صورة وإن قدمها لنا الحجري في البداية بطريقة مُحايدة، نستشف منها بعض التعاطف والإعجاب، فإنهُ ينتهي إلى إدانتها بدعوة المسلم إلى أن يشكُر الله على دين الإسلام ونعمته وصفائه، كما أن وقوعهُ في الحُب ليس إلا ابتلاءً من الله، يُصنف في نفس خانة "خصام النصارى" و"الجهاد على الدين"[57].

إذن مما سبق، ومن خلال هذه الصور الطريفة التي قدمها لنا الحجري، والتي لا نكاد نعثر لها على مثيل في كُتب من سبقوه من المجادلين، يُمكنُنا التأكيد على تفرُّد كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"، ككتاب جدلي مليء بالجيئة والذهاب الفكرية والفعلية، بين العالمين الإسلامي والمسيحي، يُعبر في الغالب عن رؤية مسلمٍ عارفٍ بالآخر، لكنهُ مُنكرٌ لعقيدته، ومن جهة أُخرى عن رؤية الآخر غير العارف في بعض الأحيان بدار الإسلام، ولكنهُ مُنكرٌ لها، وهو ما يظهر في ردود الحجري على العالم الفرنسي إتيان هوبرت، الذي كان يعتقد أن اللواط مُباحٌ في الإسلام، أو في رده على قاض يسميه "فيرض"، كان يظن أن المسلمين يحجون لرؤية نبيهم مُعلقًا في الهواء وسط قبة حجر المغناطيس[58].

هذا الباب القائم على الرد على تصورات المسيحيين المسبقة تجاه المسلمين ومُعتقداتهم، يمكن تسميتهُ "بالجدل التصحيحي"، المبني لا على الجدل التحليلي والاستشهاد النقلي والبرهان العقلي، بقدر ما هو قائم على تصحيح المعلومات والأخبار. هذا الجدل لم نكُن لنجدهُ عند أصحاب الردود الأوائل، نظرًا لأنهُ وكما لاحظنا في العديد من المرات السابقة أن أغلب جدلهم مبني على الجدل الفكري المكتوب، في حين أن الجدل في هذا الكتاب هو جدل مُناظراتي شفوي مُباشر[59].

6- الأغراض التمجيدية:

حاول الحجري في الأغراض السابقة، كغيره من أصحاب الردود، نقض عقيدة النصارى وبيان تهافُتها، كما عمد هذا الأخير في أحيان أخرى إلى تصحيح بعض المعلومات الخاطئة عن الإسلام، وهو ما سميناه "بالجدل التصحيحي"، فإذا اعتبرنا أن هذا الكتاب موجه إلى المسلمين عمومًا، والموريسكيين على وجه الخصوص، فإنه يمكننا القول أنهُ

بنجاح الحجري في مهمته هذه، يكون قد أقنع هؤلاء بإقفال باب العودة إلى النصرانية بصفة نهائية، لكن ذلك لا يعني أنهُ سلمهم مفتاح الإيمان البديهي بالإسلام[60]، حيث يبدو أنهُ تفطن إلى حاجته إلى تقديم مشروع بديل لهؤلاء، والذي سيكون بديهيًا المشروع الإسلامي الأصيل والثابت، الذي يجبُ أن يكون الإيمان به قويًا ومتينًا، متانة رفض العودة إلى المسيحية.

من هنا وجدنا الحجري يحاول، في الكثير من الأحيان، أن يُقدم المسلم في أحسن صورة، فهو ورغم وجوده في العالم المسيحي، يبقى مُحافظاً على قوانين الإسلام وحدوده، مُغالبًا لشهواته. فلعلهُ في هذا الإطار أي تمجيد الإسلام وتقديمه في أحسن صورة، يمكن أن يدخل الجدل الذي وجدناهُ بين قاضي الأندلس بفرنسا والحجري حول أحسن دين، فقد قال لهُ هذا القاضي: "انظر هذه العافية التي عندنا في بلادنا، بخلاف بلادكم، لأن الأحكام تدل على صحة ديننا"[61]، لتكون إجابتهُ بأن هذا التطور الحاصل في أوروبا، ناتج عن كون الأحكام المعمول بها مُستمدة من القوانين الرُومانية، لا من الإنجيل، في إقرار ضمني فريد ونادر بتفوق النصارى، ما يعكس وعي بعض نُخب ذلك العصر، بالتطور الهائل الذي بدأت تعرفهُ أوروبا على حساب العالم الإسلامي، إقرار ما كنّا لنجدهُ عند أصحاب الردود الأوائل، الذين كثيرًا ما تباهوا بتفوق المسلمين، وربطوهُ بصحة عقيدتهم[62].

من جهة أخرى وجدنا الحجري في تقليد صريح للمجادلين الأوائل يحاول إثبات مُعجزات النبي(ص) من خلال التأكيد على أُميته يقول: "ولما رأى الناسُ فضلهُ وبركاته، وصدقه في القول والفعل، وتوحيده مع أنه لم يعرف يقرأ، فدخلت الناسُ في دينه"[63]، هذه المعجزات التي يقول أنهُ فصلها إلى أحد الحُكماء في هولندا، مُستشهدًا بكتاب القاضي عياض[64]، مُشيرًا إلى تطور هذا الغرض في القرن السابع عشر، وتحوله إلى مبحث أو علم مُستقل.

إذا كان الاستشهاد بمُعجزات النبي من الحُجج التي استعملها المجادلون لإثبات صدق رسالة الإسلام، فإن إثبات التبشير بمحمد(ص) في الكتُب السماوية يدخل في نفس هذا الإطار، فرغم أن هذا الموضوع لم يلق عناية كبيرة لدى أصحاب الردود الأوائل، فإنهُ قد شاع خصوصًا عند الذين أسلموا من أهل الكتاب[65]، والذين يمكن أن نُلحق بهم الحجري باعتباره كان مسيحيًا، ولو ظاهريًا في إسبانيا. من هنا وجدناه يخطو على نفس

خطى ابن ربن الطبري في جدله مع راهب مصري، بالتأكيد على أن "البارقليط" المذكور في الإنجيل هو تبشير برسول الإسلام.

الاستنتاجات:

من كل ما سبق يمكننا الإجابة عن الإشكاليات التي طرحناها في مُقدمة هذا العمل، والوقوف على بعض السياقات التي يُعبر عنها هذا الكتاب، فلئن جاء طلب التأليف في موضوع الرحلة من الشيخ الأجهوري، فإن الاختصار كذلك جاء بطلب من هذا الأخير، الذي أمر الحجري بالتركيز في هذا المختصر "على الكلام في الدين مع النصارى"[66]، أي على موضوع الجدل الديني، أو الرد على "الكفار"، فكأن المواضيع الأخرى المذكورة في الرحلة، والتي قدم لنا الحجري نبذة عنها في مقدمة هذا المختصر ، والتي هي: جغرافية الأندلس وتاريخها منذ القدم إلى خروجه منها، لا تعني شيخ المالكية في عصره، بقدر ما يعنيه الرد على النصارى، كفن كلامي يندرج ضمن باب التوحيد في المؤلفات الكلامية، الغرض منه دحض العقائد النصرانية، في خطاب موجه للمسلمين بالدرجة الأولى، لتثبيتهم على عقيدتهم، وتحذيرهم من ضلال النصارى[67].

من هنا يمكننا القول أن الأسباب الرئيسية لتأليف كتاب ناصر الدين، مرتبطة بالسياق الذي جاء فيه، والذي تميّز بطرد الموريسكيين من إسبانيا ما بين سنتي 1609-1614، حيث انتشروا في أغلب بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط، فتوجهُوا إلى الجزائر، المغرب وتونس. هؤلاء المهجرون لم يكونوا كما تُصورهم العديد من الكتابات العربية خصوصًا، هاربين بإسلامهم من ظلم النصارى، بل كان عددٌ منهم مسيحيًا، حيث أكد بعضهم أنهم لا يرغبون إلا في الموت كمسيحيين[68]، أو غير عارفين بصفة جيدة بالعقيدة والعبادات الإسلامية.

في هذه الظروف عاد موضوع الجدل الديني للظهور بقوة في بلاد المغرب، مع الملاحظة أن هذا الفن كان دائم الحضور في كتابات المغاربة، فلا يكاد يخلو قرن في الفترة الحديثة من كتاب اشتهر في هذا الموضوع، لكن انتشار الجدل الديني في صفوف الموريسكيين، والذي ظهر في شكل مجادلات ضد النصارى واليهود كان مُلفتًا للانتباه لشدة تواتره في كتاباتهم[69]، فإلى جانب الحجري فقد كتب في تونس حول نفس هذا الموضوع، وفي نفس الفترة تقريبًا أي النصف الأول من القرن السابع عشر، محمد بن عبد الكريم بيريث، الذي ترك مخطوطاً بالإسبانية موضوعه الدفاع عن الإسلام ضد الديانات الأخرى، ويذم محاكم التفتيس[70]، أيضًا خوان بيريث المعروف كذلك بإبراهيم التيبلي، صاحب

القصيدة الجدلية الشهيرة ضد المسيحيين[71]، أو الريكلي صاحب كتاب"مُجادلة مع اليهود"[72].

هذا الرواج لموضوع الجدل الديني في أوساط الموريسكيين، دفع الباحثين للنظر في أسبابه، فذهب لويس هارفي، وخوان بينلا، إلى أن هؤلاء قد تأثروا ولو بشكل نسبي بالنزعة الفلسفية التي ظهرت في أوروبا، والجدل الدائر بين البروتيستانت والكاثوليك[73]؛ في حين ذهب آخرُون إلى القول أن التأليف في موضوع "ذم الكفار" ومجادلتهم لا يستغرب من قبل الموريسكيين الذين أذاقهم الإسبان المسيحيين أقسى أنواع العذاب، لا بل أخرجوهم من بلادهم، فأمام عدم إمكانية الرد عليهم ماديًا، أي عسكريًا، فإن المجال الأدبي يصبح الملاذ، وساحة المعركة التي وإن لم تغير شيئًا على أرض الواقع، فإنها كانت المتنفس الوحيد، أو"الزفرة" الأخيرة التي تعبر عن الغبن الشديد لهؤلاء المهجرين.

إذا كان السبب الثاني يمكن أن يقبل نسبيًا، فإن أصحاب التفسير الأول ربما غاب عنهم أن موضوع الجدل الديني هو من المواضيع القديمة في الثقافة الإسلامية، سابق لاحتدام الجدل الكاثوليكي البروتستانتي.

في نفس هذا الإطار يمكننا القول أن الكتُب الجدلية التي ألفها الموريسكيون، سواءً كانت باللغة الإسبانية أو الألخاميدية وبالتأكيد العربية، هي موجهة للمسلمين عمومًا وللطائفة الموريسكية خصوصًا، هذه الطائفة التي ورغم انتقالها إلى دار الإسلام، فقد كانت في النصف الأول من القرن السابع عشر تقف على الحدود بين العالمين المسيحي والإسلامي، غير واثقة من هويتها ودينها، فهؤلاء في الغالب يتكلمون الإسبانية في مجتمع عربي، وهو أمر يمكن أن نكتشفهُ بصفة واضحة من خلال دعوات الحجري المتكررة لهؤلاء إلى التكلم بالعربية، بما أنها أحسن اللغات يقول: "والكلام بالعربية لمن يعرفُها خيرٌ من الكلام بغيرها من اللغات، كما ذكر النبي أنهُ يحبُها"[74]، كما يقول في موضع آخر بعد أن امتدح العربية وقارنها بلغات أخرى: "و لا يكره العربية والكلام بها إلا من لا يعرفُ فضلها وبركتها"[75]؛ ويخلطون في عباداتهم وعاداتهم بين المسيحية والإسلام؛ فإذا علمنا أن عددًا هامًا من المهجرين عادوا بعد التهجير بطرق مُختلفة إلى إسبانيا أي العالم المسيحي[76]، فإن انتشار المؤلفات الجدلية عمومًا، وطلب شيخ المالكية في عصره الأجهوري خصوصًا، من الحجري تأليف كتابه هذا غير مستغرب، ويدخل بالأساس تحت مظلة مساعدة الموريسكيين على تجديد دينهم، أو حتى اعتناق الإسلام، في إطار حرب استقطاب الأتباع الضالين، في ظرف زماني ومكاني تميز نسبيًا بسهولة تغيير الفرد لانتمائه الديني.

بالإضافة إلى كل هذه الأدلة على أن كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" موجه عمومًا إلى المسلمين، والموريسكيين خصوصًا، فإن إعادة الحجري تأليف كتابه هذا في صياغة جديدة في تونس سنة 1641، أي بعد أربع سنوات من تأليفه أول مرة بمصر، دليل آخر على أهمية موضوع الجدل الديني، كخطاب ضروري وعاجل لتثبيت الموريسكيين في الدين الإسلامي، وإيقاف نزيف عودتهم إلى العالم المسيحي. أيضًا ومن جهة أخرى، فإن عملية إعادة التأليف هذه، كشفت لنا عن الوجود النسبي لساحة عامة في العالم الإسلامي عمومًا، وفي تونس النصف الأول من القرن السابع عشر خصوصًا، أمر لاحظناهُ من خلال رد الحجري على من انتقدوا بعض الجوانب في كتابه "ناصر الدين".

في نفس الإطار، وباعتبار أن فعل الكتابة هو فعل غير مجاني، بل هو أخذ للكلمة في "الساحة العامة"، بهدف إثبات رأي أو موقف، يمكننا القول أن الحجري يحاول إثبات إسلامه، ومن وراء ذلك إسلام الجماعة الموريسكية، التي بقيت إلى حدود النصف الأول من القرن السابع عشر مشكوكًا في صدق إيمانها، وتعيش وضعية هشة، حيث كانت تحاولُ أن تجد لنفسها مكانةً في المجُتمع المحلي، أمر نجحت فيه نسبيًا خصوصًا على الصعيد الاقتصادي، فقد تمكنت هذه الطائفة من السيطرة على أهم صناعات ذلك العصر في تونس، أي صناعة الشاشية[77]، كما أنها وعلى عكس ما يشير إليه بعض الباحثين، لعبت دورًا هامًا على الصعيد السياسي في تونس الفترة الحديثة، ولم تكن من الطوائف "الصامتة"، أو طائفة "سلبية" انصرفت تمامًا عن السياسة[78]، بل كانت طائفة نشيطة، حيث لعبت العديد من الشخصيات الأندلسية أدوارًا هامة على الصعيد السياسي، فلعلنا يمكن أن نذكر من هؤلاء خصوصًا: لويس ثباتا الذي يُرجح أنهُ أول من تولى منصب شيخ الأندلس، وكانت له علاقات وثيقة بيوسف داي؛ أو مصطفى كردیناس الذي دخل في صدام مع حمودة باشا الذي "استصفى جميع ما كان لهُ ومات طريدًا في غير وطنه"[79].

من كل هذا يظهر انغماس الطائفة الموريسكية في الحياة العامة، ما جعلها في بعض الأحيان تدخل في صدام مع بقية الأطراف المكونة للمجتمع، سواءً على الصعيد الاجتماعي، إذ بقيت هذه الطائفة لما يزيد عن قرن، من تاريخ قدومها لتونس مُحافظة على وحدتها، ترفض الذوبان في المجتمع المحلي، سواءً بمواصلتها استعمال اللغة الإسبانية[80]، أو برفض بعض العائلات الموريسكية تزويج بناتهن لغير الموريسكيين، أو على الصعيد السياسي، حيث وبالإضافة إلى تعرض بعض الشخصيات الموريسكية لمحن سياسية، فإن الموريسكيين وبعد سنوات قليلة من قدومهم، دخلوا في أزمة حادة مع السلطة الحاكمة

في الإيالة التونسية في شخص يوسف داي، الذي خيرهم بين دفع ضرائب إضافية أو مُغادرة البلاد[81].

كُل هذا يكشف مرةً أخرى أن الطائفة الموريسكية لم تكن طائفة صامته، بل كغيرها من مكونات المجُمع "التونسي" كانت تحاول أن تأخُذ نصيبها من السلطة، تحاول أن تفرض وجودها، في كل المجالات سواءً كانت اجتماعية، اقتصادية، سياسية أو فكرية.

من خلال نظرنا في كل هذه الجوانب، نعتقد أننا أحطنا ببعض الإشكاليات التي يطرحها موضوع الجدل الديني في كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" لأحمد بن قاسم الحجري، لكن الإجابة عمّا يطرحهُ هذا الموضوع في أوساط الموريسكيين في تونس خصوصًا، وبلدان الاستقبال عمومًا من إشكاليات عديدة ومتنوعة والخلفيات التي يُحيل عليها، تحتاج لدراسة أكثر من مؤلف موريسكي سواءً باللغة العربية، الألخاميدية، والإسبانية.

الهوامش:

* أتقدم بالشكر إلى الأستاذ سامي البرقاوي بقسم التاريخ بجامعة منوبة، الذي قدم لي التوجيه خلال إنجاز هذه الدراسة.

(2) الأندلسي بن قولش (إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا)، **العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**، ترجمة أحمد بن قاسم الحجري، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم: 1511.

(3) نعلم أنه كان في مصر منذ سنة 1636.

(4) توصلنا إلى هذا الاستنتاج باعتبار أن بقاءه بمصر كما يُؤكد لم يكن إلا بنية إتمام مُختصر الرحلة، فإذا كان إتمامه لهذا المختصر في 10 سبتمبر 1637 فذلك يعني أنه غادر مباشرةً بعد هذا التاريخ.

(5) مخطوط ناصر الدين على القوم الكافرين، مكتبة جامع الأزهر رقم: 307014. انظر تحقيقنا لهذا المخطوط: الحجري (أحمد بن قاسم)، **المخطوطة المصرية من كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين**، دراسة وتحقيق حسام الدين شاشية، منوبة، منشورات مخبر الجهات والموارد التراثية بالبلاد التونسية، 2014 (تحت الطبع).

(6) هي النسخة التي اعتمدت في تحقيق أحمد حسن بسج تحت عنوان: **ناصر الدين على القوم الكافرين**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999 والتحقيق الذي قام به محمد رزوق تحت عنوان: **رحلة أفوقاي الأندلسي: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611-1613**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005 .

(7) الحجري، 1999، مصدر سابق، ص162.

(8) نفس المصدر، ص6.

[9] هو الشيخ علي بن محمد المدعو زين بن الشيخ عبد الرحمن الأجهوري، محدث وفقيه، شيخ المالكية في عصره. ولد سنة 1559 بمصر وتوفي بها سنة 1655.

[10] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص149. يتحدث الحجري عن صديقه أحمد بن أحمد باب السوداني من تنبكتو (مالي) والذي صارت له معه مراسلات، فعاتبه عندما سمع أنه زار الكثير من البلدان وقال له: "قصرت حين لم تكتب كل ما رأيت".

[11] نفس المصدر، ص6.

[12] مخطوط رقم 1511، مصدر سابق.

[13] نفس المصدر.

[14] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص36

[15] القرآن، سورة الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

[16] الشرفي، عبد المجيد، **الفكر الإسلامي في الرد على النصارى**، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986، ص197.

[17] إتيان هوبارت، طبيب ومستشرق ودبلوماسي فرنسي.

[18] 1999، ص47.

[19] الشرفي، مرجع سابق، ص256.

[20] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص133.

[21] القرآن: سورة الكهف، الآية 4 (وينذر الذين قالوا أتخذ اللهُ ولدًا ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبُرت كلمة تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا).

[22] الشرفي، مرجع سابق، ص253.

[23] القرآن، سورة التوبة، الآية 30 (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

[24] الشرفي، مرجع سابق، ص305.

[25] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص46.

[26] نفس المصدر، صص85-86.

[27] الشرفي، مرجع سابق، ص347.

[28] نفس المرجع، ص304.

[29] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص88.

[30] الشرفي، مرجع سابق، ص398.

[31] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص38.

[32] القرآن، سورة الأحزاب، آية: 73 ﴿ يُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[33] الشرفي، مصدر سابق، ص401.

[34] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص83.

[35] نفس المصدر، ص82.

[36] نفس المصدر، ص149.

[37] نفس المصدر، ص150.

[38] هي الأربع أناجيل التي يذكرها الكاتب: أناجيل متي، مرقش، يوحنا ولوق.

[39] الشرفي، مرجع سابق، صص409-410.

[40] مخطوط رقم 1511، مصدر سابق.

[41] هو عدد التعديلات التي ذكرها الحجري وتمكنا من إحصائها، صص51-54.

[42] انظر قصة الرق في الحجري، 1999، مصدر سابق، ص11-17.

[43] نفس المصدر، ص55.

[44] الشرفي، مرجع سابق، ص417.

[45] القرآن، سورة الحجر، آية عدد 9.

[46] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص107.

[47] الشرفي، مرجع سابق، ص433.

[48] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص53.

[49] من أكثر المسائل الجدلية التي حضرت في كتاب ناصر الدين.

[50] الشرفي، مرجع سابق، ص432.

[51] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص61.

[52] نفس المصدر، ص99.

[53] نفس المصدر، ص73.

[54] انظر هذه القصة في الحجري، 1999، مصدر سابق، ص74

[55] ابن حزم، أبو محمد علي، **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، تحقيق وتقديم صلاح الدين القاسمي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990.

[56] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص61.

[57] نفس المصدر، ص72.

[58] نفس المصدر، صص79-80.

[59] يقول الحجري أنهُ جدل "على البديهة".

[60] الشرفي، مرجع سابق، ص469.

[61] الحجري، 1999، مصدر سابق، ص50.

[62] الشرفي، مرجع سابق.

[63] الحجري، 1999، ص115.

[64] انظر : اليحصبي، عياض بن موسى، **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دمشق، دار الفكر، 2002.

(65) انظر الشرفي، مرجع سابق، ص132. كذلك انظر أهمية هذا الموضوع في: عبد الله الترجمان الميورقي، أبو محمد، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، تحقيق محمود على حماية، القاهرة، دار المعارف، 1992.

(66) الحجري، 1999، مصدر سابق، ص8.

(67) الشرفي، مرجع سابق، ص14.

(68) لمزيد التفاصيل حول هؤلاء أنظر:

TUELLER, James B, «Los moriscos que se quedaron o que regresaron», en Mercedes García-Arenal y Gerard Wiegers (eds), *Los Moriscos: Expulsión y diáspora. Una perspectiva internacional*, València, Universitat de València, 2013, pp.191-209.

كذلك انظر الفصل الذي خصصناه في أطروحتنا للموريسكيين الذين اختاروا الانتماء للعالم المسيحي: شاشية (حسام الدين)، **السفارديم والموريسكيون: رحلة التهجير والتوطين في بلاد المغرب 1492-1756، تعدد الروايات والمسارات** (أطروحة دكتوراه)، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2014، ج1، صص289-301.

(69))HARVEY, Leonard Patrick, 1973, «Textes de littérature religieuse des Moriscos Tunisien», en Míkel de Epalza et Ramón Petit (éd.), *Recueil d'études sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, Direction générale des relations culturelles, Institut Hispano-Arabe de Culture, p.200.

(70))OLIVER ASÍN Jaime, 1973, « un morisco de Tunis : admirateur de lope : étude du Ms.s.2 de la collection Gayangos », en Míkel de Epalza et Ramón Petit (éd.), *Recueil d'études sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, Direction générale des relations culturelles, Institut Hispano-Arabe de Culture, p.210.

(71))BERNABÉ PONS, Luis Fernando, *El Cántico islámico del morisco hispanotunecino: Taybili*, Zaragoza, Institución Fernando El Católico 1988.

(72) HARVEY, *op cit.*, 1973

(73))PENELLA ROMA, Juan, « Littérature morisque en espagnol en Tunisie », en Míkel de Epalza et Ramón Petit (éd.), *Recueil d'études sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, Direction générale des relations culturelles, Institut Hispano-Arabe de Culture, 1973, p.201.

(74) الحجري، 1999، مصدر سابق، ص65.

(75) نفس المصدر، صص116-117.

(76)BENÍTEZ CLAROS, Rafael, «La Geografía de la España morisca »,en Raja Yassine Bahri (éd.), *Cartas de la Goleta* (Actas del coloquio « Los moriscos y Túnez » Noviembre 2008), Túnez, Embajada de España en Túnez, 2009, pp.65-82.

(77)Al-ANNabi, Muhammad, 1973, «La chéchia tunisienne », en Míkel de Epalza et Ramón Petit (éd.), *Recueil d'études sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, Direction générale des relations culturelles, Institut Hispano-Arabe de Culture, 1973, pp.304-307.

(78) السراج، أبو عبد الله محمد، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، لبنان، تحقيق وتقديم الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص58.

(79) ابن أبي دينار، أبو عبد الله، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، بيروت، دار المسيرة، 1993، ص261.

(80) بقي بعض الموريسكيين يتحدثون اللغة الإسبانية بعد أكثر من قرن من قدومهم إلى تونس، وهو الأمر الذي لاحظهُ فرنشيسكو خيمينات في يومياته انظر:

Epalza, Míkel de, Nouveaux documents sur les andalous en Tunisie au début du XVIIIe siècle», *Revue d'Histoire Maghrébine*, N°.17-18 (1980), pp.79-108.

(81) التميمي (عبد الجليل)،"تطور موقف سلطات تونس تجاه الموريسكيين على ضوء فرمان جديد للسلطان العثماني"، ضمن عبد الجليل التميمي، **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، زغوان، مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1993، ص26.

تحوُّلات الشخصية اليهوديّة عبر العصور

د/ سمير ربوزي

جامعة الجزائر2

الكلمات المفتاحية: بنو إسرائيل - الشخصية اليهودية - عوامل فساد الفطرة - التاريخ - القرآن الكريم

ملخّص البحث:

لم يشغل بالَ المسلمين، وغيرِهم، على مرّ العصور والدّهور، من أحوال الأمم والجماعات، مثلُ ما شغلَهم من خصائص الشخصية الإسرائيلية عموما، واليهودية منها على وجه الخصوص، ويرجع هذا الاهتمام إلى أمور كثيرة، منها عراقة تاريخ الأمّة الإسرائيلية، وكثرة ما بُعث فيها من الأنبياء، ونزل عليها من الشرائع السماوية، هذا من جهة، ومن جهة مقابلة لكثرة ما سجّله التاريخ من جرائمَ وانتهاكات، ارتكبها بنو إسرائيل في حقّ أنبيائهم خاصّة، وفي حقّ الإنسانية على وجه العموم.

تحاول هذه الورقة أن تسلّط الضوء على أبرز المحطّات المؤثّرة في تاريخ هذه الأمّة، وأهمّ ما وقف وراء انطماس فطرهم، وانطباعهم على صفاتٍ ذميمة، وأخلاق رديئة، لم يزل -إلى اليوم- يتوارثها الأحفاد عن الأجداد، اعتماداً على مصادر تاريخية مأمونة، في مقدّمتها أصدق وثيقة تاريخية نقلت أخبار بني إسرائيل، وفضائح اليهود، وهي القرآن الكريم.

Résumé :

Au cours de l'histoire, les musulmans, les groupes humains et les nations se sont préoccupées par la caractéristique de la personnalité israélienne surtout juive. Cette préoccupation d'une part est née grâce à l'ancienneté historique de la nation islamique, aussi au nombre considérable des prophètes y envoyés et les révélations célestes; d'une autre part grâce aux violations et les crimes enregistrées dans l'histoire qui ont été commises par les israéliens contre les prophètes alors contre l'humanité entière.

Dans cette perception on essaye de monter les points importants dans l'histoire de cette nation et de définir les causes de la déformation nuisible des instincts : des mauvaises coutumes…cette déformation est héritée d'une génération à une autre. En montrant ces points, on dépend des sources historiques confiantes surtout le Coran,

qui est le plus confiant, sur l'histoire des israéliens et les crimes des juifs.

مدخل:

لن نُبالغَ إن قلنا إنّ الكتابات المخصصة لدراسة الظاهرة اليهودية، وأخبار الأمة الإسرائيلية، من الكثرة بحيث تجاوزت الحدّ المطلوب، وفاقت كلّ التوقّعات والظّنون، ولعلّ الظنّ لا يخيب إن أرجعَ هذا الزّخم إلى أمور ثلاثة، يمكن إيجاز ذكرها فيما يلي:

1. تزايُد انتهاكات اليهود لحقوق الإنسان، وجناياتهم على مقدّرات العالم بأسره، ومقدّسات الأمم والشعوب، الأمر الذي ينتجُ عنه تزايدٌ في الكتابة عنهم، والتشهير بسَوْءاتهم وفضائحهم.
2. أنّ اليهود خاصّة، وبني إسرائيل عامّة، لا يُعرف لهم غياب عن عصر من العصور، ولا عن تطوّر من التطوّرات التي شهدها العالم منذ زمن يعقوب عليه السلام، وإلى يوم الناس هذا، فلا عجَب أن كثُر التأليف فيهم، والكلام عن وقائعهم ودسائسهم.
3. والأمر الثالث أنّ كثيراً من المسلمين، لاسيما في الأزمنة الأخيرة، ركنوا إلى كثرة الكلام، والبكاء على اللبن المسكوب، ومن هؤلاء نجد كُتّاباً عالجوا هذا الموضوع بشيء من الموضوعية، وكثيرٍ من الانطباعية الذّاتية، التي تضيع بين ثناياها التأصيلات المتينة، والتأمّلات الرصينة، التي يحتاجها البحث الهادئ في هذا المجال، ليتمّ له في النّهاية معرفة الدّاء والدواء، وقديما قيل: إذا عُرف السبب، بطل العجب.

وإذ نتقدّم بهذه الورقة، فإنّنا لا نزعم فيها إتياناً بجديد، ولا تنقيصا من الأعمال المتكاثرة المتوافرة السابقة واللاحقة، وإنّما نصبو إلى تشخيص الدّاء العُضال الذي أصيبت به النفسية الإسرائيلية عموما، واليهودية منها على الوجه الخصوص، من خلال تأمّلات هادئة في نصوص قرآنية، وأخرى تاريخية، وإنّنا –في هذا العمل- نصبّ أوفر اهتمامنا على أمرين بالغيْ الأهمّية:

الأوّل: صحّة المعلومة، ودقّة استنباط ما فيها من الأسرار اللطيفة، والحِكم البليغة.

والثاني هو الغاية الأسمى لعملنا هذا، بل لعلم التاريخ، بمختلف أنواعه وأطواره، ألا وهي توخّي أخذ العبر والعظات من أخبار السالفين، مصداقا لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾.

وأخذُ العبرة هنا يُرجى منه تجنّب ما يأتي بيانُه من صفاتٍ ابتُلي بها أكثر بني إسرائيل، فآلت بهم إلى أسوء حال، وشرّ مآل، ورد ذكره في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى

في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)﴾

تمهيد:

اتفق العلماء على أن أصل تسمية بني إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وقالوا إنّ إسرائيل كلمة عبرانية، مركبة من "إسرا"، وتعني كلمة عبد، و"إيل"، وهي الله في العبرانية، فيكون المعنى عبد الله[1]، قال الطبري رحمه الله: "وكان يعقوب يدعى إسرائيل، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه، وإيل هو الله، وإسرا هو العبد"[2]، وعلى ذلك فإنّ الأمّة الإسرائيلية متفرّعة عن أبناء هذا النبي الكريمﷺ، وهم اثنا عشر ولداً ذكرا، منهم الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف الصدّيق، عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وأخوه بنيامين، اللذان لقيا من إخوتهما ما نقلته لنا سورة يوسف، من الظلم الشديد، والجفاء الكبير، حتّى إنّهم همّوا بقتل نبيّ اللهﷺ، ولم يرقبوا فيه إلاً ولا ذمّة، وهنا نتساءل: ما بال هؤلاء الإخوة يصدر عنهم مثلُ هذا الموقف الوحشي، على الرغم من أنّهم تربّوا في بيت علم ونبوّة؟.

لقد تفنّن الكُتّاب والمؤرّخون، والمفسرون، وحتى القُصّاص والروائيون، في تصوير معاناة نبيّ اللهﷺ، وما ألحقه به إخوته العشرة من مرارة عيش، ولوعة فراق، وتعرُّضٍ لمختلف أشكال الابتلاء والمضايقات في دينه ودنياه، ونُظمت الأشعار، وأُلّفت الخُطب، حتى صارت قصّة يوسفﷺ حديث العجائز والصبيان، بل صارت مثلا لكلّ حسد يقع بين اثنين، فضلا عن أن يكون وقع بين أخوين أو قريبين، ولكن، ومع ذلك، فإنّ هذا النوع من الكلام لا يسعفنا فيما نبغي الوصول إليه، لأنّه مركّب غالبا من ركنين أساسيين: 1- ذمّ الإخوة العشرة، وتقبيح صنيعهم مع أخيهم. 2- والثناء على نبيّ الله يوسفﷺ، وإكبارُ ما صدر عنه تجاهَهم، من كظم للغيظ، وعفو عند المقدرة، وثبات على البلاء، وسلامة من الفتن بأنواعها، وإنما لا يُسعفنا هذا الكلام في معرفة ما إذا كان ما صدر عن أبناء يعقوبﷺ العشرةِ، ناشئاً عن طبعٍ فيهم، تميّزوا به عن غيرهم، فيكون صنيعهم مع أخيهم يوسف، وصنيع أحفادهم مع إخوته الأنبياء عليهم السلام، تاريخاً معيداً لنفسه، ومتابعةً للولد أباه في سلوكه ومذهبه، وهو ما يشبه القول بانتقال الطباع بالوراثة؟، أم تُراه يكون ناتجاً عن صفات معيّنة، وظروف خاصة، اجتمعت على بني

إسرائيل، فصارت بهم إلى هذه الحال الرّديئة، التي نشأ عليها الشُّبّان، وشاخ عليها الشِّيبان، ويهمّنا نحن أن نعرف هذه الظروف، وتلك الصّفات، لئلا يصيبنا ما أصاب القوم من فساد المظهر والمخبر، فالسّعيد من وُعظ بغيره.

إنّ أكثر من تكلّم عن بني إسرائيل، لاسيما إذا كان في معرض الحديث عن اليهود، إنّما يُفهم من كلامه أنّ القوم جُبلوا على الحسد، والجبن، وكلّ رديء من الأخلاق، ويظهر ذلك بوضوح في كلام بعض المفسرين، وأكثر المؤرخين، حين يشرع الواحد منهم، مباشرةً، في ذمّ إخوة يوسف، وذمّ فِعالهم، دونما بيانٍ لسبب وقوعهم فيما وقعوا فيه، فضلا عن الإشارة إلى أنّ غيرهم من الناس، وحتى المسلمين، يمكن أن يقارف ما قارفوه، وربما أكثر، وهذا واقع الناس شاهد على ذلك، وهذا المذهب غير دقيق، ولعلّه يمثّل جهة الإفراط في التعامل مع صفات بني إسرائيل، وموقف الإسلام منهم.

وأمّا جهة التفريط، فهي التي يقف فيها المرء مدافعا عن هؤلاء القوم، وقد يكون لذلك دوافع كثيرة، يعسر في هذا المقام حصرُها، ولا يهمّنا منها ما كان ذاتيّا، أو عنصريا، كأن يكون صاحب هذا الموقف متعصّبا لهم، أو أحد أفرادهم، وقد أثبت التاريخ أن العنصرية، والتعصّب المقيت، من صفات بني إسرائيل (خاصة اليهود منهم)، ولهذا قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3]، وقالوا ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [4]،﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[5]،و﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾[6]، ولا يزال واقعهم اليوم شاهدا على غرورهم، وإعجابهم بأنفسهم، بل وعدم اقتناعهم بأن أحدا من غيرهم يكافئهم، فضلا عن أن يتقدّمهم، أو يفْضُلهم في شيء، قلت لا يهمّنا مثلُ هذه الأقوال والمذاهب، وإنّما الذي يستحقّ المناقشة أن يعتبر بعضُ المتحرّين للإنصاف، والمتخوّفين من نسبة الظّلم إلى المولى تبارك وتعالى، بني إسرائيل كغيرهم من الناس، وأنّ الله تعالى لا يأخذ الأبناء بجُرم الآباء، وأنّه لا تزر وازرة وزر أُخرى، ونحو ذلك من مسوّغات القول بنفي أن يكون بنو إسرائيل منطبعين على صفات قبيحةٍ، وطباع فاسدة، الأمر الذي يفسّر مشابهة الأبناء منهم للآباء، وكونَهم سائرين في خطّ واحد، لا يتغيّر، هو الإجرام، والإفساد، والحقد، والخيانة.

ونحاول في هذه السطور أن نتوسّط هذين القولين، ونسلك طريقة القرآن في رسم معالم الشخصية اليهودية، وبيان ما كان سببا في تخلّصها للشرّ، إلا من رحم الله

تعالى، وأنّ بني إسرائيل، إنما وصل بهم الأمر إلى حالهم الرّديء، وصفاتهم القبيحة، بسبب عوامل وظروف، أدّت إلى ظهور الحسد في أصولهم، ثمّ مرورهم بمراحل ومحطّات، أدّت إلى رسوخ هذه الصفة في أحفادهم وفروعهم، بل وظهور صفات جديدة، كانت القرون الطويلة كافية لجعلها منهم بمكان الطبع والسجية، كالذّل، والهوان، والمسكنة، والمكر، والخداع، والإفساد بين الناس، والأدلةُ على ذلك كثيرة، أكتفي منها بما ورد في سورة يوسف من إشارات، ثمّ بوقفات سريعة عند المحطّات الكبرى التي مرّ بها بنو إسرائيل، بدءً ببني إسرائيل الأصول، وهم الاثنا عشر ولدا أبناء يعقوب عليه السلام، ومرورا بمن أدرك منهم الدعوة المحمّدية المباركة، وهم اليهود والنصارى[7] في الاصطلاح القرآني، والواقع العامّ، بما يتشكّل لنا من خلاله ملامحُ واضحةٌ لهذه الشخصية الغامضة.

وإنما ذكرت قريبا طريقة القرآن الكريم، للإشارة إلى أنّ كثيرا ممن كتب في تاريخ بني إسرائيل، وطباعهم السيئة، جانَب كثيرا من هدي القرآن الكريم، الذي -على سبيل المثال- لم يفتتح ذكر قصة يوسف مع إخوته، بالتشنيع عليهم، أو إصدار أحكام مسبقة، فضلا عن الإشارة إلى تأصّل الشرّ فيهم، ولا أنهاها بتبريئهم، والتماس العذر لهم، كما فعل البعض، لاسيما ممّن بالغ فاعتبر هؤلاء الإخوة العشرة أنبياءً، وراح يناقش مسألة هل كانوا أنبياء قبل حادثة الكيد لأخيهم، أم بعد ذلك، وكلاماً من هذا القبيل[8].

لم يرد في القرآن الكريم هذا ولا ذاك، أعني ما اعتبرتُه إفراطا وتفريطا من أعمال كثير ممّن كتب في بني إسرائيل، أو اليهود خاصّة، وإنما ورد فيه ذكر الدّاء والدواء، بأسلوب حكيم، وطريقة رائعة، الهدفُ منها أن يستفيد المسلم مما في هذه القصة العجيبة من عبر، ويكون ممّا وقع فيه أولئك الإخوة على حذر، مما كان سببا في فساد أكثر أحفادهم وأجيالهم، وحتى لا أطيل كثيرا، فإنني سأكتفي باستخراج ما في سورة يوسف من إشارات مع شواهدها، بما يكفل لنا الاهتداء إلى معرفة أبرز التحوّلات التي مرّ بها الإنسان الإسرائيلي، حتى وصل إلى أسوء ما يمكن أن تكون عليه نفسٌ بشرية، وإلى مرحلةٍ يكاد يكون الطّمع في اهتدائه معها، واستقامة سلوكه ونفسيته ضربا من الخيال.

أبرز الأحداث التي شهدتها الأسرة الإسرائيلية الأولى، من خلال سورة يوسف عليه السلام.

أعرض فيما يلي أربع إشارات قرآنية، تضمّنتها بِضعُ آيات كريمة، من هذه السورة العظيمة، تُعتبر كافية لمعرفة سرّ انطباع أكثر نفوس بني إسرائيل على صفات الشرّ والفساد، والإجابة عن الأسئلة المطروحة سابقا، وأهمّها: لماذا اختصّ هؤلاء القوم بهذه

الصفات؟، وهل كان ممكنا أن يكون غيرهم، إذا ما مرّ بما مرّوا به من ظروف وأسباب، وقام بما قاموا به من أقوال وأفعال، مثلَهم، أو أكثر منهم؟،
فإلى هذه الإشارات، وما فيها من عبر وعظات:

الإشارة الأولى

قوله تعالى في الآية الخامسة من هذه السورة: ﴿ يابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾.

في قوله عليه السلام ليوسف: ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾، بدل قوله فيحسدوك، دليل على أنّ الحسد كان ظاهرا عليهم قبل ظهور هذه الرؤيا، وإنما كان الذي خشيه عليه السلام على ولده، هو انتقال الحسد إلى مرحلة الكيد وإلحاق الأذى بالمحسود، وهذه مرحلة حتمية من مراحل الحسد المتقدّمة، ما لم يجاهد الحاسد نفسه، ولم يحتط المحسود لشرّه، ويكن منه على بال، وممّا يؤيّد ذلك، أعني ظهور الحسد في إخوة يوسف قبل مرحلة ظهور الرؤيا، أمران:

أن من المفسّرين من أشار إلى ذلك، قال الطبري رحمه الله: "وإنما قال يعقوب عليه السلام ذلك، لأنه قد كان تبين له من إخوته قبل ذلك حسد"[9]، وقال ابن عطية: "تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غلّ صدورهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه.."[10].

والأمر الآخر قول الله تعالى في الآية الثامنة: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾، فبما أنّنا نجزم أن يوسف عليه السلام لم يكن لِيُخالِفَ وصيةَ أبيه عليه السلام بعدم إطْلاع إخوته على ما أراه ربّه في منامه، فإنّ مقالة إخوة يوسف في هذه الآية تكون ناشئة عن حسد سابقٍ لهذه الرؤية، وهذا الحسد هو ما جعل يعقوب عليه السلام يمنع ولده من إظهار رؤيته لإخوته، لأنّه كان على دراية بما يكنّه الإخوة العشرة من حسدٍ له عليه السلام، وربّما كان يُظهر لهم منه أنّه لا يأمنهم عليه، أو ربما كانت عينُه تراقبُهم حين يكون بينهم، أو نحو ذلك مما يكون من رعايةٍ للمحسود، وحماية له من حاسديه وأعدائه، ولعلّ ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)﴾ دليلٌ على صحّة هذا القول، لأنّ فيه بياناً منهم لموقف أبيهم من علاقتهم بأخيهم، وإقرارا منهعليه السلام بذلك،لأنّه لم ينكر أنّه لا يأمنهم عليه، وهو اتّفاق بينه وبينهم على أنّهم حاسدوه، ومضمرون له شرّا الله أعلم بزمان وقوعه ومكانه.

وبذلك يتبيّن بُعد ما ذهب إليه القرطبي في قوله: "وإنما قالوا هذا-أي قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾- لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فيكيده"[11] من كلّ وجه، ولأنّ ما قاموا به، من محاولة قتله، ثم إلقائه في الجبّ، وبيعه بثمن بخس، ثمّ اتّهامه بالسرقة، بعد سنين طويلة من إبعاده عن أبيه، وغير ذلك من مكائد وبهتان، دليل على أنّ الحسد قد سكن قلوبهم منذ مدّة، وأنّ حادثة الرؤيا، إن ثبت بلوغ خبرها إليهم، وهو بعيد، فإنها لا تعدو أن تكون القطرة التي أفاضت الكأس، والله أعلم.

الإشارة الثانية: قوله تعالى في نهاية الآية السابقة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾.

ورد هذا المقطع من الآية على لسان يعقوبعليه السلام، وهو في مقام تعليل لما يمكن أن يصدر من الإخوة من الكيد العظيم لأخيهم يوسف، وفي ذكر الشيطان في هذا المقام نفيٌ لأنْ يكون الأصل في بني إسرائيل إضمار الشرّ لأهل الصلاح، والسعي في إلحاق الأذى بهم، ونشر الفساد في الأرض، إذ لو كان الأصل في هؤلاء العشرة، بل لو كانوا يضمرون العداوة ليوسف قبل أن يحسدوه، أي بالطّبع فيهم، لقال مثلا: إنّهم كانوا ظالمين، أو قال إن الله لا يحبّ المعتدين، أو نحو ذلك مما يُفهم منه أنّ إخوة يوسف أرادوا به سوءً لمجرّد انطباعهم على حبّ الشرّ، أو الرغبة في الإفساد، ولكن الآية أثبتت أنّ هذا الحسد والكيد، إنما كان يغذّيه الشيطان بما توفّر له من مداخل على قلوب هؤلاء الإخوة المريضة.

الإشارة الثالثة: ومن الإشارات اللطيفة إلى هذا المعنى أيضا، أن الله تعالى قال في الآية السابعة من هذه السورة:﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)﴾، وقد اختار كثير من المفسرين المعنى العام لهذه الآية، أي "لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرعجيب، يستحق أن يستخبر عنه"[12]، غير أنّ فريقا آخر من المفسرين تنبّهوا إلى مناسبة نزول هذه القصة على قلب النبيﷺ، في هذه الفترة بالتحديد، وهي مرحلةُ تكذيبٍ شديد له من قومه، وقرابته من قريش، حيث اعتبروا، -أعني هؤلاء المفسّرين-، أنّ الله تعالى إنما أنزل على

نبيّهﷺ في هذا الوقت سورةَ يوسف، وما فيها من أحداث وقعت لهذا النبي الكريمعليه السلام، تسليةً لقلبه، وتثبيتا له، بسبب ما يلاقيه من قومه، وأقرب الناس إليه، قال الطبري رحمه الله: "إنّ الله تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة على نبيه، يُعْلمه فيها ما لقي يوسف مِن أدانيه وإخوته من الحسد، مع تكرمة الله إياه، تسلية له بذلك مما يلقى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش"[13].

وإنما أوردتُ هذا الشاهد في هذا المقام، للإشارة إلى أن الله تعالى ما أنزل هذه السورة في هذا التوقيت المناسب، إلا لحكم جليلة، منها أنّ دعوة الأنبياء واحدة، وأنّ موقف أقوامهم منهم يوشك أن يكون واحدا، ولا يظهر الاختلاف غالبا، إلا في الصور والأشكال، وهذا أقل ما فيه أنّ ما وقع فيه إخوة يوسف ليسوا مخصوصين به، وإنما يشاركهم فيه غيرهم، ممن توفرت لهم أسبابه، وتشابهوا معهم فيه.

وممّا يمكن أن يُعقَّبَ به أيضا على من يطلق نسبة الشر والحسد إلى بني إسرائيل، ثمّ يستدلّ بقصة إخوة يوسف العشرة، معه ومع أخيه بنيامين، أنّ عبارة بني إسرائيل تشمل الأولاد جميعا، بغير استثناء ليوسف وأخيه، ومعلوم ما كان عليه يوسف وأخوه من الخلق الفاضل، والسلوك الرضيّ، بحيث لا يليق بهما أن يُنسب الحسد، وغيره من الأخلاق الرديئة إلى بني إسرائيل، بل لا يليق ذلك بإسرائيل نفسه، وهو يعقوبعليه السلام، ولذلك كان المذهب المعتدل اعتبار صفات الحسد وما يتولّد عنه، ناشئا عن ظروف يأتي بيان أهمّها، لا مجرّد كون أصحابه أجدادا لليهود، أو جُناةً في حقّ أخيهم يوسفعليه السلام.

وممّا يؤكّد ذلك ما نَقَلَته لنا وقائعُ هذه القصة المذكورةُ في سورة يوسف، من أنّ هؤلاء الإخوة العشرة أنفسهم، لم يكونوا على نصيب واحد من هذه المشاعر السيئة، فقد حكت لنا الآية أنّ أحد هؤلاء الإخوة اعترض على قتل يوسف، وأشار على التسعة الباقين بإلقائه في غيابات الجُبّ، وهذا التفاوت يُمكن أن يُعرف بغير الاعتماد على هذه الآية، لأنّ الأسلوب الإعلامي التحريضي الذي سلكه بعض هؤلاء الإخوة في قولهم: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾، يُشعر بأنّه كان فيهم معارضون، أو على الأقل متردّدون، لسبب أو لآخر، قد يكون بقيّة من الخير والرشاد، وقد يكون الخوف من العاقبة، وقد يكون بعض مشاعر الأخوّة والرأفة، ولذلك تطلّب الأمر أن يجتهد من امتلأ قلبُه حقداً، وعزم على إيقاع الأذى بأخيه، في إغراء هذا الصنف المتردّد من الإخوة، ولعلّه يكون من الإخوة لأب أيضا، لأن أولئك العشرة لم يكونوا أشقاء جميعهم، وإنما تنقل لنا أخبار التاريخ، وأقوال المفسرين أن "ستّة فقط من أبناء يوسف كانوا

أشقاء، وُلدوا ليعقوب من زوجه ليئة، وهم رأوبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشجر، وزيالون، وأما الستة الباقون فكلّ اثنين منهم لأمّ، إمّا راحيل: وولداها يوسف وبنيامين، وإمّا زلفا، جارية ليا، وولداها جاد وأشير، وإما بلها جارية راحيل، وولداها: دان ونفتالي[14].

الإشارة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الآية إشارات بالغة الأهمّية، لها نصيب وافرٌ من الطّرق الموصلة إلى هدفنا المنشود في هذا الجزء من المبحث، وهو معرفة سبب صدور الحسد في أبناء يعقوب عليه السلام، وما يتفرّع عنه من صفات كذب، وحقد، وغلّ، ومكر، وخديعة، ونجمل هذه الإشارات فيما يلي:

قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾: مع أنّه أخوهم أيضا، فيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الأخ، وهو بنيامين، أخ شقيق ليوسف عليه السلام، وأمّهما راحيل كما تقدّم، وهذا ما تثبته كتب التاريخ والتفسير المختلفة، ويُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59)﴾، فقد وردت الإشارة إلى بنيامين في هذا الموضع الوحيد في سورة يوسف على أنّه أخٌ لأب، في مخاطبة يوسف عليه السلام لإخوته، بينما في بقية المواضع كان يُنسب إلى يوسف على أنّه أخوه بإطلاق، كما في مقالة إخوة يوسف في آية الباب، وكما في قوله تعالى: ﴿ولَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70)﴾، وقوله تعالى على ألسنة إخوة يوسف: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وغيرها.

وفي هذه الإشارة مكوّن من مكونات الحسد في نفوس هؤلاء الإخوة، وهو الفكر العنصري، ويظهر من كون المحسود أخاً لأب، وليس أخا شقيقا، وهذا السبب لا يمكن أن يستقلّ وحده من وجهين: **الأوّل** أنّ عدم كون الأخ شقيقا لا يكون دائما حاملا على حسدِه، و**الوجه الثاني** أنّ الأخ قد يحسد أخاه الشقيق أيضا عياذا بالله تعالى، وإنّما اعتبرنا هذا العنصر مكوّنا فرعيا لظهور الحسد في نفوس القوم، لأنّه إذا اجتمع إلى ما يأتي ذكره من

عناصر، يصير فاعلا، لاسيما إذا كان هنالك إخوة أشقّاء، ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية لتحذّر من هذا المزلق النفسي الخطير، وهو التفريق بين أبناء الزوجات، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وفيه أنّ أباه بشيرا أعطاه عطية دون سائر إخوته، فلم ترض أمّه عمرة رضي الله عنها هذه العطية، واشترطت لقبولها أن يشهد عليها رسول اللهﷺ، فلمّا عرض بشيرﷺ عطيّته على رسول اللهﷺ، سأله: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال لا، قال: «فاتَّقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[15].

وفي هذا الحديث ذكرٌ للتقوى، إشارةً إلى خطورة الأمر، وفيه إطلاق الأمر بالعدل، حتى لا يُفهم منه أن العدل يكون في العطايا وحسب، أو نحو ذلك من الأمور المحسوسة، إذ قد يكون التفريق بين الأولاد في قُبلة، أو ابتسامة، أو ربما فيما دون ذلك مما يحقر الناس، ولذلك جاء الأمر بالعدل بين الأبناء مطلقاً في هذا الحديث وغيره.

وهنا مسألة قد تشوّش على البعض هي: هل معنى هذا الكلام الأخير أن يعقوبعليه السلام كان مساهما في ظهور الحسد بين إخوة يوسفعليه السلام؟، وبعبارة أخرى، هل ظهر منهعليه السلام، ما يمكن أن يكون سببا في إغارة صدور الإخوة الأشقاء، على أخويهم؟.

في الحقيقة ليس في سورة يوسف إلا نفي أن يكونعليه السلام مقصّرا في واجب العدل بين أبنائه، وسدّ كل الطرق المؤدّية إلى وقوع الحسد والشنآن بينهم، وإن كان شيءٌ، فما ورد على ألسنة الأبناء العشرة، وليسوا محلّ ثقة وقت صدور مقالتهم تلك، وهي قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾، وحتى وإن صحّ هذا القول، فإنّ مسألة الحبّ ليست في يد الإنسان، وإنّما هو مغلوبٌ عليها، وهنا ملاحظتان:

- أن يعقوبعليه السلام معذور في تفضيل يوسف وأخيه على سائر أولاده، من عدّة وجوه، نختار ثلاثة منها:

-1-أنّهما الأفضل، والأكثر تخلّقا، وأدبا، وبرّا بوالدهما من بقيّة الإخوة، والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصى، وهل يستوي قول يوسف مثلا: يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، وقول إخوته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾، وقولهم له كفاحاً في موضع آخر: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) ﴾.

-2- **والوجه الثاني** أنّ يوسف وأخاه كانا أصغر أولاد يعقوبعليه السلام[16]، فكان لذلك مزيد شفقة أبيهما عليهما، وحبّه لهما، قال ابن عطية رحمه الله: "حبّ يعقوب ليوسفعليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمّهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل

لبعضهم: أيّ بنيك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق"[17].

-3- وأما الوجه الثالث: فلأنّ يوسف وأخاه، زيادةً على صغرهما، وموت أمّهما، فإنّهما ابنا شيخوخته، ومعلوم أن الرجل إذا ولد له ولد، وهو شيخ كبير، فإنّه سينال من عطفه، ومحبّته، ما لم ينله إخوته قبله، وقت كهولته أو شبابه، لأن الشّيخوخة مظنّة الانكسار والرّقة، ولذلك جاء في سفر التكوين: "وأما إسرائيل، فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه، لأنّه ابن شيخوخته، فصنع له قميصا ملوّنا، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه"[18].

ولكن، مع ذلك، وإنصافا لهذا النبي الكريم، فإنّ مجموع ما ورد في نسبة ميله إلى ولديه يوسف وبنيامين، وتفضيلهما عن باقي أولاده، كما في تفسير البغوي مثلا، قال رحمه الله: "كان يعقوب شديد الحب ليوسف، وكان إخوته يرون من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة.."[19]، وقال صاحب تفسير المنار: "ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا:

دلائلُ العشق لا تخفى على أحد *** كحامل المسك لا يخلو من العبق"[20].

وغيرها من الأقوال، مضافاً إليها ما في سفر التكوين، من صنع القميص الملوّن ليوسف، واعتبارها قرائن دالّة على ميل نبيّ الله يعقوب إلى ولديه يوسف وبنيامين، أقوالٌ حسنة، ولكن أحسنُ منها تنزيهه من ذلك، لاسيما وأنّ النص لم يأت بذلك، بل جاء بنقيضه، من تكذيب مدّعي ذلك، وكشف مكنون صدورهم، وسيّء فعالهم.وحتى وإن كان بدر منه عليه السلام بعضُ ما يحرّك مكامن الشرّ في نفوس الإخوة العشرة، إلا أنّه لا يعتبر عذرا لهم في مطاوعتهم أنفسَهم، واستجابتهم لأوامر شياطينهم بالكيد لأخيهم الغلام البريء، وتعريضه للخطر والضرر.

وعليه، فإنّ بين أيدينا، إلى حدّ الآن، سببين لنشوء الحسد في نفوس إخوة يوسف، أحدهما ثابت، والآخر محتمل، الثابت كونه أخا لأب لهم، وليس شقيقا، (العنصرية) والآخر كونُهم عاينوا من أبيهم ميلا إلى يوسف وأخيه، فتأجّجت نار الغيرة في قلوبهم، وأعماهم الحسد، فأصبحوا مبغضين لأخويهم، راغبين في أذيّتهما.

ولعلّ مما يستبعِد كون الحقد والحسد ناشئين عن شعور الإخوة بميل أبيهم إلى يوسف وبنيامين وحسب، ويؤكّد ما سبقت الإشارة إليه، من أنّ الحسد كان سابقا لحادثة الرؤيا، وربما بسنوات، أنّ الآية الكريمة الثامنة، نقلت لنا تضجّر الإخوة من حبّ أبيهم

لأخويهم أكثر منهم، ثمّ جاءت التاسعة لتحكي لنا تآمرهم على قتل يوسفﷺ، وهنا سؤال: لماذا إذن لم يتآمروا على قتل الأخوين معاً؟.

لاشكّ أن حقدهم على يوسف أكثر من حقدهم على أخيه يستبعد، ولو قليلا، احتمال رجوع هذا الحسد إلى هذه المحبّة وكفى، بل حتى اعتبارها سببا أساسيا في ظهور هذا الداء فيهم، لأنّ الذي يظهر، والله أعلم، أنّ هنالك أسبابا أخرى، هذا أوان ذكر سبب آخر منها، لا أشكّ في كونه متقدّما على غيره في وقوع هذه البلوى، وهو الجهل، والجهل ظاهر في كلّ فصول هذه القصة، ومنها مقالتهم الأخيرة: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾، لأننا إذا اعتبرنا هذا القول صحيحا، ولو من وجه أو وجهين، فإنّه قول صادر عن جهل، لأنّ الحب، كما تقدّم، ليس ملكا لصاحبه، وحسبنا في ذلك أنّ ربّ العالمين أمر بالعدل بين الزوجات، ثمّ قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[21]، "أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع"[22]، هذا على فرض أنّه بدر من يعقوبﷺ ما يكشف عن تفضيله في المحبة يوسف وبنيامين على باقي أولاده، وأمّا إن لم يثبت ذلك، وكان منهم محض تكهّن، وتطاول على السرائر، ورجم بالغيب، فإنّهم يكونون مع كونهم جُهّالا، قوماً بُهتا وأفّاكين.

ومما يدلّ على جهلهم أيضا قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، "أي نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة"[23]، فالمقياس الذي اعتمد عليه هؤلاء، مقياس رديء فاسد، بل هو مقياس دنيء، يبتغي به صاحبه المعاوضة والمقابل، نظير ما يبذله لمن يرجو محبّته من خدمة ومنَعة، فكأنّهم قالوا نحن من يمنع أبانا، ويخدمه، فكيف يحبّ غيرنا أكثر منا، كان عليه أن يحبّنا نحن، نظير ما نقدّمه له من خدمة ورعاية، "بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنّوا مدارك يعقوبﷺ مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل، غير ما ينظره من دونهم"[24].

وأختم هذه الإشارات بما ورد ذكره أخيرا، وهو ما تحكيه كتب التاريخ، وأخبار بني إسرائيل، وهو أنّ هذه الأسرة الأمّ لبني إسرائيل، كانت تسكن البادية[25]،ويظهر ذلك جليّا في قوله تعالى على لسان نبيّه يوسفﷺ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾، وعامل البداوة هنا مؤثّر جدّا، وقد تقرّر أنّ البداوة تورث الجفاء والغلظة، يُعرَف ذلك بالمشاهدة، ويؤكّده قولُه عليه الصلاة والسلام: «من بدا جفا»[26] قال الزمخشري: "..أي من سكنها صار فيه جفاء الأعراب، لتوحّشه، وانفراده، وغلظ طبعه، لبعده عن لطف الطباع، ومكارم الأخلاق، فيفوته الأدب، ويتبلّد ذهنه، ويقف عن فهم دقيق المعاني ولطيف البيان.."[27]، فبنو إسرائيل الأوائل اجتمع إليهم، إضافة إلى الأسباب السالفة الذكر، أنّهم كانوا بدواً، فجهل، وحسد، وبداوة، وغلظة طباع، كلّ ذلك، مع ما سيأتي، أسهم في مسخ عقلياتهم، وتشويه نفوسهم، ليصيروا منكوسي الفطرة، يستحسنون القبائح، ويستقبحون الحسنات، ولم يبق لنا في هذه النقطة إلا الإشارة إلى أمرين هامّين، لننتقل بعد ذلك إلى مرحلة ما بعد يوسفﷺ، وهي المرحلة المحورية في حياة بني إسرائيل، وفيها تشوَّهَ أكثر ما بقي سليما من فِطَرهم، على أيدي الفراعنة، بعدما أصلح الله تعالى بين يوسف وإخوته، وطلبه منهم أن يأتوا إلى مصر بأهلهم أجمعين:

الأمر الأول: أنّ مما يمكن إضافته إلى أسباب ظهور الحسد في بني إسرائيل العشرة، أنهم كانوا في بيت علم ونبوّة، ثمّ ظهر التفاوت بينهم، مع ما سبقت الإشارة إليه من أسباب مشاركة أخرى، وهي العنصرية، والجهل، والبداوة، ومما يُستأنس به في إثبات هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)﴾[28]، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[29]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)﴾[30].

ففي هذه الآيات، ونظائرها، إشارة إلى أنّ مجيء العلم كثيرا ما يكون سببا في ظهور الحسد والبغي، وذلك بحصول التفاوت بين الأقران، والتفاضل بين الإخوة والصنوان، وهذا أمر مشاهدٌ، فكثيرا ما يدبّ الحسد بين طلبة العلم، وأهل الديانة، ومتى كان الشيطان ينزع عن أهل العلم والدّين؟، إنّهم سهمه الذي لا يخطئ، وسيفه الذي لا يصدأ، إن هم طاوعوه، ولم يحتاطوا لمدخله الخبيث هذا، وهو إنشاء الحسد من بعد ظهور العلم والدّيانة، فإن عجز أن يوقع بينهم الحسد، كما حصل بين أبناء يعقوب العشرة، وأخيهم يوسفﷺ، بسبب ما عاينوا منه من علامات التفوّق والنّجابة، وما تكشّف لهم من

إرهاصات تشريفه بمقام النبوة والصلاح، إن عجز عن ذلك، ولم يتحقّق له مراده من زرع بذور الحسد بين أهل العلم، وأصحاب الشرف والمقامات العالية، دخل عليهم من جهة الكبر، فإنّ الكبر موصل إلى الحسد، بحيث لا يتقبّل المتكبّر أن يتفوق عليه غيره ممن يحتقره، فإذا رآه يتفوق عليه، ويرتفع فوقه، حسَده، وكاد له ما أمكن من الشرّ والأذى، كما حصل لإبليس حين رأى من تكريم الله تعالى لآدمﷺ، وقد كان منطويا على الكبر والتعالي على غيره، فهاله الأمر، وأصابه الجنون، وتولّد في نفسه الخبيثة حسدُ هذا المخلوق الجديد المكرّم، فأعلن عليه الحرب التي لا تنطفئ نارها، ولا يتوقّف كرّها وفرّها، ما بقي الليل والنهار.

وهذا ما حصل لمعشر يهود، كما سيأتي، فإنّهم، لأسباب يأتي بيان أهمّها، انطبعوا على خُلق الكبر والغرور، فلمّا بُعث هذا النبيّ العربيّﷺ، وكانوا يعترفون بنبوّته، ويجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، حسدوه، وتربصوا به الدوائر، ولا يزال المسلمون يطّلعون على خائنة منهم، إلا قليلا منهم، والحمد لله تعالى على أنّهم كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها سبحانه، لأنّه لا يحبّ المفسدين.

والأمر الآخر هو أنّ إخوة يوسف، وأيّ إنسان أو جماعة، إذا تمكّن الحسد من نفوسهم، ولم يقاوموه بالوسائل المشروعة، فإنّه لا يبقى عند حدود تمنّي زوال النعمة عن المحسود، بل يتولّد عنه صفات ذميمة أخرى، ولذلك قيل "الحسد داء الجسد،..وقيل في منثور الحكم: الحسود لا يسود"[31]، ومن هذه الصفاتِ الكذبُ، فالكذب أخو الحسد، وثمرته التي ترافقه حيث كان، إذ الحاسد يتمنّى زوال النعمة عن المحسود، ويتطلّع إلى رؤيته مغموما مكلوما، فإن سئل قال أحبُّه، أو على الأقل لا أحسده، ولا يغمّني سروره، ولذلك نجد إخوة يوسفﷺ لمّا تمكّن منهم الحسد، ظهر فيهم الكذب، واستعملوا التآمر والتحايل على أبيهم، لحمله على إرساله يوسف معهم، ثم على تصديقهم في كذبتهم السخيفة التي اخترعوها ليدفعوا عن أنفسهم تهمة إذايته، وإبعاده عن أبيه، وفيما يلي بعض ما يدلّ على ذلك مما جاء في سورة يوسف:

-﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12)﴾.

-﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16)﴾.

-﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)﴾.

-وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (18)﴾.

-﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ...(77)﴾.

كلّ هذه الأكاذيب بسبب ما كان في قلوبهم من الحسد لأخيهم، وليس ذلك وحسب، بل قد طمس الحسد على آدميّتهم، وقتل فيهم شعور الأخوّة، فقد كان في وسعهم أن يشروا يوسف بثمن معتبر، ولكنهم باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)﴾، إذ لم يكن قصدهم الاتّجار ببيعه، ولا الطمع في ما ينالونه من ثمنه، وإنّما كان همّهم أن يخلّصهم من اشتروه منه، ويغيّبوه عن أنظارهم، ولذلك، كما روي عن مجاهد رحمه الله، فإنّهم بلغ بهم الأمر إلى أنّهم "لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه، لا يأبق حتى وقفوه بمصر"[32]!.

فانظر عاقبة الحسد الوخيمة: عشرة إخوة أشدّاء، يرتعدون فزعاً، وترتعش قلوبهم خوفا، من أن يتفلّت هذا الغلام الضعيف ممّن اشتروه، ويعود إلى إرعابهم، وإيقاد نار الحقد في قلوبهم، وإبعاد النعاس عن أعينهم، ولذلك اتّبعوا هذه القافلة كلّ هذه المسافة التي قطعتها، حتى تصل إلى مصر، لتطمئن قلوبهم المفزوعة، وتتيقّن بُعد يوسف عنهم وعن أبيهم!.

من أجل ذلك جاءت النصوص الشرعية المتوافرة في تحريم الحسد، والتحذير منه، لما يترتّب عنه من عواقب وخيمة، وصفات ذميمة، لا يمكن أن تخطر لعاقل على بال، قال بعض السلف: "الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، يعني حسد إبليس لآدمعليه السلام، وأول ذنب عصي الله به في الأرض، يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله"[33]، وقال ابن القيّم رحمه الله: "الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس_وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا، فالحاسد من جند إبليس"[34].

- أهمّ التطوّرات التي شهدتها الأمّة الإسرائيلية وساهمت في فساد أفرادها:

خلاصةً لما سبق من هذه المرحلة العصيبة من تاريخ أمّة بني إسرائيل، فإننا نصل إلى أنّ أبناء يعقوب العشرة، أحاطت بهم عوامل وظروف، زرعت في نفوسهم، مع مطاوعتهم لها، بذرةَ الحسد، التي اجتمع إليها أسباب أخرى، على رأسها الجهل، ثم البداوة، والتفكير العنصري، وغير ذلك، فأدّى ذلك كلّه بهؤلاء العُصبة إلى الاستجابة لنداء

الشيطان، وتنفيذ أوامره بالسعي إلى قتل يوسف، أو إبعاده، وبذل كل وسيلة في سبيل تحقيق ذلك.

ثم تسارعت الأحداث، ومرّت السنوات، واتّسع صدر يوسفﷺ لإخوته، فعفا عنهم، وضمّهم إليه، ونقلهم من نقاوة البداوة، ومهنة الرعي، وخشونة الصحراء، إلى ضوضاء الحاضرة، ونعيمها، واحتراف الصناعات والمهن اليدوية والعلمية المختلفة، ويعترف بعض الباحثين أن بني إسرائيل في عهدهم المصريّ، أي الممتدّ ما بين انتقالهم مع أبيهم يعقوبﷺ، وجميع أهلهم، إلى مصر، وخروجهم منها مع نبيّ الله موسىﷺ، وهي فترة طويلة قدّرها "أغلب الباحثين بحوالي ستّمائة عام"[35]، برعوا "في المهن اليدوية والفنية، كالطب والهندسة والصيدلة وصياغة المجوهرات..فكانوا هم عصب الحضارة النشيط أيام الفراعنة، ولذا فقد رفض فرعون أن يسمح بهجرتهم من بلاده مع موسىﷺ، لأن هجرتهم ستسبّب شلل الحضارة في بلاده، وقد ذكر القرآن الكريم أن السامري قد صنع لبني إسرائيل عجلا من الذهب، إذا ضربته الريح صوت، وهذا فن عظيم بلا مراء، والسّامري هو أحد أفراد بني إسرائيل"[36].

وهنا سؤال: ما الذي حدث طيلة هذه المدّة، بحيث يمكن الرجوع إليه لمعرفة سبب فساد العقلية الإسرائيلية، وتعرّضها لغضب الله تعالى، ومقته ولعنه؟.

سبقت الإشارة إلى أنّ نهاية مأساة يوسفﷺ مع إخوته العشرة، كانت بأن عفا عنهم، وطلب منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، وعلى رأسهم أبوهم يعقوبﷺ، بعدما أعزّه الله تعالى بأن جعله عزيز مصر، أي وزير ماليتها، والقائم على خزائنها وخيراتها، ولاشكّ أن هذا الوقت الذي انتقلت فيه العائلة الإسرائيلية الأمّ إلى مصر، كان وقت رخاء وبركة، بالرغم من أنّ سِنِي الجدب السبع لم تنقض بعد، لأنّ ما أشار به يوسفﷺ على ملك مصر، من إبقاء ما حصدوه في السبع سنين الأولى في سنبله، كان سلوكا اقتصاديا رشيداً، جنّب مصر وأهلها أزمة كانت ستأكل الأخضر واليابس، بل إنّ ابن كثير رحمه الله، حكى عن جماعة من المفسّرين أن الله تعالى رفع عن أهل مصر ما تبقّى من هذه السنين المجدبات، ببركة قدوم يعقوبﷺ إليهم[37]، فيتحصّل لدينا أنّ بداية حياة بني إسرائيل في مصر كانت موفّقة، ومهيّأة لسعادة الدين والدّنيا:

فمن سعادة دينهم ترعرُعُ أبنائهم بين أحضان نبيّين كريمين، يوسف ويعقوب، واستقرار أوضاع الدولة المصرية، الأمر الذي يهيّئ أجواء العبادة، وقراءة صحف إبراهيم، ووصايا إسحاق، ويعقوب ويوسف لهم، مما أوحى الله تعالى به إليهم من الهدى والنور، وتشير أخبار التاريخ، وقصص الأنبياء، إلى أنّ يعقوبﷺ"أقام بمصر سبع عشرة سنة،

ولم يتوفّ يوسف عليه السلام إلا بعده بنحو من ستّ سنين، لأن مجموع ما عاشه يوسف بعد اجتماعه بأبيه ثلاث وعشرون سنة[38]،وهي فترة كافية لإرساء قواعد الدّين، ونشر التوحيد في ربوع مصر وما حولها، ونفي الشرك بالله تعالى، وحسم مادّته بالكلّية.

ومن سعادة دنياهم انتشار المال، وظهور الحرف والصناعات، ونشاط التجارات، وازدهار الزراعات المختلفة، فتكاثَرَ المال في أيديهم، ومهروا في فنون عديدة، وأقبلت عليهم الدنيا بخيراتها، ومباهجها، حتى ظهر في مصر أمرٌ كان له عظيم الأثر في حال الأمّة الإسرائيلية عموما، وعلى نفسيات أفرادها على وجه التخصيص، وقبل ذكر هذا الأمر العظيم، لا يفوتني أن أنبّه على مسألة في غاية الأهمّية، وهي عطف هذا الذّم لإخوة يوسف عليه السلام بالإشارة إلى أنّ آياتٍ صريحةً حكت لنا استغفارهم، واعترافهم بخطيئتهم، وأهمّها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) ﴾، وهنا ملاحظتان:

على الرغم من أنّ هؤلاء الإخوة اعترفوا بخطيئتهم، واستغفروا لذنوبهم، بل واستغفر لهم نبيّان كريمان، مما يكاد يقطع بتجاوز الله تعالى عنهم، وتكفيره سيئات ما عملوا مع أخيهم يوسف عليه السلام، إلا أننا لا نفهم من هذه الآيات أن هؤلاء الإخوة قد تخلّصت قلوبهم لحبّ يوسف عليه السلام، وتطهّرت من أدران حسده وبغضه، وما أصعب ذلك، لأنّ القلب إذا تلوّث بخلق ذميم، وطال عهده به، فإنّه يصعب جدّاً تخلّصه منه في وقت يسير، إلا من وفّقه الله تعالى لذلك، وحتى لو سلّمنا نقاوة قلوب هؤلاء الإخوة، وانطفاء نار الحسد في نفوسهم، فإنّ أحدا لا يستطيع أن يثبت ذلك لنسائهم وذرّياتهم، وقد نقلت لنا أخبار التاريخ، والقصص القرآني، أنّه قدم إلى مصر من بني إسرائيل أكثر من ستّين نفسا، وقيل بل أكثر من ثمانين[39]، ونقل ابن كثير عن مسروق، أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعين إنسانا[40]، ولعلّه الأقرب إلى الصواب، إذا صحّ أنّ الفترة التي قضاها يوسف بعيدا عن أهله في مصر هي ثمانون عاما، وأيّا كان العدد، وحتى وإن كان القول الأول هو الصحيح، وهو قول منسوب إلى ابن مسعود، أنهم كانوا واحدا وستين إنسانا[41]، فإنّه يستبعد أن يُقال إنّ هؤلاء جميعا ألقوا عداوة يوسف وأخيه، وحسدهم لهما وراء ظهورهم، لأنّ هؤلاء النسوة والذّرية، تربّوا في بيوت لطالما تجاذَبَ أفرادُها أطرافَ الحديث عن يوسف وأخيه بنيامين،

الذي لا يزال هو وبنوه بين ظهرانيهم، ولا يزال يعقوب عليه السلام في نظرهم يفضّله وأخاه عليهم، ويبكي حسرة على فراق يوسف عليهما السلام، وتحكي لنا آية من سورة يوسف، أنّ إخوة يوسف لم يزالوا على عداوته، وإضمار بغضه والحقد عليه، طيلة فترة ابتعاده عنهم، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[42]، فهل جرّبوا على يوسف سرقةً حتى يرموه بها في هذا الموضع، أي بعد ثمانين عاماً من فراقهم له؟، ألم تكفهم كلّ هذه المدّة لمحو آثار الحسد عن قلوبهم؟.

إنّ ذريةً هذه آباؤهم، ونسوةً هؤلاء أزواجهم، لا يشكّ عاقلٌ في أنهم يكونون على نصيب وافر من هذا الخلق الفاسد، والعقلية الرّديئة، وهي كراهية أهل الفضل، وتمنّي زوال النعمة عنهم، وعدم الرضا بتفوّق غيرهم عليهم، وسوف يأتي معنا في السطور القليلة القادمة، كيف أنّ هذا الخُلق بقيت أشجاره تثمر الأشواك، وبقي بنو إسرائيل يتوارثونه، ويتعاقبون عليه تعاقب الليل والنّهار، لاسيّما بعدما دخلوا المرحلة التاريخية الثانية، وهي لعْنُ الله تعالى لهم، وغضبه عليهم، إلى يوم القيامة إلا من رحم سبحانه، وما أقلّهم في أقوامهم، كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من اليهود ما بقي على ظهرها يهوديٌّ إلا أسلم!!»[43].

أعود إلى ذكر ما عرفته مصرُ من تحوّلٍ في التعامل مع بني إسرائيل، مما كان سبباً في تغيير فطرهم، وتشويه فِكَرهم، وجعلهم أسوء ملّة عرفها التاريخ:

وذلك أنّ بني إسرائيل، بما أنعم الله تعالى عليهم، من إخراجهم من نسل الأنبياء، وتربّيهم في الأوساط العلمية، والبيئات الدينية، تمكّنوا، بعد مدّة من إقامتهم بمصر، من السيطرة على عناصر الحضارة المصرية[44]، وبقيت لهم الصّدارة في شتى الميادين، حتى بلغ بهم ذلك أن شكّلوا عنصر تهديد لأحد ملوك مصر، وهو فرعون الطاغية، الذي أرسل الله تعالى نبيّه موسى إليه، فأعمل فيهم السيف، واستعبدهم، وأذلّهم، وسلّط عليهم مختلف أشكال القتل، والتعذيب، والتذبيح، وفي قصص الأنبياء لابن كثير، أنّ الذي حمل فرعون على هذا الصنيع، "أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه..، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدّث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرا من وجود هذا الغلام"[45].

وقيل إنّ الحامل له على ذلك شيءٌ رآه في منامه، فأزعجه، حيث رأى "كأنّ نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان[46].

وأيّا كان السبب، ولو أنّه يمكن الجمع بين القولين، فإنّ فرعون كما قال ربّ العالمين عنه في سورة القصص: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)﴾، والطائفة هنا هي بنو إسرائيل، اتّفاقاً بين أهل التفسير.

وإنّ المتأمّل للنصوص القرآنية الحاكية قصص موسى مع فرعون، ليظهر له طول المدّة التي ذاق فيها بنو إسرائيل شتّى صنوف العذاب من فرعون وملئه، من تعبيد لهم إيّاه، واستعمالهم في المهامّ الشاقّة، والأعمال المرذولة، فقد بقي سنين طويلة قبل ميلاد موسى عليه السلام، يذبّح الأبناء، ويستحيي البنات، حتى جاء العام الذي نجا فيه موسى من الذّبح على أيدي سفّاحي فرعون، ثمّ بعد هذا العام، سنوات طويلة أخرى، أربعون منها على الأقلّ قبل تشريف الله تعالى له بالنبوّة، ثمّ ما تلاها من صراع مع فرعون، إلى أن أنجى الله تعالى موسى وقومه من بني إسرائيل، والحاصل أنّ بني إسرائيل طال عهدُهم بالاستضعاف والاستعباد، "حتى أصبح الصغار والمسكنة والهوان لازمة لهم"[47]، ولكن هل يُقال إن هذا وحده هو ما جعل بني إسرائيل ينطبعون على خصال الذّل، والهوان، والمسكنة، والرضا بالدّون والدّنية؟.

الحقيقة أن إطلاق هذا القول على عواهنه فيه مجازفة خطيرة، إذ يهدم أصلا من أصول الشريعة، وبابا عظيما من أبوابها، وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنذ متى كان الاستعباد، والاستضعاف مبرّرا للذّلة والاستكانة، وعدم مجابهة الخطوب، والمطالبة بالحقوق؟.

في الحقيقة لم يكن هذا الأمر السبب الوحيد الذي أدّى بشعوب بني إسرائيل إلى أن تصير شعوباً ذليلة، خائرة جبانة، هو أنّهم كانوا -قبل مجيء فرعون- منغمسين في الملذّات، متّبعين للشهوات، إلا قليلا منهم، وعوداً على بدء، وحتى لا يُفهم من هذا الكلام أنّ تعرُّضَ الأمّة الشهواتية للظلم والأذى، يحوّلها إلى أمّة مذلولة، منكسرة مخذولة، فإنّنا نذكّر بما ورثه بنو إسرائيل الأحفاد عن آبائهم الإخوة العشرة، فمَن دونَهم من الأبناء

والذّراري، وهو الحسد، الذي انضاف إليه بسبب اجتماع هؤلاء القوم إلى من دونهم في العلم، والدين، والنسب، وإتقان الحرف والصنائع المختلفة، خلقٌ رديء آخر، لم يزل بنو إسرائيل معروفين به إلى اليوم، وهو العُجب والغرور، فبنو إسرائيل، ومنذ نشأتهم الأولى، لم يزل ربّ العالمين ينعم عليهم، ويؤتيهم ما لم يؤت غيرهم من الأمم والشعوب، وفي هذا يقول سبحانه مخاطبا إياهم، ومعاتبا لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)﴾ [48]، وقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20)﴾[49]، وآيات كثيرة أخرى فيها امتنان عليهم، وتذكير لهم بما أنعم الله تعالى به عليهم من النّعم والآلاء، التي كان عليهم أن يشكروها، ويحافظوا عليها، غير أنّهم اغترّوا بسببها، وظنّوا أنّهم أفضل العالمين على الدوام، لا في زمانهم الأول كما هو مراد الله تعالى من هذه الآيات، وكما ورد في كتب التفسير:

فحسدٌ، وغرور، وفساد وفجور، وإقبال على الدّنيا، ثمّ قهر واستعباد، وتعذيب واستذلال، النتيجة: شعبٌ مذلول، مقهور، مطبوع على خيانة الآخر، واستحلال ماله، وفعل أيّ شيء من أجل الدينار والدّرهم، ومن عجيب ما ورد في توراتهم، وذكره "غير واحد من المفسرين، أن نساء بني إسرائيل استعارت حليّ نساء الأقباط قبيل هجرتهم مع موسى عليه السلام بأيام، وغادروا مصر وهي معهم، ومنها صنع السامري عجل الذهب الذي عبدوه"[50]!.

فيا للعجب، قوم تحت طائلة العذاب، ويعاينون الآيات والمعجزات، وبصحبة نبيّ يأتيه من خبر السماء ما فيه خبر خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي أيّام عصيبة، وخوف شديد، ويخطر ببال هؤلاء النسوة هذا المكر الخبيث، أن تستعرن حليّ القبطيّات، بنيّة الغدر بهنّ، ولا غرابة، فالإسرائيلي يستحلّ مال غيره، لأنّه يعتقد أن كل ما على هذه الدنيا ملكٌ له، فهو أولى به، وأن تصطحبن المال الحرام في رحلة نبوية مليئة بالمعجزات، إنّ هذه الواقعة لتكفي لتصوير العقلية الإسرائيلية، وتبيّن لنا خطورة الانكباب على الدّنيا، وعدم التعلّق بالآخرة، لاسيما إذا صاحب ذلك غرورٌ وحسد، ثمّ تعرّض من هذا حالُه إلى الاستضعاف والاستعباد، إنّها لمن أسوء الأحوال التي يمكن أن يكون عليها إنسان.

بالرغم من ذلك، يقول الله تعالى بعد ذكر حال بني إسرائيل في الاستضعاف والاستعباد: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ (5) ﴾[51]، الذين استُضعفوا المذكورون في هذه الآية هم بنو إسرائيل، اتفق على ذلك أهل التفسير، لا يزال ربّ العالمين مُكرما لهذه الأمّة حتى هذه المرحلة، وهي مرحلة ما بعد الاستضعاف، فقد أرسل إليهم موسىعليه السلام، وأنجاهم به من فرعون، بل وأغرق عدوّهم، وأنجز وعده لهم بأن يمنّ عليهم، ويجعلهم أئمة، ويورثهم ملك فرعون، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[52]، وقال جلّ وعلا عن فرعون ومن معه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) ﴾[53]، فماذا كان موقف القوم يا تُرى؟.

شقّ الله تعالى لموسى ومن معه البحر، فعبروه، وغرق فيه فرعون وجندُه، وعاين بنو إسرائيل المعجزات، وتأييد المولى تبارك وتعالى لنبيّهعليه السلام، فما كان منهم بعد ذلك إلا أن قالوا لنبيّهم، بعدما مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾[54]!!، وقد يكون هذا بسبب حداثة عهدهم، وتعوّدهم على رؤية مشاهد عبادة الأصنام على عهد فرعون، وقد يُعذرون بجهلهم في مقالتهم الآثمة هذه..، ولكن هل يُعذرون بمتابعتهم السامريّ في عبادة العجل؟، وقد علموا أنّه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟، فقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى أنّ موسىعليه السلام لما ذهب إلى ميقات ربّه، وغاب عن قومه أربعين ليلة، عبدوا العجل، بل أشربت قلوبهم حبّ هذه العبادة الباطلة، وهو ما جعل موسى يغضب غضبا شديدا، لم يتمالك معه نفسه، فألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، لعظم ما ارتكبه بنو إسرائيل من الإشراك بالله تعالى، وقد غلّظ ربّ العالمين لهم العقوبة، وحكّم فيهم القتل، أن يقتل بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[55].

إنّ إقدام بني إسرائيل على هذه الفعلة الشنيعة، بعدما منّ الله تعالى عليهم، وأنجاهم من فرعون الذي سامهم سوء العذاب، وقتّل أبناءهم، واستحيى نساءهم، لدليل كافٍ على أنّهم بلغوا في انطماس الفطرة، وفساد السريرة، وعمى البصيرة مبلغا عظيما، وهذا ما أدخلهم إلى مرحلة ثانية هي مرحلة الغضب الإلهي، والعقاب السماوي، حيث كتب

الله تعالى على هؤلاء القوم بعد هذه الجريمة الشنيعة، بأن يعيشوا أذلّة بين الناس، مهما ملكوا من أموال، وبلغوا من مناصب ومراتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[56]، قال ابن كثير رحمه الله: "أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضا، كما تقدم في سورة البقرة..، وأما الذّلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغارا في الحياة الدنيا.."[57].

ولا يُقال هنا إنّ هذا الكلام لا تصدّقه أخبار بني إسرائيل، وإقبال كثير منهم على الله تعالى، والتزام شرعه، سواء منه ما نزل على موسىعليه السلام، أو ما جاءت به الأنبياء بعده، وعلى رأسهم، وهو خاتمهم نبيّنا محمّدﷺ، لأنّ هذه الذّلة التي كتبها الله تعالى على بني إسرائيل لا تشمل جميع أفرادهم، وإنّما تستثني صنفين منهم، الأوّل صالحوهم وأتباع الأنبياء منهم، فهؤلاء لا ذنب لهم فيما فعل أقوامهم، وإن أصابهم شيء من عذاب الله تعالى لبني إسرائيل، فإنّهم يبعثون يوم القيامة على نيّاتهم، لأنّ سنّة الله تعالى في خلقه، وحكمته في قضائه، اقتضت أنّ العذاب إذا نزل، فإنّه لا ينزل على مستحقّيه وحدهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[58]. وأما الصنف الآخر، فهم التائبون من فعل الخطايا والذّنوب، فإنّ التوبة تجبّ ما قبلها، ولذلك أعقب الله تعالى هذه الآية، أعني التي جاء فيها خبر إصابة عبَدة العجل من بني إسرائيل بالغضب والذّلة، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[59]، فباب التوبة مفتوح أمام كلّ من أقبل على الله تعالى قبل أن تغرغر روحه، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها.

غير أنّ الذي يُستلهم من هذه الآيات والوقائع، ويؤكّده الواقع المعيش، أنّ عدد ما يكون من هذين الصّنفين معاً قليل، بل قليل جدّا، إذا ما قيس بفجّار بني إسرائيل، أو قيس بصالحي الأمم الأخرى وتائبيها، وهذا ما ألمحنا إليه قريبا، ولمزيد بيانه أكثر، فلنتأمّل القصّتين الآتيتين:

القصّة الأولى: يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا

مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) ﴾[60]. رجلان فقط هُما من قذف الله تعالى في قلبيهما الشّجاعة، وامتثلا أمر نبيّ الله موسىعليه السلام، وما أكبر الفرق بين هذه الواقعة، وبين ما حصل للنبيﷺ مع أصحابهرضي الله عنهم في موقعة بدر العُظمى، حين قال قائلهم: «والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[61]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك»[62].

القصّة الثانية: لمّا طلب بنو إسرائيل من نبيّ لهم أن يجعل لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله، كان ممّا أمرهم به ملكهم، وهو طالوت، أن لا يشربوا كثيرا من نهر الأردن، الذي مرّوا به في طريقهم إلى أرض المعركة، "لأن ذلك مدعاةٌ إلى البطنة والكظة والترهُّل، ثم الفتور والتكاسل، فعصوا أوامر الملك ووقعوا في الماء شربا وعبا إلا قليلا منهم، ووقع ما حذرهم منه ملكهم، وقالوا لا طاقة لنا اليوم بحرب الأعداء"[63]. وقد اختلفت الروايات في عدد من شرب منهم كثيرا، ومن أطاع الملك، واجتاز النّهر وقاتل، ونقل ابن كثير عن السّدي أنّه قال: "كان الجيش ثمانين ألفا، فشرب ستة وسبعون ألفا، وتبقى معه أربعة آلاف"[64]، وفي البخاري عن البراءرضي الله عنه أنّه كان يقول: حدثني أصحاب محمدﷺ، ممن شهد بدرا: «أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر: بضعة عشر وثلاث مائة»، قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن»[65]. وأيّاً كان، ففي الآيات التي نقلت هذه القصّة من سورة البقرة، ما يكفي للدلالة على أنّ الخير في بني إسرائيل قليل، وقليل جدّاً، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[66].

أكتفي بما سبقت الإشارة إليه، وهو أنّ بني إسرائيل قوم حُسُد، جُبناء، وأنّ الخير فيهم قليل، لا لأنّ الله تعالى جَبَرهم على ذلك، تعالى الله عن ذلك، ولكن لما توارثوه عن أجدادهم من غلظة الطباع، ولؤم النفوس، وحبّ الدنيا، والرضا بالدنية، والتخلّف عن المكرمات.

ولا أريد أن يفوتني في هذه المناسبة أن أشير إلى مسألة قد تشفي غليل كثير من المتحيّرين مما جاء في هذه السطور، من ذكر معضلة التوارث التي عرفها بنو إسرائيل، وما قد يترتّب عن القول بها من تبرير كثير من الناس لأنفسهم، أو لغيرهم، ركوب موجة الفساد والإفساد، وإلحاق الأذى بالآخرين، بزعم أنّ هذا طبع فيهم، ورثوه عن أجدادهم، ولا حيلة لهم في التخلّص منه، ولهؤلاء نقول:

إنّ الله تعالى، بعدما عاقب بني إسرائيل بالتّيه في صحراء سيناء، بسبب خذلانهم لنبيّهم موسىعليه السلام، "هلك الجيل الذي عاش الذل والهوان أيام فرعون في التيه..، ونشأ جيل الصحراء من بني إسرائيل في بيئة الحرية القاسية، فطلبوا من نبيٍّ لهم من بعد موت موسىعليه السلام، في ساعة من ساعات النشاط وصفاء الذهن، أن يبعث لهم ملكا للجهاد في سبيل الله"[67]، وهنا لفتة طريفة، وحكمة من حكم الزّمان، لا ينبغي أن يفوّتها أهل العقول والأفهام، وهي أنّ للبيئة أثرا عظيما على أصحابها، إيجابا وسلبا، وأنّ الآفات القديمة لا تزول إلا بمرور وقت طويل، وفي بيئة مخالفة للبيئة التي ظهرت فيها هذه الآفات، ولذلك لم يزل الحكماء والناصحون، والأطبّاء والصالحون، يوصون بمفارقة مواقع الفساد، ومواطن الرّذيلة، فهؤلاء بنو إسرائيل تاهوا أربعين سنة فتغيّر حالهم ولو بعض الشيء، الأمر الذي يؤكّد ما ذكرنا من أثر البيئة على أصحابها، وسلطتها عليم .

ولكن، مع الأسف، لم تكن هذه الفترة كافية لتنقية هذه النفوس المريضة، والعقول الآفنة، فبعد أن بعث الله تعالى لهم طالوت ملكا ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾[68]،ولا أريد أن أشير هنا إلى ما دلّتنا عليه الآية الكريمة من جهل هؤلاء القوم، وحسب، بحيث اعتمدوا في أمر عظيم كهذا على مقياس المال، وشرف النسب، ونحو ذلك، وإنّما الذي لفت انتباهي وأنا أتتبّع فصول هذه القصة، أن طالوت هذا ينتهي نسبه إلى بنيامين بن يعقوبعليه السلام[69]، ولذلك "نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا نحن أحق بالملك منه"[70]، وها هو التاريخ يعيد نفسه، وها هي العنصرية تظهر من جديد، وها هم أولاءِ الأحفادُ يظهَرون في ثوب الأجداد، ومن أشبه أباه فما ظلم.

- ظهور طائفة اليهود، وخلاصة القول في أصل هذه التسمية.

بعد هذه اللمحة السريعة عن تاريخ بني إسرائيل، وتطوّر انطباعهم على صفات الشرّ، وخصال السوء، من حسد، وغلّ، وكذب، وخيانة، وغرور، وتعلّقٍ بالدنيا، ثمّ جبن، وذلّة، وصغار، ومسكنة، وتقبّل للاستعباد، والإذلال، والاستعمال، بقي أن أمهّد للحديث

عن اليهود، وكيف نشأت هذه الفرقة، وما أصل تسميتها، بحيث يتكامل في أذهاننا، ويتّضح جيّدا، معنى وصف الله تعالى لليهود بأنّهم أهلُ غضب، وتبعات ذلك على نفسياتهم وسلوكاتهم المختلفة.

وأعني بالتّمهيد لهذا الحديث بيانَ وقت ظهور طائفةِ، أو على الأقل اسم اليهود، لأنّ الباحث عن أصل هذه التسمية، يجد أنّ أغلب من تكلّم عنها، لم يبيّنوا وقت استبدال مصطلح اليهود بمصطلح بني إسرائيل، وهل هما فرع وأصل، أم جزء وكلّ، أم اسمان لمسمّى واحد، إذ نجدهم يقولون: أصل كلمة يهود من كلمة هاد يهود، "سُمّوا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا إنّا هدنا إليك، أي تبنا ورجعنا وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم"[71]، وغيرهم، وقال أبو عمرو بن العلاء: "سُمّوا بذلك لأنهم يتهوّدون، أي يتحركون عند قراءة التوراة"[72]، وأشهر هذه الأقوال أنّ أصل تسمية اليهود هو كلمة يهوذا، وهي اسم أحد أبناء يعقوب عليه السلام[73]، "وإنما قالت العرب يهود بالدال للتعريب، فإن العرب إذا نقلوا أسماء من الأعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها"[74]، وقد رجّح هذا القولَ كثيرٌ من العلماء والباحثين، ومنهم المؤرّخ الشهير البيروني، الذي قال: "وإنما سمّوا باليهود نسبة إلى يهوذا، أحد الأسباط، فإن الملك استقرّ في ذرّيته، وأبدلت الذّال المعجمة دالا مهملة، لأنّ العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها"[75].

وقد وقع اختياري على هذا القول، لاشتماله على ميزتين اثنتين:

الأولى استعماله أسلوب الحصر، حيث قال: وإنّما سُمّوا باليهود، وفيها صيغة جزم بصحّة هذا القول.

والثانية أنّه علّل تسمية اليهود بهذا الاسم نسبة إلى يهوذا، بكون الملك استقرّ في ذريته، وهنا نتساءل:

- ماذا عمّن لم يكن من سلالة يهوذا من بني إسرائيل، هل كان يُطلق عليه لقب يهوديّ؟.

- وتساؤل آخر هو: ماذا كان يُدعى من كان ينتهي نسبه إلى هذا السبط من بني إسرائيل، قبل استقرار الملك في ذرّيته؟.

أمّا عن السؤال الثاني، فليس بين أيدينا من نصوص القرآن الكريم، ولا السنة النبوية، ولا أخبار التاريخ، وقصص الأنبياء، ما يدلّ على أنّ من بني إسرائيل قبل ظهور الملك فيهم من كان يلقّب باليهودي، ولو كان منشأ تسمية اليهود هو انتهاء نسب أصحابها إلى يهوذا وحسب، لكانوا سُمّوا بذلك قبل هذه الفترة، أعني ظهور الملك في بني إسرائيل في عهد داود وسليمان، ومن بعدهما من الملوك.

وأمّا عن السؤال الأول، وهو أكثر إشكالا، فهو أنّ تسمية اليهود، ومنذ ظهورها، إلى اليوم، لا نجد من يتحرّى نَسب من يريد إطلاقها عليه، أإلى يهوذا ينتهي أم إلى غيره، وإنّما الذي حكاه التاريخ أنّ عيسىﷺ لمّا بُعث في بني إسرائيل كان عامّة من يدعوهم اليهود، وهم من طاردوه، وخطّطوا لقتله، وعليه فإنّ الاكتفاء بالقول بأنّ أصل تسمية اليهود هو اسم يهوذا، هو مذهب ينقصه بعض التّدقيق.

ولعلّ من ينعم النّظر في تاريخ هذه الطائفة، تطمئنّ نفسه إلى القول بأنّ أصل هذه التسمية هو أمرٌ تاريخيٌّ بحت، وذلك أنّ مملكة بني إسرائيل انقسمت بعد موت نبيّ الله سليمانﷺ، قسمين: "مملكة رحبعام بن سليمان، ولم يتبعه إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين، وتُلقّب بمملكة يهوذا، لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا..، ومملكة ملكها يوربعام بن بناط، غلام سليمان، وكان شجاعا نجيبا، فملّكته بقية الأسباط العشرة عليهم، وجعل مقر مملكته السامرة، وتلقَّب بمُلك إسرائيل، إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية، وعبدوا الأوثان، فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية، ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفا وخمسين سنة، ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين"[76]. ولا يناكد هذا القولَ حديثُ النبيﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه..»[77]، بل على العكس من ذلك تماما، فهو يؤيّده ويعضده، لأنّ قولهﷺ يُهَوّدانه، ينفي أن تكون التسمية عِرقيّة، فالتّهويد والتنصير قد يشمل العربي، والهندي، والحبشي، وغيرهم، وإنّما قصد النبيﷺ بقوله يهوّدانه، أي يجعلانه يهوديّا، أي منتميا إلى طائفة اليهود، لا إلى ذرّية يهوذا، والله أعلم، وعليه فإن الذي يُستفاد من هذا العرض لنشأة هذا المصطلح ما يلي:

- أنّ أصل تسمية اليهود هو دولة يهوذا لا اسمه.

- وأنّ هذه الدولة لم يتّبعها سبط يهوذا وحده، وإنّما سبط بنيامين أيضا، وإنّما غلّبَ اسم يهوذا على هذه المملكة كونُ معظم أتباع ملكها هم من ذرّية يهوذا.

- وأنّ الذي أظهر هذه الدولة، وجعل الناس يعرفون بني إسرائيل بها، هو سقوط دولة إسرائيل التي حكمها يوربعام، لا كون عامّة بني إسرائيل كانوا تحت ملكها، ولذلك كان سائغا الأخذُ بقول أحد الباحثين الذي اعتبر "أن تلقيبهم باليهود كان من قبل ملوك الفرس الذين صار اليهود تحت حكمهم بإسقاطهم لدولة بابل"[78]، والله تعالى أعلم.

ومن هنا ينزاح مِن أمامنا إشكال لطالما أربك بعض الباحثين، أو على الأقلّ المطالعين لتاريخ اليهود والنصارى، أو التّالين للآيات القرآنية النازلة فيهم، فكان ربّما

يقول، ولو بصوت غير مسموع، ما الفرق بين اليهود وبني إسرائيل؟، وبين النصارى وبني إسرائيل؟، وما علاقة اليهود بالنصارى؟، وهل كانوا يعيشون مع بعض؟، وربّما يشبه هذا الارتباك ما شاع بين كثير من الناس، وبعض الأساتذة والباحثين، من أنّ اليهود هم أتباع موسىعليه السلام، والنصارى هم أتباع عيسىعليه السلام، أو في أحسن الأحوال، أنّ اليهود هم قوم موسى، والنصارى قوم عيسى، أو أنّهما عليهما السلام بُعث كلّ منهما في قوم، وهذه الأقوال، نسمعها، مع الأسف الشديد، في كثير من المحافل العلمية، والمنابر الدينية، وفي بعض الرسائل والبحوث الجامعية: أنّ اليهود قوم موسىعليه السلام، والنصارى قوم عيسىعليه السلام، والحقيقة أنّ هذين النبيّين الكريمين بُعثا كلاهما في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)﴾[79]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[80]،والمطالع لآيات القرآن الكريم يظهر له ذلك جليّا، إذ لا يجد موسى يخاطب اليهود، ولا عيسى يخاطب النصارى، وإنّما كلاهما خاطب بني إسرائيل، وكلاهما لا دليل على اعتبار أتباعه أُطلق عليهم غيرُ وصف المسلمين، ويظهر ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)﴾، ولذلك فإنّ مصطلحي اليهود والنصارى حادثان بعد مئات السنين من نشأة الأمة الإسرائيلية الأولى التي كانت في أصلها أمّة مسلمة، وممّا يؤكّد هذا القول أنّ الله تعالى لم يزل يخاطب اليهود بألقاب منها أهل الكتاب، وبنو إسرائيل، ولعلّ ذلك كان منه تعالى على جهة التوبيخ والتعكيس: فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)﴾[81]، قال الطبري: "وهذه الآية عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللهﷺ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمدﷺ"[82].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) ﴾[83]، قال ابن عطية رحمه الله: "هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمدﷺ، والكتاب التوراة"[84].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(85)، قال ابن كثير: "أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم"(86).

وقال جلّ وعلا: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [87].

وهنا ملاحظة:

وهي أنّ هذه الإطلاقات، وإن كانت مستعملة في مواضع من القرآن لإفادة معنى الذّم والتوبيخ، والتقبيح، فإنّ لها استعمالات أخرى لا تفيد هذه المعاني، ومنها مثلا قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[88]، وقوله: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[89]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾[90]، ونحوها. وهذه الاستعمالات تفيدنا أمورا كثيرة، نكتفي منها باثنين:

- أنّ الله تعالى مهما بدر من بني إسرائيل، أو غيرهم، فإنّ ذلك لا يمنع من أن يُنصف أهل الحقّ منهم، بل يعينهم على دينهم، وينصرهم على أعدائهم.

- والأمر الثاني أنّ الأمة الإسرائيلية، وغيرها من سائر الأمم البشرية، لا تعدِم أناسا صالحين، يرفضون واقع أممهم السيئ، ويصبرون على أذى أقوامهم، ما بقي الليل والنهار.

هذا عن استعمالات مصطلح بني إسرائيل في القرآن، بينما لا نجد لفظ اليهود، والذين هادوا، مستعملا إلا في سياق الذّم والإنكار والتوبيخ، وهذا معناه أنّ اليهود هم الوجه السيئ، والمرحلة الفاسدة من تاريخ بني إسرائيل، إنّهم قوم زعموا أنّهم أتباع موسىعليه السلام، وليسوا بأتباعه، وادّعوا أنّ عندهم كتابه، وهو التوراة، وليس عندهم، وإنّما حرّفوه وبدّلوه، وأدخلوا فيه ما تشتهيه أهواؤهم، وحذفوا منه ما لا تهوى أنفسهم، ولذلك

أطلق عليهم ربّ العالمين قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[91]، وإنّ هذا الصنيع الشنيع لا يكون، بل لم يكن إلا في يهود.

حَسَدَ بعضهم بعضا، واغترّوا بشرف نسبهم، وانحدارهم من سلالة الأنبياء، وفرحوا بما عندهم من العلم، ثمّ فتح الله عليهم الدّنيا، فأقبلوا عليها إقبالا شديدا، بغير وازع من الدين، ولا مانع من العقل، حتى تعلّقت بها قلوبُهم، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنّوا بها، وأصبحوا أحرص خَلق الله على حياةٍ، أيّةِ حياة، ثمّ ابتلاهم الله بظلم السلاطين والملوك، فاستكانوا، وذلّوا، وخارت عزائمهم، ورضوا بالهوان، وانقلبوا بشرا ذليلا، حقيرا، لا يأبى الظّلم، ولا يرفع أمام العدوّ رأسه.

فرحمهم الله تعالى، وأرسل إليهم أنبياءه ورسله، أخرجوهم من الذّل، وفتحوا بهم البلدان، وعبروا بهم الأنهار والوديان، ومكّن لهم ربّ العالمين، وأورثهم القصور والجنان، فاستبدلوا كفر نعمته بشكرها، وأشركوا به سبحانه ما لم ينزّل به سلطانا، وتمرّدوا على أنبيائه، وخالفوا شرعه، وتنطّعوا، وتشدّدوا فشدّد الرحمان عليهم، ولعنهم، ومسخهم قردة وخنازير، ولم يزل ربّ العالمين يغضب عليهم، ثمّ يرحمهم، ويعاقبهم، ثمّ يرفع العقاب عنهم، ولم يزل يبعث إليهم الرسل، وينزّل عليهم الكتب والشّرائع، وهم ينكثون العهد، وينقضون المواثيق، حتى حقّ عليهم غضبُه السرمديّ، وخرجوا من رحمته ملعونين مخذولين، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[92]، فأكثرُ طباعهم الذّميمة، إذن، هي عقوباتٌ من الله تعالى لهم، بسبب ما صدر منهم طيلة آلاف السنين، من المخالفة والعصيان، ومن الكفر والطّغيان، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أمر آخر، في غاية الأهمية، ينبغي الإشارة إليه، هو مسألة اختصاص اليهود بعبارة المغضوب عليهم دون غيرهم من الفجرة والكافرين، فإذا عُلم أنّ كل معصية تستوجب مقدارها من غضب الله تعالى، لاسيما ما ورد النص لاستحقاقه ذلك، فما سرّ اختصاص اليهود بالغضب المُطلق، وما هي الأدلّة عليه؟

أخصُّ خصائص اليهود التي كانت سبب استحقاقهم للغضب الإلهي الدّائم

قبل أن نذكر هذه الخاصيّة، يحسن بنا أن نُثبت كون اليهود استحقّوا غضب الله تعالى، والحقّ أن الأدلة على ذلك كثيرة، ولكن نكتفي منها بهذه الآيات القرآنية:

- ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[93].

- ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[94].

- ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[95].

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾[96].

هذا عن الأدلّة، وقد اكتفينا منها بأربع آيات، ولو شئنا لذكرنا أكثر، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

وأمّا عن سبب نزول هذا الغضب على اليهود، وملازمته لهم، فهذا أوانه:

يقرأ المسلم في صلاته، قرابة عشرين مرة، قولَ الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7) ﴾، وفي الحديث الصّحيح، أنّ النبيّﷺ قال: «المغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى»[97]، فلماذا أُطلق وصفُ المغضوب عليهم على اليهود، أو بالأحرى، لماذا استحقّ اليهود غضب الله تعالى عليهم على الدّوام؟.

تكادُ تتّفق كلمة أهل التفسير، وشُرّاح الحديث، ويؤكّد ذلك أهل التاريخ على مرّ العصور، أنّ اليهود إنّما استحقوا الغضب الإلهي العميم بسبب مخالفتهم للحقّ مع العلم به[98]، يقول ابن كثير رحمه الله: "اليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم"[99]، وهذه الآفة الذّميمة تكثر في أهل الكبر، والغرور، والعُجب، والفجور، ومَن أولى بذلك كلّه مِن يهود؟، وحتى ننتقل بهذه الحقيقة من علم اليقين إلى عين اليقين، نتصفّح من

تاريخ اليهود الأسود بضع صفحات، تكشف لنا عن اتّصاف القوم بهذه الصفة القبيحة، وكيف أنّها كانت سببا في نزول الغضب عليهم، من سالف العصور، وإلى يوم الناس هذا، وسنختار حقبة واضحة من هذا التاريخ، وهي العهد النبويّ المبارك، وما عرفه من قبائح اليهود:

تحكي لنا كتب التاريخ أنّ اليهود فرّوا من الأرض المقدسة إلى الحجاز، وإلى خيبر ويثرب، لعلمهم اليقيني بأنّها مبعث النبيّﷺ[100]، وأنّهم كانوا يستفتحون على من يحاربُهم من المشركين بمبعث نبيّ آخر الزمان[101]، لكنّهم ما إن خرج هذا النبي فيهم، وفي الناس أجمعين، وكانوا أولى الناس بمتابعته ومناصرته، لأنّهم أهل كتاب، ولأنّ معهم من خبر هذا النبيّ ما يشهد بصدق نبوّته، وبأنّه جاء بالحقّ والهدى، ما إن خرج حتى ناصبوه العداء، وحاكوا له المؤامرات، وتربّصوا به الدوائر، وكانوا له من أشدّ المحاربين.

ومن عجيب أمر اليهود، وغريب حالهم، ما تُحدّثنا به صفية بنت حيّ بن أخطب رضي الله عنها (زوج رسول اللهﷺ، وهي من أصل يهوديّ)، في هذا المعنى فتقول: «كنتُ أحبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، ولم ألقهما قطّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول اللهﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيَيُّ بنُ أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب مُغْلِسَيْن، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالَّين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك؟ قال: عداوته والله ما بقيت»!![102]. فبدلا من أن يحوزوا قصب السبق إلى صحبة رسول اللهﷺ، وتأييده، ونصرته، اختاروا عداوته، فيا للسفه، ويا لفساد الرأي، وعمى البصيرة، ويا لَحُمق يهود.

-وعن عبد الله بن عمرﷺ، أن اليهود جاؤوا إلى رسول اللهﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟»، قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلامﷺ: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلامﷺ: ارفع يدك فرفع فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبيﷺ فرجما[103].

- وعن أبي موسى الأشعريّﷺ قال: «كان اليهود يتعاطسون عند النبيﷺ رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم»[104].

- وعن عوف بن مالك الأشجعيﷺ قال: «انطلق النبيﷺ، وأنا معه، حتى دخلنا كنسية اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول اللهﷺ: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلا يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه، قال: فأمسكوا وما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم، فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفّي، آمنتم أو كذبتم، ثم انصرف، وأنا معه، حتى دنا أن يخرج فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد قال: فقال ذلك الرجل، أيّ رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك من قبلك، ولا من جدّك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه، وقالوا له شرّا، فقال رسول اللهﷺ: كذبتم، لن يقبل قولكم، أمّا آنفا فتُثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذ آمن كذبتموه، وقلتم ما قلتم، فلن يقبل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول اللهﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، فأنزل الله فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (105) الآية»(106).

في هذه القصة الأخيرة عبرة عظيمة، وملمح نفسي خطير، ينبغي على كلّ من أهمّته نفسه أن يكون منه على بال، وأن يذكره على الدّوام، وهو أنّ اتّباع الهوى قد يبلغ بصاحبه مبلَغ الهلاك، وهو راض، فهؤلاء اليهود عُرضَت عليهم فرصة العُمر، وهي رفع الغضب المضروب عليهم، وهم أعلم النّاس بأنّ نبيّ اللهﷺ لا يخلف وعده، بدليل ما سبق هذا الحديث من قصّة التعاطس، ولكنّهم صَمّوا آذانهم، وأعمَوا أبصارهم، ولم يتكلّم منهم أحد، ولو أنّهم ردّوا عليه، ولو كذبا، ومراوغةً، لالتمسنا لهم عذراً، ولكنّهم سكتوا، فقامت عليهم الحجّة، وحصل الإياس من استجابتهم، ولذلك ولّىﷺ مدبرا، وتركهم في طُغيانهم يعمهون.

ولا أحبّ أن تفوتني هنا أيضا الإشارة إلى مسألة التوارث، وهذه المرّة في قلّة أهل الخير في اليهود خاصة، وفي بني إسرائيل على وجه العموم، وأعني بهذه الإشارة ما يتعلّق بالعدد الذي طلبه النبيﷺ وهو اثن عشر، فكم اثنا عشر في تعداد هؤلاء القوم، وهم في يوم عيد، إنّ هذا ما لا يستغرب معه المرء من قلّة صالحي اليهود في مختلف العصور، وفي زماننا هذا على وجه الخصوص، فلم يبلغ اليهود، على حدّ علمي، منذ زمن ظهورهم، ما بلغوه في هذا الزمان، مالا، ونفوذا، ومكرا، وظلما، وإفساداً، وحتى لا يكون هذا الكلام

محض إنشاء ورجم بالغيب، أُذكّر بحديثٍ سابق، جاء فيه عن النبيّ أنه قال: «لو تابعني عشرة من اليهود، ما بقي على ظهرها يهودي إلا أسلم»[107]، وحتى إن قيل إنّهﷺ إنما قصد أحبار اليهود، لا عوامّهم، فإنّنا نقول إن هذا العدد حتى في علمائهم يشعر بقلّة الخير فيهم، وأمّةٌ علماؤُها بهذه القلّة، أيُّ خير يُرجى من عامّتها؟.

وأضيف دليلا آخر هو قِلّةُ من أسلم من اليهود في زمن رسول اللهﷺ، بلهَ عن الأزمنة المتأخّرة عنه، أو المتأخّرة عليه، لأنّ أكثرهم كانوا مشتغلين بعداوته، وصدّ الناس عنه، ولذلك لم تحك لنا السيرة النبوية طيلة ثلاث وعشرين سنة قضاها رسول اللهﷺ بين مكّة والمدينة، أنّ جماعة من اليهود وفدوا عليه مسلمين، وإنّما أفرادٌ قلائل، بين كلّ واحد منهم والآخر زمن طويل، وحتّى بعض من أسلم، إنّما أسلم بدعوة رسول اللهﷺ إيّاه خاصّة، ومنهم الغلام اليهودي الذي نقل لنا أنسرضي الله عنه خبره، "وكان يخدم النبيﷺ فمرض، فأتاه النبيﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال: أسلم، فنظر إلى أبيه-وهو عند رأسه- فقال له: أطع أبا القاسمﷺ، فأسلم، فخرج النبيﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[108].

- من خلال ما سبق يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- بنو إسرائيل أمّة عظيمة العدد، ضاربةٌ في التاريخ، إلى قريب من زمن نبيّ الله إبراهيمعليه السلام، وبالتحديد إلى زمان يعقوبعليه السلام، فهو الملقّب بإسرائيل، ومعناه عبد الله، وقيل عبد الله وصفوته من خلقه، وكلّ أمّة بني إسرائيل من ذرّيته المتفرّعة عن أولاده، وهم اثنا عشر ولدا ذكراً: "ستة أشقاء، وهم رأوبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشجر، وزيالون، وأما الستة الباقون فكلّ اثنين منهم لأمّ، يوسف وبنيامين، وأنّهما راحيل، جاد وآشر، وأمّهما زلفا، جارية ليا، دان ونفتالي، وأمّهما بلها جارية راحيل.

- لم تمرّ على العائلة الإسرائيلية الأمّ سنواتٍ قلائلَ حتى دبّت فيهم بعض الآفات النفسية، والأدواء السلوكية، الأمر الذي حَرَفهم عن سيرة أبيهم وأجدادهم، وقد توصّل البحث إلى تعديد أسباب هذه الآفات والأدواء، فكانت هذه الأربعة:

<u>الجهل</u>، وله أدلّة كثيرة منها قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾ وهذا قمّة الجهل، أن يبتغي الولد من أبيه مقابلا نظير خدمته له، وأن يظنّ أن ميل القلوب له علاقة مباشرة بالقوة والمَنَعة، فلا غرابة إذن أن ينسبوا إلى أبيهم النبيّ هذا الوصفَ الجائر، والسفيهُ ينطق بما فيه.

الأمر الثاني الذي ترشد إليه هذه الآية نفسُها هو **العنصرية**، فقد عاملوا أخويهم الصغيرين بمنطق عنصريّ، وهذا بلا شكّ وراءه وشايات نسائية، ووساوس شيطانية، تجعل المرء يميّز بين إخوته لاعتبارات جاهلية رعناء.

السبب الثالث الذي أوقع الأصول الأولى لأمة بني إسرائيل في أدواء الحسد والغرور، والجُبن والفجور، كونُهم يقطنون **البادية**، ومعلوم ما للبادية من أثر على أهلها، وعلى رأس ذلك الجفاء والغلظة، وقد صحّ عن النبيّﷺ أنه قال: "من بدا جفا"، ومما يدلّ على بداوتهم قوله تعالى على لسان يوسفعليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾، غير أنّ البداوة لا تقلب أهلها جُفاةً في كلّ حال، فهذا يعقوب، وابنه يوسف، وغيرهما من الأنبياء والصالحين، لم تؤثّر فيهم البداوة سلبا، بل ربّما ساهمت في إصلاحهم وتصفيتهم، إذا ما قاوموها بالعلم والعمل، بخلاف إخوة يوسف الذين كان معهم علم، لكنّه لم يورثهم عملا ولا صلاحا، وهذا ما ينقلنا إلى:

السبب الرابع: وهو **الغرور والعُجب**، اللذان غالبًا ما يظهران في البيئة العلمية، والأوساط المتفوّقة، في أيّ مجال كان، وقد حاز هؤلاء القوم، وذرّياتهم قصب السبق في ذلك، فضُربت بهم الأمثال في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ..93﴾ وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...14﴾، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن، وهي أكثر في واقع الناس المعيش.

- مما زاد في تشوّه النفسية الإسرائيلية أكثرَ تحوُّلُهم إلى مصر، ونبوغهم في الصناعات، وانغماسهم في الملذّات والشّهوات، الأمر الذي فتق في أنفسهم بذرة الجشع، والطّمع، وأبعدهم عن دينهم شيئا فشيئا، حتى صاروا دنيويين، لا يهمّهم إلا جمع المال وتكديسه.

- ثمّ أعقب ذلك مجيءُ فرعون الطاغية، وتحكيمه السيف فيهم، واستعبادهم، وإذلالهم بكلّ أشكال الإذلال، فغدوا شعبا مقهورا مذلولا، يرضى بالدّنية، ولا يرفع للعلم، ولا للدّين، ولا للهمّة رأسا، فورثوا بذلك خلق الذّلة والصّغار، وكذلك يكون مصير كلّ من شابههم في ذلك، أو تابعهم عليه.

- ولذلك لمّا جاءهم موسىعليه السلام، وأنقذهم الله تعالى به من فرعون، وشقّ لهم البحر، وأراهم المعجزات، لم يقدُروا ذلك حقّ قدره، بل أورثوا صغارهم خصال أجدادهم

الذّميمة، وتضاءلت فيهم الفئات الصالحة، وتعاقبت عليهم الأنبياء والمرسلون، لكنّهم أمعنوا في محاربتهم: فريقا يقتلون، ويأسرون فريقا.

- طيلة هذه المدّة، وهي قريب من ألف عام، ولا أثر لاستعمال مصطلح غير مصطلح بني إسرائيل في التعريف بهذه الأمّة، ليظهر بعد ذلك مصطلح اليهود، الأمر الذي جعلنا نستبعد أن يكون أصل هذه التسمية يهوذا ابن يعقوب عليه السلام وحسب، لأنّه لو كان الأمر كذلك لأُطلق هذا اللفظ منذ أن صار ليهوذا هذا ذرّية، وأمّا إن قيل أين المشكلة في تأخّر إطلاق هذا الوصف على هذه الذّرية، لاسيما إن تزامن ذلك مع تكاثرهم، أو اشتهارهم بحدث من الأحداث، أو صفة من صفات الأمم المختلفة، فالجواب هو:

- أنّ مصطلح اليهود ظهر بعد وفاة نبيّ الله سليمان عليه السلام، وانقسام مملكته قسمين، إحداهما هي مملكة يهوذا، وأنّ هذه المملكة لم تنحصر في سبط يهوذا أيضا، بل كان من أتباعها أيضا، حسبما ينقل لنا المؤرخون، سبطُ بنيامين، وإنّما أطلق عليها هذا الوصف -يهوذا- لأنّ ذريّته كانت غالبية هذه المملكة.

- وعليه فإنّه يمكن لنا اعتبار تسمية يهود، وما يشتقّ منها، تاريخية الأصل، راجعة إلى دولة يهوذا، لا إلى شخصه، الأمر الذي يفسّر تأخر ظهور هذا المصطلح، ثمّ ظلّ هذا المصطلح سائدا بعد ذلك، لانقراض مملكة يوربعام، الذي تبعه باقي الأسباط العشرة، وكان مقرّها بالسامرة، وسقطت على يد الأشوريين.

- ظلّ اليهود على حالهم، بل لم تزدهم الأيّام إلا تشوّها لنفسياتهم، وانطماسا لفِطَرهم، حتى استحقّوا غضب الله تعالى، فطُبع على قلوبهم، فلا يكاد ينجو منهم إلا القليل الذي لا يكاد يُذكر، وليس هذا وحسب، بل لا يكاد يسلَم من مكائدهم ومؤامراتهم إلا القليل من الناس، فعجبا لمن يأتمنهم على ما يملك، أو يرسم معهم طريقا يتوهّمه موصلا إلى وفاق.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن، علي بن محمد الماوردي (المتوفى: 450هـ)، دار مكتبة الحياة، 1986م.
3. بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.تا.
4. بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، ط2، 1420هـ-2000م.
5. التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984هـ
6. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1990م.

7. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي ، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.
8. جامع البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
9. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ
10. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423هـ-2003م.
11. خطاب القرآن الكريم عن اليهود، للدكتور عرفة عبد المقصود عامر، مقال منشور على شبكة الأنترنيت، 1431هـ-2010 على موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.
12. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، لسعود بن عبد العزيز الخلف، تحقيق: مكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط4، 1425هـ-2004م.
13. الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لعبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.
14. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ-2009م.
15. صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ–1993م.
16. عيون الأثر، في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيّد الناس، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م.
17. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.تا.
18. فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ
19. قصص الأنبياء، لابن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1388 هـ-1968م.
20. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ
21. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ
22. مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م.
23. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا.
24. معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417 هـ - 1997م.

25. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ

الهوامش:

(1) انظر أقوال المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ من سورة البقرة، وهو المورد الأول لكلمة إسرائيل في القرآن حسب ترتيب المصحف الشريف، فكلّهم على أنّ هذه الكلمة أعجمية مركّبة من إسرا، وئيل، واتّفقوا على أنّ إيل هو الله بالعبرانية، وعزاه القرطبيّ إلى ابن عباسﷺ، انظر: تفسير القرطبي، ج1، ص331، انظر أيضا: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، ص12.

(2) جامع البيان، للطبري، ج1، ص553.

(3) المائدة: 18.

(4) البقرة: 111.

(5) آل عمران: 24.

(6) آل عمران: 75.

(7) وإنّما ينصبّ الاهتمام في هذا البحث على الصنف الأوّل، وهم اليهود.

(8) الذي عليه أكثر علماء الإسلام أنّ إخوة يوسفعليه السلام لم يكونوا أنبياء يوما في حياتهم، راجع هذه المسألة في: تفسير ابن كثير، ج4، ص372، وتفسير القرطبي، ج9، ص133، والفصل لابن حزم الأندلسي، ج4، ص107، وغيرها.

(9) جامع البيان، للطبري، ج15، ص558.

(10) المحرر الوجيز، لابن عطية، ج3، ص220.

(11) تفسير القرطبي، ج9، ص130.

(12) تفسير ابن كثير، ج4، ص372.

(13) جامع البيان، للطبري، ج15، ص561.

(14) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص12.

(15) أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، رقم: 2587، ج3، ص158.

(16) أبناء يعقوب هم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزيالون، ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر، دان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ثم توفيت ليا، فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، انظر: تفسير القرطبي، ج9، ص130، وعلى أنّ يوسف وبنيامين أصغر أبناء يعقوب جماهير أهل التفسير، وغيرهم، وإنما حصل الخلاف في أسماء بعض هؤلاء الإخوة، وأمّا عددُهم، وترتيبهم، فلم أجد من خالف في ذلك، والله أعلم.

(17) المحرر الوجيز، لابن عطية، ج3، ص221، بتصرّف يسير.

[18] خطاب القرآن الكريم عن اليهود، للدكتور عرفة عبد المقصود عامر، مقال منشور على شبكة الأنترنيت، 1431هـ-2010 على موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.

[19] معالم التنزيل، للبغوي، ج4، ص217.

[20] تفسير المنار، لرشيد رضا، ج12، ص216.

[21] النساء: 159.

[22] تفسير القاسمي، ج3، ص364.

[23] تفسير ابن عطية، ج3، ص221.

[24] تفسير ابن عاشور، ج12، ص221.

[25] قال الطبري: وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان، أهل مواش وبرية، انظر: جامع البيان، ج16، ص276، وهو قول عامّة أهل التفسير، وفي بعض الدراسات أنّ "تسمية بني إسرائيل بالعبرانيين راجع إلى كلمة العبور، التي تحمل معاني التنقّل والتحول، وسبب إطلاق هذا الاسم عليهم –كما يرى أصحاب هذا القول- هو عيشهم في الصحراء، وعبورهم الوديان والبلدان، والبحث عن أسباب العيش من مكان إلى آخر، ولهذا لما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان، وعرفوا المدنية، صاروا ينفرون من هذه الكلمة التي تذكرهم بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يفضلون أن يُعرَفوا ببني إسرائيل فقط"، انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص9-10.

[26] سنن أبي داود، رقم: 2861، ج4، ص482.

[27] فيض القدير، للمناوي، ج6، ص94.

[28] يونس: 93.

[29] الشورى: 14.

[30] آل عمران: 19.

[31] انظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص274.

[32] ذكره ابن كثير في تفسيره، ج4، ص377.

[33] أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص269.

[34] بدائع الفوائد، لابن القيم، ج2، ص234.

[35] بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، محمد أمين سليم، ص73.

[36] نفسه، ص71.

[37] تفسير ابن كثير، ج4، ص411.

[38] انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، ج1، 358-359 بتصرف، وانظر: أيضا: تفسير الطبري، ج16، ص274، وتفسير القرطبي، ج9، ص264، وغيرهما.

[39] قصص الأنبياء، لابن كثير، ج1، ص354.

[40] نفسه.

[41] نفسه.

[42] يوسف: 77.

[43] صحيح مسلم، رقم2793، وفي روايةٍ عند أحمد «لو آمن بي عشرةٌ من أحبار اليهود، لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»، انظر: مسند أحمد الشيباني، (رقم: 8555).

[44] بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، ص73، بتصرف.

[45] انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، ج2، ص4.

[46] نفسه، ج2، ص5.

[47] بنو إسرائيل، لمحمد سليم، ص74.

[48] البقرة: 122.

[49] المائدة: 20.

[50] بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، ص74.

[51] القصص: 5.

[52] الأعراف: 137.

[53] الشعراء: 57-59.

[54] الأعراف: 138.

[55] البقرة: 54.

[56] الأعراف: 152.

[57] تفسير ابن كثير، ج3، ص477.

[58] الأنفال: 25.

[59] الأعراف: 153.

[60] المائدة: 20-24.

[61] المائدة: 24.

[62] مسند أحمد، رقم: 3697.

[63] انظر: بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، لمحمد أمين سليم، ص78.

[64] تفسير ابن كثير، ج1، ص668.

[65] انظر: صحيح البخاري، رقم: 3957.

[66] البقرة: 249.

[67] بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، محمد سليم، ص77، بتصرف.

[68] البقرة: 247.

[69] انظر: تفسير الطبري، ج5، ص306، وتفسير البغوي، ج1، ص297، وتفسير ابن عطية، ج1، ص331، وغيرهم.

[70] قصص الأنبياء، لابن كثير، ج2، ص258.

[71] انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص12.

[72] التفسير الكبير، للرازي، ج3، ص536.

[73] كلّ من تكلّم في أصل تسمية اليهود، من مفسّرين، وباحثين، ومؤرّخين، ذكروا هذا الاحتمال، وهو اختيار الأكثرية منهم.

[74] قاله الفخر الرازي في تفسيره، ج3، ص536.

[75] انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، لمحمد طنطاوي، ص13.

[76] كذا في أكثر ما وقفت عليه من كتب التاريخ، واللفظ لابن عاشور، انظر: التحرير والتنوير، ج1، ص531.

[77] سبق تخريج هذا الحديث، ص390.

[78] انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، لسعود بن عبد العزيز الخلف، ص45.

[79] الإسراء: 2.

[80] الصف: 6.

[81] البقرة: 122.

[82] تفسير الطبري، ج2، ص573.

[83] آل عمران: 98-99.

[84] المحرر الوجيز، لابن عطية، ج1، ص480.

[85] البقرة: 144.

[86] تفسير ابن كثير، ج1، ص461.

[87] الأعراف: 148.

[88] الأعراف: 137.

[89] آل عمران: 113.

[90] آل عمران: 75.

[91] المائدة: 70.

[92] المائدة: 13.

[93] البقرة: 90.

[94] آل عمران: 112.

[95] المائدة: 60.

[96] الممتحنة: 13.

[97] صحيح ابن حبان، رقم: 6246.

[98] ينظر: أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية من سورة الفاتحة، وشرّاح الحديث المذكور سابقا.

[99] انظر: تفسير ابن كثير، ج1، ص141.

[100] بنو إسرائيل في ضوء الإسلام، لمحمد أمين سليم، ص80.

[101] المقصود به الاستفتاح الذي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة

89)، والاستفتاح الاستنصار، كما في كتب التفسير، أي كان اليهود، قبل مبعث رسول اللهﷺ يستفتحون به، ويتوعّدون المشركين بنصرتهم إيّاه، ومؤازرتهم له، كي يكون عونا لهم، ونصرا عليهم، وكانوا يترقّبونه!، ويبشّرون به!، فلمّا جاءهم.. كفروا به!!، وحاربوه، وناصروا المشركين على عدوانه.

(102) انظر: الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي، ج4، ص207، وعيون الأثر، في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ج1، ص240.

(103) البخاري في صحيحه، رقم: 3635.

(104) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم: 940.

(105) الأحقاف: 10.

(106) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم: 7162.

(107) سبق تخريجه، ص273.

(108) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 1356.

التاريخ الرياضي ودوره السلمي عبر العصور.

د. عبد النور العمري.

جامعة يحي فارس المدية.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الرياضة، المنافسة، السلام الرياضي.

الملخص:

ركز هذا البحث على تاريخ ودور الرياضة في بناء السلام في ظل حروب وصدامات مروعة طالت تاريخ الأمم المنتهية، وأهمية الرياضة تكمن في إحياء روح منافسة ودية غير دموية، مكان الحروب المدمرة، عبر مسابقات ومنافسات بدنية التي طورها اليونانيون بجد لتحل محل الحروب الأهلية التي كانت مكتوية بها، فأعطوا رغبة كبيرة في مواصلتها وتعزيزها وتطويرها، ثم تصديرها إلى الشعوب المجاورة. وهكذا بدأت الأمم تعترف بدور الرياضة في إعادة بناء العلاقات وبناء سلام جديد على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو القاري أو العالمي، وبالتالي فإن استخدام الرياضة أداة فعالة لإعادة إدماج العلاقة بين الأمم.

Abstract:

This research focused On the history and role of sport in peace-building, During terrible wars and clashes, It concerned the history of the nations ending, And the importance of sport be in the spirit of friendly and non-blood-friendly competition, In place of destructive wars, Through competitions and physical competitions, Which the Greeks developed it seriously, To replace civil wars Which it suffered Much because of it, They gave a great desire to continue, and development, Then exported to neighboring peoples. Thus, the United Nations has begun to recognize the role of sport in rebuilding relations and building new peace at the local, regional, continental or global level, and thus the use of sport as an effective instrument for reintegrating the relationship between nations.

تلعب المنافسة الرياضية دورا مهما في حياة الشعوب والأمم، وهي تمثل نوعا مهما من أنواع التنافس كنشاط بدني أو ترويحي، ووفقا للنوع البشري من حيث الجنس،

العمر، المؤهلات...، فماذا فعلت الرياضة تاريخيا بين الدول والإمبراطوريات المتنافسة والمتعاقبة منذ القديم إلى يومنا هذا؟،.. فلعلنا بهذا الطرح نلقي الضوء لما قدمته المنافسات البدنية والرياضية للإنسان ومجتمعاته المختلفة عبر حضارة إنسانية، مبدعة في ماضيها وحاضرها، في وحدة عضوية تتفاعل فيها مختلف مجالاته الحضارية وتتكامل، فسعينا توضيح دور المنافسة الرياضية، واستغلالها لخدمة سلام الأمم قديما وحديثا، وأيضا إجراء مقارنة شاملة لهذه الظاهرة الحضارية في المجتمعات المختلفة، كون التربية البدنية والرياضية ارتبطت بالتاريخ الإنساني منذ عصور ما قبل التاريخ، وحتى الفترة المعاصرة لدى مختلف الأمم والمجتمعات.

في الحقيقة، وعلى مراحل التاريخ، قدمت المنافسة الرياضة، ولا تزال تمنح علاقات طيبة وتصالحية بين أفراد المجتمعات البشرية المختلفة في الأعراق واللغات والألوان والثقافات والعادات..، فالمنافسة الرياضية واللعب ظلت حقا من حقوق أولئك الأفراد التي وجب احترامها وتنفيذها في جميع أنحاء العالم، وتم الاعتراف بها، والرياضة أداة تنافسية منخفضة التكاليف إذا قارناها بالتكاليف الباهظة للتنافس المسلح، وهي أيضا عالية التأثير في الجهود الإنسانية والتنمية وبناء السلام، والتشجيع عليها لم يعد يقتصر على منظمات الدول والأمم فقط، فكذلك من طرف منظمات غير حكومية، وكالات التنمية، والاتحادات الرياضية، والقوات العسكرية ووسائل الإعلام..، فهي استثمار مهم في البلدان، سواء للذاكرة أو الحاضر أو المستقبل، لذلك تدعو دائما الأمم والدول إلى العمل المشترك بين منظماتها ومؤسساتها لتسخير الرياضة للأهداف التنموية وإحلال السلام.

إذن تعتبر المنافسة الرياضية أداة فعالة لنشر سبل الأمن والسلام بين الأمم، في ظل تكالب المصالح الاديولوجية والاقتصادية وغيرها منذ القديم، والسؤال هنا كيف تبلورت فكرة السلام الرياضي عبر التاريخ البشري؟، هل كان تطورا تدريجيا؟ أم مجرد طرح نظري؟.

في العصور القديمة للتطور الحضاري اعترى مفهوم الرياضة والمنافسة كثير من التطور المتدرج1، فالمتغيرات والمعتقدات والثقافات والفلسفات الفكرية والسياسية لعبت جزءً كبيرا في ذلك، وأكملت ذلك الدراسات النفسية والبحوث العلمية والسلوكية في تطوير مفهوم الرياضة وأخلاقياتها.

وإذا عدنا إلى البداية نجد أن الرياضة اعتبرت منذ العصور الحجرية ضمن الأنشطة اليومية لنظام أعمال المجتمعات البدائية اليومية، منها الصيد، والقنص، وجمع الطعام، من خلال تسلق الأشجار، أو غيرها من الأعمال التي تتطلب جهدا عضليا، كما لم يكن الإنسان البدائي في حاجة ضرورية لمزاولة أنشطة رياضية بشكلها الحالي، حيث كان يؤدي مهاراته الحركية الأساسية طبيعياً وتلقائياً دون قصد أو إعداد لها، فكان يمشى للانتقال من مكان لآخر، ويجري ويقفز صعوداً وهبوطاً وراء صيده ليقتنصه ويقتات به، أو هروباً من حيوان مفترس، أو مراوغته لتفادي خطورته، ويسبح في الماء لاجتياز مجرى مائي، ويتسلق الأشجار لقطف ثمارها أو تقطيع فروعها، والاستفادة من أخشابها، وحملها لمسافات بهدف بناء مستقره، ويثب بقدم أو على القدمين حيث الأرض طبيعية وغير ممهدة.. فكان الإنسان يمارس تلك المهارات الأساسية بهدف كسب قوته، أي زاولها مضطراً، وبذلك كان البقاء للأقوى والأسرع والأفضل مهارة.

والمميز أيضا في هذه العصور، أن رياضة المجتمعات البدائية لم يكن لها برنامج منظم بحد ذاته، أو ممارسة في أوقات معينة، فالإنسان البدائي لم يكن بحاجة إلى وقت مخصص لممارسة الرياضة أو أنشطتها البدنية، حيث شكلت الجزء الأكبر من حياته اليومية من خلال سعيه الحصول على قوته اليومي، أو حماية نفسه من البيئة المعادية، لهذا اتسم إنسان ذلك الزمن بجسم قوي، وعضلات كبيرة، وأجهزة عضوية سليمة، وبذلك نرى أن نشاطه البدني والحركي مارسه بحركات طبيعية فطرية، اعتبرت من ضروريات حياته اليومية.. وكل تلك المهام كانت تمثل تدريباً طبيعياً للقدرات البدنية والحركية الأساسية.

من كل تلك الأنشطة التي قام بها الإنسان البدائي استوحيت عديد الرياضات، فقد استوحي من المطاردة أثناء الصيد رياضة العدو والرماية، وتجاوزه فيضان الأودية استوحى رياضة القفز، وركوبه البحر للصيد أو التنقل عبره استوحى رياضة السباحة، وامتطاؤه الخيل للتنقل استوحى رياضة سباق الخيل..الخ.

هكذا ندرك أن الإنسان البدائي لم يعرف الرّياضة بمفهومها العام ،نظراً لأنّ حياته كلّها كانت مليئةً بالحيويّة والنّشاط، حيث كانت رياضة في حدّ ذاتها، فالإنسان حين كان يقطع مسافات طّويلة في التّرحال والتّنقل، فإنّه كان يمارس نوعًا من أنواع الرّياضة وهو المشي أو الرّكض. غير أنها مورست –الرّياضة- قديماً بأنواع مغايرة لمفهومها الحالي،

حيث تمّ العثور على لوحات تصويرية في كهوف لاسكو (Lascaux)2 الفرنسية، قبل أكثر من سبعة عشر ألف عام خلال العصر الحجري القديم، تبرز مشاهد الرّكض، والمُصارعة، كما تمّ العثور في مناطق بمنغوليا على آثار تعود للعصر الحجري الحديث، بها صور مرسومة توضّح وجود مباريات المُصارعة مع وجود متفرجين كثيرين للاستمتاع بالمشاهدة، وفي أحد الأودية قرب منطقة الجلف الكبير في ليبيا كانت تُمارس رياضتا السباحة والرماية منذ حوالي ستة آلاف سنة قبل الميلاد.

من هذه الأمثلة يمكننا القول أن الإنسان الأول مارس الرياضة بطريقة مباشرة وغير مباشرة، فكانت الرّياضة في حد ذاتها وسيلة من وسائل الإعداد والقوّة، لأن محاربة الأعداء ومجادلتهم والدّفاع عن الأرض وحمايتها، تستلزم من المقاتل أن يكون رياضيًّا قادرًا على أن يصول ويجول في أرض معادية بكلّ رشاقة ولياقة، فالرّياضة إذن تمدّ الإنسان بالقوّة، وإنّ كثيرًا من رياضات الدّفاع عن النّفس تزوّده بالمهارات القتاليّة المختلفة للدّفاع عن نفسه وصدّ العدوان.

مع مرور الزمن أخذ الإنسان الأول من الألعاب الشعبية البدائية، والتي كان يتعلمها عن طريق التقليد والمحاكاة، مما ورثه من الآباء والأجداد تدريباً على مهارات حركية تضمنتها تلك الألعاب، كالمسك، والرمي، واللقف، والزحف، والثني، والمد، والتمايل، والارتعاش، مستخدماً مع تلك المهارات أدوات بدائية، أو ما توفره له البيئة الطبيعية، حيث تمثل تلك المهارات قاعدة أساسية للمهارات الحركية الأساسية بنوعيها، مهارات انتقالية وغير انتقالية. كما أن لتماسكه (الإنسان البدائي) اجتماعيا داخل مجموعته الصغيرة ضرورة قصوى له، وقد ساعده في ذلك تلك الأنشطة البدنية، التي خلقت له فرصة ثمينة لتنمية وعيه الاجتماعي، وترابطه وتقويته، ووسيلة لتعليم الأولاد الرابطة العشائرية عن طريق الحركات الراقصة الجماعية، وتقليد الأولاد لآبائهم في رمي الحراب والرماح، وهي من المهارات الحركية الرياضية التي لابد من تطويرها والترويح بها عن النفس.

أما مع بداية فجر التاريخ البشري في الألف الرابعة قبل الميلاد، وظهور الحضارات المتطورة، فإن الرياضة ظهرت جليا في حضارات الشرق الأدنى ثم حوض المتوسط، أين شكلت هاته المناطق مظاهر المدنية والتقدم، وسوف نتناول بعضا من

تلك الحضارات، ومدى تطور نشاطاتها الرياضية التي ساهمت في تكريس ثقافة السلم والسلام بين الأمم.

ففي مصر، باعتبارها أولى حضارات التمدن، نرى اهتمام شعوبها كثيرا بالرياضة ،فتربية الأبناء كانت تبدأ منذ السنة الأولى، بتعويد الطفل على خشونة العيش والتحمل، حيث يجبر الطفل على السير حافي القدمين وتحليق الرأس، وفي سن الرابعة يسمح له بقضاء بعض الوقت مع ألعابه. فكانت التربية البدنية والرياضية ضمن منهاج التعليم إلى جانب الإعداد الخلقي والديني والعلمي. أما اجتماعيا فقد كان المجتمع المصري ميالا إلى مزاولة التمارين البدنية، سواء للأغراض العسكرية وإعداد وتدريب المحاربين من الشباب من أجل اكتسابهم اللياقة البدنية والمهارات الحركية، أو الأغراض الترويحية التي كانت رياضة السباحة في مقدمة الألعاب الترويحية، التي مازالت بعض الجدران على المعابد تحتفظ برسومات عن رياضة التجديف، أو اللوحات المرسومة في مقبرة بتاح حب التي تبين مشاهد لرياضتي المصارعة والملاكمة. ومن الألعاب الأخرى التي ظهرت في النقوش الجدارية رياضات المبارزة والعاب التوازن والكرة ...

إذن فمصر القديمة شهدت الكثير من أنواع الرياضات التنافسية التي ظهرت من خلال إبداعاتهم في الرسومات على جدران المقابر والمعابد والمسلات، اظهروا من خلالها القواعد الرئيسة للألعاب والألبسة المخصصة للاعبين، مع حكم يدير تلك المنافسة والتدخل عند الخلاف، وهو الذي يعلن الفائزين كما وضح في الرسومات بمنحهم أطواق وشرائط النصر، كما تظهر تلك الرسومات تجسيد مشاعر المتنافسين مع نهاية الألعاب، منها المشهد المصور على جدران معبد رمسيس الثالث في مدينة هابو (الأقصر) لأحد اللاعبين يحيي جمهوره ومناصريه بحني جسده، ورفع يده أمام جبهته. كما عثر على أشياء عصرية وقتها للتسلية تعد بمثابة نفائس في المقابر، مثل الدمى وكرات مغطاة بالجلد وألعاب الرقعة.. وكل ذلك دليل قوي على أنّ المصريين قديما كانوا سباقين في نشر الثقافة الرياضية السلمية الحقيقية في كثير من الألعاب، ولتوضيح ذلك علينا أن نتحدث قليلا عن الحياة الرياضية المصرية قديما بشكل عام.

فقد قسمت تلك الألعاب (الرياضات) لفئات مختلفة، منها ما هو للتسلية والحفاظ على رشاقة الجسم، ضمت ألعابا تشبه الجمباز والأكروبات والصيد والسباحة والوثب العالي، ومنها ما هو لبناء أجسام الملوك والمحاربين وتقوية عضلات الشباب،

لإعدادهم ككهنة معابد أو قادة عسكريين، شملت هي الأخرى الملاكمة، ومصارعة اليد، وأنشطة الفروسية، والعدو الطويل (الماراتون) ورماية السهم، والمميز فيها أن رياضة الصيد، ورياضتي رماية السهام ورمي الرماح برؤوس حديدية، كانت مهمة كثيرا بالنسبة للطبقة الملكية والنبلاء، إذ لم تكن مجرد تسلية بينهم فقط، بل فرصة مواتية لإثبات القوة وإظهار الشجاعة والقدرة الجسدية على هزيمة حيوان الأسد، أو نمر يجري في الصحراء، أو فرس نهر، أو تمساح يعبر النيل... من ذلك بعض المشاهد التي تصور الملك رمسيس الثالث وهو يصطاد فرس نهر، وثوراً بريا وأسدا على جدران معبده بالأقصر، وهناك تمثال صغير بالمتحف المصري يصور الملك توت عنخ آمون صيادا لفرس النهر، إضافة إلى وجود خطافات صيد الأسماك بأنواع وأشكال مختلفة، مما يثبت مدى تطور الألعاب الرياضية آنذاك.

دلت مصادر النقوش المصرية أن قدامى مصر مارسوا رياضة السباحة، والاستمتاع بإقامة مسابقات التجديف ضد التيار، كما مارسوا المصارعة، التي مثلت جزءً مهماً من حياتهم وفي احتفالاتهم بالمواسم الدينية التي يقيمونها بمناسبة العام الجديد، كما مارسوا رفع الأثقال والملاكمة، ومن الألعاب التي ظهرت أيضاً في نقوشهم ألعاب التوازن وألعاب الكرة. ويعتقد أنهم أول من ابتكروا الكرة ولعبوا، ففي المتحف المصري يوجد أعداد كبيرة منها، وهي مصنوعة من ألياف البردي أو النخيل.

كما وجدت أشكال تشبه كرة القدم التي نعرفها اليوم، حيث تظهر مشاهد من مقابر في بني حسن (المنيا) فتيات يلعبن بكرتين أو ثلاث في وقت واحد، ويلعبن لعبة الإمساك أثناء حملهن على ظهور زميلاتهن، كما ظهرن في مشهد آخر يضربن كرة بأقدامهن وتمريرها بينهن، فتشابه ذلك بما نعرفه اليوم عن كرة القدم. ويعتبر قدماء المصريين من الشعوب الأولى التي ابتدعت ألعاب الكرة فصوروها على جدران المقابر في سقارة، فمشاهد ذلك تظهر الكرات محشوة بألياف النخيل أو ورق البردي أو قش، مغطاة بجلد مربوط بخيط أو قماش. وهناك مشاهد عن لعبة كرة تشبه لعبة الهوكي اليوم، حيث تصور اثنين من اللاعبين يضربان كرة صغيرة بمضارب طويلة مصنوعة من سيقان جريد النخيل منحنية وعريضة في نهايتها تشبه عصي الهوكي حاليا، وكانت تلك الكرة مصنوعة من ألياف البردي المضغوطة مغطاة بقطعتين من الجلد، على شكل شبه كرة وملونة بلونين أو أكثر.

كان اللعب بالكرة في مصر تمارسه الفتيات كثيرا، حيث تظهر الرسومات والصور فتيات يتقاذفن الكرة في رشاقة ومهارة دون أن تسقط على الأرض، وكن في بعض الأحيان يجمعن بين الركوب وتقاذف الكرات، أو اللعب بعدة كرات في وقت واحد، وأحيانا في أوضاع خاصة كن يقذفن الكرات ويلتقطنها بثني أذرعهن، ومن ألعاب الأطفال أيضا لعبة إخفاء الوجه، وتتلخص في أن يجلس أحد الأولاد ويخفي وجهه في حجر زميله ويتناوب زملاؤه ضربه، وعليه أن يكشف ضاربه، فإذا وفق في ذلك جلس الضارب مكانه وأعادوا الكرة. مارسوا كذلك المبارزة بالعصي بين الرجال، كما كان للرقص عند قدماء المصريين مكانة كبرى لديهم. إضافة إلى الشغف بالصيد كوسيلة عيش عند البسطاء، أو متعة عند النبلاء باستهواء صيد الأسود والنمور والظباء.

كما فضل المصريون الألعاب المنزلية المتنوعة التي تحتاج إلى أعمال الفكر، والتي لم تقتصر على طبقة معينة بل جميعها داخل المجتمع، فقد عثر على رقاع وقطع لهذه الألعاب ونقوش تمثلها منذ بداية العصر الفرعوني في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وفي جميع عصوره اللاحقة. منها لعبة شبيهة بالشطرنج تلعب بدبابيس من عاج، خمسة منها برؤوس كلاب بينما الخمسة الأخرى برؤوس بنات آوى، ويعتقد أن كل لاعب كان يحرك فريقه محاولا الوصول إلى الهدف المرسوم في رأس الرقعة قبل خصومه، مستوحين في ذلك ما تمليه عليه قطع الإلقاء (الحظ). ومن أقدم تلك الألعاب أيضا لعبة مورست على لوح مستدير في شكل ثعبان ملتو حلزونيا ،وتستخدم فيها قطع لعب على شكل كرات صغيرة، ويعتقد أن هدف اللعبة إدخال الكرات إلى مركز الدائرة (لعبة الثعبان). ومن الألعاب المشتركة أيضا التي مارسها النخبة والعامة لعبة السينيت التي صنعت من العاج وخشب الأبنوس والرخام للنخبة والطبقة الملكية، أما لعامة الناس فصنعت من الخشب والأجزاء المحطمة، وأجمل مشهد لها موجود في مقبرة الملكة الفرعونية نفرتيتي بوادي الملكات.

في مصر قديما كان لكل فئة عمرية حصتها من الألعاب، فالصغار كانت لهم ألعابهم، فصورهم الكثيرة على رسومات وصور الجدران متعددة لأطفال منهمكين في ألعابهم ومبارياتهم، معظم هذه الألعاب كانت جماعية يشترك فيها عدة أطفال وتخضع لقواعد ونظم خاصة، منها جلوس طفلين على الأرض ظهرا لظهر بتشابك الأذرع محاولا كل منهما النهوض قبل الآخر دون الاستعانة بذراعيه. وفي لعبة أخرى استخدموا فيها طوقا

وعضوين معقوفي الأطراف، يدفع أحدهما الطوق بعصاه ويحاول الآخر صده بكل قواه، وأقواهما وأمهرهما يفوز في النهاية. ولعبة أخرى يدور فيها عدد من الأطفال حول طفلين في الوسط وقد تشابكت أيديهم، ويشترك فيها أطفال من الجنسين، كما مارسوا نوعا من القفز فوق أطفال يجلسون على الأرض وهم ممددي السيقان والأذرع إلى الأمام، وهو بذلك لعب جمع بين القفز الطويل والقفز العالي الحاليين.

بمرور الوقت أصبحت أنواع الألعاب الرياضية التي زاولها المصريون متعددة ومتنوعة ذات إقبال شديد على ممارستها أو مشاهدتها في أوقات الفراغ، وبالأخص المصارعة، والتحطيب، والمبارزة، والتسلق، ورفع الأثقال، والرماية، والكرة، وشد الحبل..

هكذا اهتم المصريون قديما بالرياضة باعتبارها جزء من تعاليم دينهم، وآثارهم القديمة تثبت أنهم من أوائل الممارسين لكثير من الألعاب المعروفة الآن. ويقال أن التربية الرياضية بمفهومها الحالي لم تكن للدولة سياسة تجاهها، بل يستمدها المصري من حياته، وأن ممارسيها من أبناء الطبقة الفنية والمتوسطة والكادحة، ساهمت في تعزيز الروابط المجتمعية والمصالحة الاجتماعية والسلام بين أطيافه، كيف لا والمعروف أن المجتمع المصري لم يعرف الحروب إلا نادرا.

أما إذا اتجهنا ناحية الشرق، أين برزت الحضارات الرافدية التي كانت دوماً محط أنظار الغزاة فنجد أن تلك الأخطار الغازية فرضت على البرامج البدنية والرياضية في المجتمع الرافدي اهتماما بالمهارات القتالية، فشملت تدريب الرماة على التصويب، واستخدام الرماح، والمقالع، وقيادة العربات الحربية، واعتبار الصيد وسيلة لرفع لياقة البدن من أجل الحرب ولم تعتبر كرياضة، كما اعتبرت السباحة أيضاً على أنها فن من فنون الحرب، فكان السومريون يشجعون التربية البدنية لتوفير الجيوش القوية لحماية ممالكهم من أطماع خارجية أو أخطار محتملة، وتدل القطعة الأثرية (راية أور التي وجدت في المقبرة الملكية في لجش) على بعض أساليب القتال وكذلك القطعة (نصب النسور).

ونتيجة للفتوحات الخارجية في زمن سرجون الاكدي (2371- 2316ق.م) تطورت أساليب تدريب الجيوش فادخل نظام المبارزة (رجل لرجل) التي تتطلب لياقة بدنية عالية ومتطورة (السرعة، القوة، المداومة ....الخ).

كذلك في العصر البابلي بينت نصوص مسمارية أساليب التجنيد والحملات العسكرية، ومن مخلفات هذا العصر مجسم فخاري لمشهد ملاكمة، أما في العهد الأشوري فكان الجيش المتدرب على القوة والسرعة الركيزة الأساسية للدولة، ففي هذا العصر وصلتنا قطعة أثرية يظهر فيها ثلاثة جنود احدهم في وضعية السباحة بالزحف، وقطعة أخرى تمثل طريقة الرمي بالقوس، وقطعة ثالثة تبين صيد الأسود. ومنه يتضح أن أغراض الإعداد البدني لدى الرافديين قديما عسكري أساسا ويعتمد على الفروسية، والرماية، والألعاب المائية، والتداريب البدنية. أما الغرض الترويحي التنافسي فلم يكن غرضا أساسيا ولكن عرف ضمناً من خلال بعض القطع الأثرية، منها تمثال برونزي يعود إلى العصر السومري لمصارعين يحمل كل مهما جرة فوق رأسه، إذ كل منهما يحاول إبقاء جرته فوق رأسه ومن مسكتهما

وأيضا القطعة الأثرية للوح من الرخام التي تبين مشاهد رياضية تعود إلى نفس العصر لمراحل المصارعة.

كذلك قطعة حجرية بتل

احمر من العصر السومري نقش عليها مشهد لمصارعين مهيئين للنزال. إضافة إلى مسلة من الرخام الأبيض تحمل مشاهد رياضية بنحت بارز أبرزها رياضة المصارعة. وإذا تتبعنا محتوى ملحمة جلجامش فأنها تقدم لنا نصوصا غير صريحة عن ممارسة العراقيين قديما لثقافة المنافسة الرياضية والاهتمام بأوجه الأنشطة البدنية.

عموماً فإن الرياضة عند قدماء العراقيين لم تحتل المكانة التي كانت عليها لدى الشعوب الأخرى، ويفسر المؤرخون ذلك إلى أن فن الكتابة والشعر في بابل وآشور أكسبت الكهنة والأمراء وكبار التجار مكانة اجتماعية مرموقة، مما دفع بالشباب إلى تفضيل جوانب ثقافية وفنية على الجانب الرياضي، واقتصرت الرياضة بذلك على المهنيين والفلاحين والصيادين والمحاربين، ولم يكن لديهم مفهوم الممارسة الرياضية من أجل المتعة أو الترويح.

أما الصين القديمة فالمعروف عنها تاريخيا أنها اتبعت سياسة انعزالية عن العالم المحيط بها، فلم تكن تهتم بالاتصال بسائر العالم، وهذا النمط من الفلسفة الانعزالية أخرت لديهم الألعاب الرياضية مقارنة ببعض الشعوب الأخرى آنذاك، فاهتم قدماء الصين بأفكار ومعتقدات وضعية بوذية وأخرى كونفشيوسية، تغلب عليها الجوانب الروحية والذهنية على الجوانب البدنية، إلا أن ذلك لم يمنعهم من فهم ثقافة البدن

وصحته، فبرعوا في التدليك والعلاج الفيزيقي وأساليب وفنون الاسترخاء، كما طوروا نظام التمرينات العلاجية - باعتقادهم أن قلة الحركة تؤدي للخمول وبالتالي إلى الأمراض- التي سماها أحد الرهبان "كونغ فو".

ووفقا لسجلات تاريخية مكتوبة خلال فترة الدول المتحاربة، أمر ملوك الصين موظفيهم تعلم الرماية، وقيادة العربات الحربية والمصارعة، فكانت جميع المدارس في الوقت نفسه مراكز لتعليم فنون الدفاع عن النفس، فالفيلسوف والمربي العظيم كونفوشيوس (551-479 ق.م) كان رياضيا جيدا في الرماية وقيادة العربات الحربية، والصيد والرحلات وتسلق المرتفعات. وكان دائما يركز في تعاليمه على حسن السلوك وهو ما نسميه اليوم "الروح الرياضية".

كما تشير بعض النقوش الصينية إلى أن أبناء الأثرياء مارسوا الرماية والموسيقى والرقص الذي أصبح مادة تعليمية في المدارس (وبالأخص خلال عهد حكم أسرة تشو (1115م)، بإنشائها لمدارس تربوية، ضمت في برامجها التعليمية فيها والرقص والرمي والموسيقى) أما العامة فاكتسب أفرادها اللياقة البدنية من خلال أعمالهم الصناعية والحرفية، كما شاعت في الصين القديمة بعض الألعاب الشعبية منها المصارعة، والملاكمة، والكرة بالقدم، والبولو، وشد الحبل، والألعاب المائية، والكرة باليد، ورفع الأثقال.

بهذا نرى أن تميز حضارة الصين بعقيدة عبادة الأسلاف كانت جزءاً من حياتها الدينية، لحرص مواطنيها على عاداتهم وتقاليدهم، وفلسفاتهم الفكرية[3] قد أثرت على التربية البدنية، لكم مع مرور الوقت لم يمنع ذلك من الاهتمام بالرياضة، حيث شجعت الدولة كثيرا مواطنيها من ممارسة أنواع مختلفة من الرياضات من ذلك التشجيع أن اختبارات الموظف الحكومي في فترة حكم أسرة تشو كانت تتم على أساس لياقته البدنية ومقدرته ومهاراته في اللعب على الآلة الموسيقية والرماية بالقوس، وركوب الخيل، كذلك اختبارات الخدمة العسكرية شملت هي الأخرى تمرينات بدنية في الرمي وشد القوس ورفع الأثقال، واستخدام السيف والمصارعة والملاكمة.

بذلك نرى أن كثيرا من الرياضات التي مازالت إلى اليوم ككرة القدم، المصارعة، الملاكمة، البولو، شد الحبل، الألعاب المائية كالسباحة والتجديف، كرة اليد، الرقص، الموسيقى، الرماية بالنبال، لعبة (تشي وي إن) الشبيهة بالقولف في نواح كثيرة، كلها

مورست بالصين، كما أن الصين بلد لعبة (الكونج فو) ذات التمرينات العلاجية الهادفة إلى حفظ لياقة الجسم، والأصل الذي لا يمكن إلا أن ينسب إلى الغرائز البشرية وليس لعرق معين أو فرد في وقت معين. فالكرات الحجرية المحفورة في منطقة جاويونغ بمقاطعة شانشى تعود إلى مئة ألف سنة، ويفترض أن يكون استخدمها ليس فقط في الصيد، بل في مسابقات رمي الرياضيين بالسهام كما تفعل بالرصاص اليوم.

أما في الهند القديمة فتشابهت مع الصين في كثير من الجوانب الفلسفية والفكرية..إلا أن تعاليم بوذا أتت بكثير من النواهي منها الامتناع عن ممارسة الألعاب والأنشطة البدنية الرياضية، ورغم ذلك إلا أن جانبا كبيرا من المجتمع الهندي مارس ألعابا كثيرة مثل الرشاقة وركوب الخيل والفيلة، والمصارعة والرقص، لقد سيطر المناخ الفلسفي الديني على الهند القديمة بتعددها منها البوذية، والهندوسية، والكونفشيوسية، وعلى كافة أنشطتها الحضارية، لذلك أهمل الهنود البدن واتجهوا إلى الروح على اعتقاد أن البدن لا قيمة له مقارنة بالروح، ومع هذا فإن البدن والرياضة لم تهملا كلياً، فقد مارست بعض الأطياف الاجتماعية المبارزة ورمي السهام، وصيد الحيوانات باستخدام الحبال، وركوب العربات والفيلة، كما عرف الهنود ولأول مرة رياضة البولو.

كما نشير إلى أن الزهاد في الهند القديمة اتبعوا نظاماً للتوافق البدني والعقلي بهدف ربط الجسد والعقل والروح في إطار واحد أطلقوا عليه اسم "اليوجا"[4] وذلك بهدف تدريب العقل على التركيز وتدريب الجسم على التحمل للأوضاع الثابتة، والتي تحتاج أحياناً إلى مرونة عالية للمفاصل ومطاطية في العضلات، وتمرينات تنظيم التنفس.

وإذا انتقلنا إلى بلاد فارس فنرى أن اهتمام شعبها بالبدن والرياضة كان له مكانة أولى بين شعوب حضارات الشرق، حيث اعتبر الفارسيون من الشعوب المحاربة آنذاك، إذ ألصقت ثقافتهم بالغزو بهدف التوسع على حساب الدول المجاورة، وبناء إمبراطورية كبيرة وقوية، وعلى ذلك اقتصر هدف الرياضة في بلاد فارس على إعداد الفرد بدنياً ومهارياً للأغراض العسكرية، مما انعكس على كافة أنشطة الحياة في بلاد فارس، وأصبحت الدولة أشبه ما تكون إلى مؤسسة عسكرية، فكانت تأخذ جميع الأطفال الذكور عند بلوغهم سن السادسة لتدريبهم على الإعداد البدني كمقدمة للإعداد القتالي فيما بعد، ويظل التدريب مستمراً حتى سن العشرين، كانت تدريباتهم تبدأ من قبل شروق الشمس بالجري والوثب واستخدام مقلاع الحجارة، ورمي الرمح، وممارسة المشي لمسافات طويلة تحت أشعة

الشمس، والتدرب على تناول القليل من الطعام والشراب، والنوم في العراء، واجتياز الأنهار واصطياد الحيوانات، فكانوا يمارسون التدريب كما لو كانوا في حرب حقيقية.

أما الحضارة التي أبدعت في فن السلام عن طريق المنافسات الرياضية فهي بلاد الإغريق التي ظهر بها أولى الفلاسفة الكبار الذين نادوا بوحدة الإنسان المتكامل، وتشبيهه بالمثلث قاعدته الجسم وضلعاه العقل والروح، مما جعل الفنانين يبدعون في أعمال رسوماتهم منحوتاتهم في الحركات البشرية، وبرعوا في الطب والكتابة والتفكير، فكانت حياتهم مقترنة بتربية البدن، حيث كان لها الدور الأكبر في بناء المؤسسة العسكرية القوية.

فلا يوجد شعب في ذلك الزمان احترم تربية البدن مثلما احترمها الشعب الإغريقي منها مدينة اسبرطة التي عملت على تكوين جيش قوي، وعلى هذا الأساس كان مواطنوها ذكورا وإناثا مطالبين بالاهتمام باللياقة البدنية الكافية، حيث كان اعتقادهم أن الأم التي تمتلك صحة جيدة تلد أطفالاً أقوياء للدفاع عن الوطن، لذلك تدربت المرأة الاسبرطية منذ سن السابعة حتى سن العشرين، أما الذكور من سن السادسة تأخذهم الدولة ليلتحقوا بالثكنات العسكرية لتلقي التدريبات حتى سن الخمسين من عمرهم، معظم تدريباتهم تشمل الجري والوثب، والمشي لمسافات طويلة، إلى جانب مهارات قتالية كالمصارعة، ورمي الرمح والمبارزة، والفروسية.. وأيضا ممارسة بعض الرياضات التنافسية مثل رمي القرص والصيد، كما أباحت فلسفة الدولة رياضة قاسية تجمع بين الملاكمة والمصارعة يسمح فيها بكل الوسائل للتغلب على الخصم.

أما مدينة أثينا المنفتحة على العالم، فاهتمت أيضا بالجوانب البدنية والرياضية بدافع ذاتي من مواطنيها، الذين مارسوا نشاطات بدنية مختلفة بهدف تنمية أجسامهم وتقويتها إيماناً منهم بأهميتها لنيل قيم جمالية للجسم، واكتساب الصحة واللياقة، فالفهم السائد لديهم كان الحصول على توازن مناسب يجمع كافة النواحي "البدنية والعقلية والمعنوية والجمالية، فكان الطفل الأثيني ببلوغه سن السابعة يلتحق بالمدرسة، وكانت المرحلة الأولى للتربية تتم في مدرسة (الباسترا) المتخصصة في تعليم المصارعة والملاكمة والقفز والتمرينات، أما فيما بين سن الرابعة عشر والسادسة عشر فكان يلتحق بصالة التدريب5 المتمثلة في النادي الرياضي الثقافي (الجمنزيوم Gymnasium)6 (γυμνάσιον) إضافة إلى الصيد وسباق الخيل.

إذن نرى أن اهتمام الإغريق القدماء بالتدريب البدني والرياضي بشكل خاص ومميز حتى أصبح يمثل حاجة ضرورية حياتية لكل فرد، فقد اهتمت مدنها بالفرد اهتماماً بدنياً بغرض ترقية المجتمع من خلال قوة الفرد ورشاقته ومرونته وإعداده عسكريا للدفاع عن الوطن، أو بهدف التوسع والاستعمار، لذلك رفضت مدينة اسبرطا أن يعيش الأطفال ضعفاء، منه أن شعار الأم الإسبرطية في ذلك الوقت وهي تودع ابنها إلى ساحة القتال بحثه قائلة "عد بدرعك أو محمولاً عليه". وقد ذكر أفلاطون وجود نص في القانون الأثيني يوجب على الآباء إلحاق أبنائهم بمدارس الرياضة والموسيقى، كما أن هناك قوانين نسبت إلى المفكر "سولون" تقضي بوجوب تعليم الصغار "السباحة، والتربية البدنية، والألعاب الرياضية، والكتابة، والأدب، والموسيقى" الأمر الذي حفظ لهم ولحضارتهم تراثاً عظيماً على عكس إسبرطة التي أصيبت بانهيار في دولاب الرياضة العسكرية.

بذلك نرى اهتمام مدن الإغريق بالتدريب لتنمية الجانب البدني التي أنشأت لأجله قاعات تدريب وملاعب ومدرجات، كما حاول مواطنوها بلوغ الكمال الجسماني، واعتبروا التمرينات البدنية والموسيقى هي الطريق والأسلوب لذلك، فانتعشت الرياضة الإغريقية وزادت قيمتها نتيجة المنافسات النزيهة، حتى أصبح الرياضي الفائز يقلد بأعلى أوسمة ويحتفي به احتفاء كبيراً.

ويعد العصر الذهبي للتربية البدنية والمنافسات الرياضية في العالم القديم داخل بلاد الإغريق، فقد كانت مدنهم تقيم مهرجانات كل أربع سنوات وتستغرق خمسة أيام، وكان عماد تلك المهرجانات المسابقات الرياضية7. وكانت الأسباب الرئيسية لإقامة تلك المنافسات استبدال المواجهات8 العسكرية بين المدن الإغريقية وتحويلها إلى منافسات رياضية سلمية.

كما أدت وعورة التضاريس وصعوبة الاتصال بين المدن الإغريقية إلى انعزالها واعتمادها على نفسها، ونتيجة التباين في الثروة أدت إلى التصادم والتنافس والتقاتل على مصادر الثروة والنفوذ، ومع ذلك كان الإغريقيون يدركون وحدة الأصل المشترك[9] فرغم تشتتهم السياسي عملوا على إقامة منافسات رياضية10 والاشتراك فيها، فبرمجوا أربع منافسات رياضية كبرى، اثنتان منها تعقد كل أربع سنوات والأخريان مرة كل سنتين، وبذلك كان لديهم أكثر من موسم تنافسي رياضي سنوي يشاركون فيه، تلك المهرجانات هي الدورة الاوليمبية والدورة الخليجية (نسبة إلى خليج سالونيك قرب مدينة كورنثا) والدورة البيثية

(نسبة لأسطورة الأفعى بيثون)، والدورة النيمية. وحملت كل الدورات الرياضية الأربع تقديسا دينيا بإقامة طقوس لها تكريما للآلهة قبل بدأ الدورات وهي بمثابة افتتاح للدورة. فكانت تلك الدورات مناسبات قومية يشترك فيها الجميع وتتوقف أثناءها الحروب ليحل أثناءها السلام.

فالألعاب الأولمبية[11] أقيمت كل أربع سنوات في نهاية فصل الصيف، وهي الأكثر شهرة من كل أنواع الدورات الأخرى، وتاريخ إقامتها أول مرة تعود لأسطورة يونانية تفيد أن هرقل كان أول من أقامها تخليدا لانتصاره على اوجياس، كانت بمجرد بداية هذه الألعاب تتوقف كل خلافات وحروب المدن الإغريقية والمشاركة فيها سلميا، بدأت أول دورة اوليمبية عام (776 ق.م) وظلت تعقد هذه الألعاب في موعدها حتى أوقفت عام (394م).

أصبحت الألعاب الاولمبية منذ عام (572ق.م) بإشراف مدينة أليس تبدأ بإعلان إلى جميع مدن الإغريق بداية السلم المقدس، فترسل المدن وفودها للاشتراك في الألعاب، ورغم أن الاشتراك في هذه الألعاب كان مسموحا به لكل الإغريق، إلا أن المدن كانت تدقق في اختيار ممثليها نظرا لما يجلبه فوزهم من فخر لمدينتهم. لم تكن تبدأ الألعاب إلا بعد إقامة عدد من الاحتفالات الدينية وتقديم القرابين تقربا لزيوس وكرونوس وآلهة أخرى. كان برنامج الدورة يستغرق سبعة أيام: واحد يخصص لتقديم القرابين وستة للألعاب، وكانت أهم الألعاب التي يتبارى فيها المتسابقون هي الجري، والوثب، ورمي القرص، ورمي الرمح، والمصارعة، والملاكمة، فضلا عن سباق العربات وسباق الخيول. كما كان يسمح للأطفال بالاشتراك في مسابقات تخصص لهم. وكانت جائزة الفائز إكليلا من أغصان الزيتون أو النخيل، ولكن مدنهم كانت تخصص لهم استقبالات هائلة وتقيم لهم التماثيل لتخليدهم.. ولم يسمح للعبيد بالاشتراك في المباريات وان سمح لهم بمشاهدتها. ومن أهمية هذه الألعاب اجتماعيا إشراك سكان المقطاعات التابعة إلى بلاد الإغريق وأهل المستعمرات الشرقية والغربية في المنافسات قد أزاحت الحواجز الاجتماعية التي أقامها نبلاء الإغريق والتي كانت تمنع المواطنين الذين لم يكونوا من طبقات الأحرار والنبلاء من الاشتراك في المنافسات الرياضية وبذلك تلاشى التمييز العنصري، وأقيمت المساواة بين جميع الفئات خلال هذه الألعاب السلمية.

أما الألعاب التي احتلت المركز الثاني أهمية بعد الاولمبية فهي الألعاب البيثية[12] التي يعود إنشائها إلى قصة أسطورية منسوبة إلى أفعى تدعى بيثون. ضمت هذه الدورة مع بدايتها مسابقة في الموسيقى بتقديم نشيد بآلة القيثارة على شرف الآلهة. ثم أضيفت لها

ألعابا أخرى ابتداء من عام (582ق.م) كانت تعقد مرة كل ثماني سنوات ثم عدلت لتعقد مابين شهري (أوت - سبتمبر) من السنة الثالثة لكل دورة أولمبية، يتم افتتاح ألعابها عبر تقديم قرابين تقديسية ثم استعراضا لمنافسي كل مدينة على الطريق الرئيسي للمدينة، ثم البدء بمسابقات موسيقية ثم مباريات رياضية بدءا بالعدو وتنتهي بسباق العربات، غير أن الموسيقى في هذه الدورة كانت ذات أهمية كبرى عبر النشيد ومباراة العزف المنفرد على الناي مع الغناء، وأيضا مسابقات القيثارة والشعر والمسرحية والرسم...

كذلك من المنافسات[13] الكبرى الأخرى دورة الألعاب الخليجية، كانت تقام في معبد احد آلهة الإغريقيين (بوسيدون) لارتباط هذه الألعاب بعبادته. في البداية كانت تعقد كل أربع سنوات أواسط فصل الربيع، لكن عدلت مواعيد إقامتها مع عام (582 ق.م) فأصبحت تعقد مرة كل عامين في السنتين الثانية والرابعة من كل منافسات الاولمبياد، ضمت هذه الألعاب مباريات في العاب القوى وسباق الخيل ومسابقات للقوارب في الخليج ومباريات مسرحية وموسيقية.

وهناك ألعابا أخرى تقل أهمية عن المنافسات الأخرى وهي الألعاب النيمية[14] فرغم قدم تاريخها إلا أن أهميتها تقلصت كثيرا مع مرور الوقت، كانت تعقد مرتين كل أربع سنوات، الأولى في صيف السنة الأولى من الدورة الاولمبية والثانية في شتاء الرابعة منها، ويرجح أنها كانت في البداية ألعابا تقام تقربا للآلهة ومنها اخذ اسمها من معبد الإله زيوس الموجود في وادي نيميا، وقد أشرفت على تنظيم هذه الألعاب مدينتي كليوناي وارجوس. من ألعابها منافسات مختلفة أهمها سباق الخيول.. إضافة إلى منافسات فنية.

هكذا نرى أن المدن الإغريقية كانت أكثر مناطق العالم إدراكا بالمنافسات الرياضية السلمية وقيمتها الإنسانية والأخلاقية لاستبدال الحرب بالرياضة، والمعارك الدموية بالمنافسة البدنية. إلا أن مشاركة المرأة[15] في هذه المنافسات كانت شبه معزولة عن المجتمع الرياضي، لم يسمح لها بالمشاهدة أو المشاركة وذلك اعتقادا بان الزوجة الكاملة هي التي تنصرف لتدبير شؤون بيتها وتربية أولادها. فظلت الألعاب القومية مقصورة على الرجال لفترة طويلة، حتى تقرر إقامة دورة أولمبية خاصة للنساء في عيد (هيرا) وكانت المباريات النساء قاصرة على مسابقات الركض لمسافات قصيرة تجري في شهر سبتمبر بعد مباريات الرجال الاولمبية.

أما الحضارة الرومانية فكان الوضع الرياضي فيها يختلف على حسب الظروف السياسية والعسكرية لمختلف المراحل التاريخية الرومانية، حيث كانت تربية الشباب

الرياضية منحصرة على القوة والشجاعة والتحمل والصحة لإعداد مواطن روماني محارب، لان الحرب هي المهنة الأولى للشباب الروماني، فالتجنيد داخل الجيش الروماني يبدأ من السنة السابعة عشرة إلى غاية السابعة والأربعين من العمر. غير أن المهرجانات والألعاب الرومانية كانت جزءا من حياة الشعب اغلبها ارتبطت بأعياد مواسم الزراعية. لذلك كان الأطفال يدربون على أيدي أبائهم لاكتساب المهارات الضروري للحياة العسكرية كرمي السهام والملاكمة والمصارعة والسباحة وتحمل المشاق. غير أن الرومان مارسوا العاب الكرة بأنواعها وأحجامها المختلفة، وكان أساس هذه الألعاب الرمي والقذف، ومن أهمها: كرة الكف ولعبة التريجون تلعب بثلاثة لاعبين ولعبة السفيروماكاي وفيها يواجه اللاعبون بعضهم البعض في الملعب، أيضا لعبة كرة الهارباستم المحشوة بالصوف لكن مسابقات الخيول والعربات كانت تقام أثناء المهرجانات الرومانية الخاصة بالأعياد والمناسبات الوطنية والدينية وهذه المسابقات بقت حكرا على هذه المهرجانات حيث غابت مسابقات الألعاب رمي الرمح والقرص والسهام والتجديف. بل عوضوها بمنازلات دموية ومميتة غير سلمية في بعض الفترات، والشيء المؤسف فيها أنها تلقت تشجيعا مشاهدة من الجماهير الرومانية.

بانتقالنا لشبه جزيرة العرب فإننا ندرك أن طبيعة حياة العرب الصحراوية القاسية قبل الإسلام أهلتهم للتدرب على ركوب الخيل والجمال، والمدافعة والمغالبة، حتى يتاح للفرد منهم منازلة الخصم في ليالي السهر والسمر، حيث يتنافس شبان القبائل، بذلك نجد في عصر ما قبل الإسلام ظهور أنواع للمصارعة، وجاء الإسلام ليهذب هذه المصارعة البدائية إلى فن يقوم على أسس وقواعد تمارس بفرض الدفاع الشرعي عن النفس، ففي حديث شريف[16] نرى أن للقوة مكانة عظيمة للمسلم في القول «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفيه كل خير...» كذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه «علموا أبناءكم السباحة والرمي وركوب الخيل..» فالإسلام كان سباقا لتوضيح فائدة تعلم السباحة والرماية والفروسية. لأنها تحسن من توازن الجسم وتقوي عضلاته وتحقق سرعة الاستجابة والسيطرة على وضعيته، كما تزيده قدرة على التحمل وتحسين مجال الرؤية، وتعزيز الثقة في النفس والقدرة على الصبر وتقدير المخاطر، وتقوية الشعور بالانتماء الاجتماعي..

هكذا أقرَّ الإسلام المنافسة والرياضة، وشجع عليها، و بهذا نعرف مدى شمول الإسلام لكل مظاهر الحضارة، والإطار العادل الذي وضع للمصلحة العامة، فالتربية

الرياضية لا تثمر ثمرتها المرجوة إلا إذا صحبتها الرياضة الروحية الأخلاقية، وإذا كانت هناك منافسات يجب أن يحافظ على أدائها وعلى آدابها التي من أهمها، عدم التعصب، والتحلي بالأخلاق العالية في روح المنافسة، وتنمية روح التعاون وتحسين المعاملة، وتكون بالمنافسة الشريفة الهادئة بين الأفراد والجماعات، ومنه ندرك اهتمام المجتمع الإسلامي بالتربية الرياضية والتدريب البدني، والممارسات الرياضية التنافسية.

أما بالنسبة للعالم المسيحي فتميزت عصوره الوسطى (المظلمة) التي جاءت في أعقاب انهيار الإمبراطورية الرومانية بتأخر ثقافي في أوربا إلى حد كبير، ولهذا كان التفكير التربوي متأثرا بالاتجاه الرهباني إزاء الجسم والنشاط الرياضي والرقص، خاصة مع قيام حركتي "التقشف وقهر الجسم" و"الفلسفة اللاهوتية" اللتان عملتا على منع النشاط الجسماني فألغيت17 الدورات الاولمبية عام 394م من عهد الإمبراطور ثيوسوديوس الأول الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية واعتبار تلك الألعاب من تقاليد الوثنية.

لأنه كان من أهداف التربية المسيحية السمو والوضوح وإعداد الشخص إيمانيا وخلقيا وتربويا وإيجاد علاقات إنسانية بين الأفراد، لذا نجد أكثر رجال الكنيسة قد عارضوا التربية البدنية إلا القليل منهم أمثال القديس كليمنت السكندري الذي رأى أن التمارين والألعاب الرياضية ذات فوائد صحية ورغم ذلك نجد أن الكنيسة قد أبعدت كل ماله علاقة بتربية البدن وتهذيبها وعملت كثيرا في سبيل إلغاء الألعاب والمسابقات الرياضية التي رأت أن طريقة الألعاب الرياضية (خاصة الرومانية) غير مهذبة للنفس والنشاط البدني للبشر، ولها ارتباط بالديانة الوثنية والأخلاق الشريرة في البدن. فكان رجال الكنيسة دائمي القلق من هذه الأنشطة الرياضية على الدين السماوي لما في الاحتفالات بالألعاب التي تقام كانت لها طقوس دينية اعتقدوا أن لها تأثير خطيرا على المسيحية لذلك حاولوا منعها تماماً. فبدأ رجال الدين المسيحيين بالمنع من حضور الحفلات الرياضية العامة ومقابل عقوبة صارمة في حق المخالفين. ممن يحضر حفلات السيرك، ويحرم من ديانته ولا يسمح للمصارع باعتناق الدين المسيحي إلا بعد أن يعطي تعهدا باعتزاله المصارعة، وظلوا يعملون على ترسيم إلغاء الألعاب الرياضية الاولمبية القديمة حتى نجحوا في ذلك، ثم نجحوا في تحريم المجادلة والمصارعة.

استمر الحال على منع الممارسات الرياضية بكل أنشطتها إلى أن مات إمبراطور المملكة الكارولنجية شارلمان عام (814م) وقيام نظام اجتماعي جديد(عهد الإقطاع) استمر طيلة فترة القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر.وفي هذه الفترة حتمت الظروف الاجتماعية على الطبقة الحاكمة أن تربي أبنائها تربية خاصة على نضام الفروسية، والسماح للعامة بممارسة بعض أنواع النشاط الرياضي كناحية ترويحية مثل الرقص في جماعات.

أما في العصر الحديث تقدم العلم وتطور، وطبقت النظريات والمبادئ والأسس العلمية في شتى المجالات، فازدهرت التربية الرياضية بسبب البحوث والاختراعات وأصبح ينظر لها كعلم له أهميته وله مفهومه التربوي الخالص. فالتربية الرياضية تعتبر نبعا ومصبا في آن واحد للعلوم ذات الصلة الوثيقة بها والوصول إلى فكرة ثابتة بان اللياقة البدنية هي الأساس في كل بناء تربوي والمثل الأعلى فالعقل السليم في الجسم السليم ، فممارسة التمارين البدنية تطويرا للمهارات الخاصة بالسباحة والركض والمشي وركوب الخيل والمبارزة والرقص... لأنها ضرورية للفرد من الناحية البدنية والصحية. فالتربية البدنية وسيلة أساسية لصقل قدرات الفرد وأعدادها اجتماعيا وأخلاقيا ..وحتى عسكريا للدفاع عن الوطن من خلال ممارسة الأفراد للألعاب الشعبية والمشاركة بالمهرجانات الرياضية.

بذلك ساهم في تطور الرياضة ومنافساتها والعمل على ازدهارها الكثير من العلماء والفلاسفة والمربين المحدثين، منهم يوهان برنهاد وفردريك يان و بيير هتريك... وغيرهم والرّياضة أصبحت في عصرنا الحاضر تجمع عدداً كبيراً من الشّعوب بثقافاتهم المختلفة ومثال ذلك كأس العالم في كرة القدم الذي ينظّم دوريًا، ويجمع أفرقة دول مختلفة من شتّى أنحاء العالم، يجمعها حبّ التّنافس، وأمل الفوز باللقب، في جوّ من التآخي، بعيدا عن الحروب، والنزاعات، والاختلافات السياسية والأيديولوجية.

كما ساهم في عصرنا الراهن انتشار الوعي الناضج، بعد أن اتضحت حاجة الشعوب إلى التعاون وتبادل الخبرات في ميدان الألعاب الرياضية كوسيلة مهمة في تنشئة الأجيال، لأنها تفجر طاقات الفرد المختزنة، وتهذبها على مستوى البيئة والمجتمع والمحيط الدولي، لينتقل إلى التآخي والتعايش الدوليين، وذلك انطلاقا من التقارب والتعارف بين الشعوب، والسلام هدف إنساني وغاية نبيلة ارتبط بثقافة الإنسان على امتداد تاريخها الحضاري. لذلك أعيد إحياء18 الألعاب الاولمبية الإغريقية القديمة لجعل الرياضة في

خدمة التنمية المتناغمة للإنسان في إقامة العاب اولمبية دولية معاصرة تروج للسلام العالمي، لنبلها وقيمها في نشر ثقافة السلام والقيم الإنسانية والاجتماعية والتسامح العالمي.. وتنفيذ المشاريع المرتبطة بالرياضة كوسيلة لنشر ثقافة السلام بالتعاون الوثيق مع اللجان الأولمبية للدول، فقد استفادت بعض من الدول... بمجموعة من البرنامج الرياضية.

زادت الدعوة للسلام وإرساء دعائمه وتعميمه بعد الحرب العالمية الثانية مع قيام هيئة الأمم المتحدة كأداة تفاهم تجمع الشعوب حول هذا الهدف، ويعتبر الاهتمام بالسلام ضمن الاتجاهات الفكرية الحديثة، فالاهتمام بدراسات السلام بدأ كميدان أكاديمي في جامعات العالم منذ الخمسينات، وكان التركيز على السلام في مواجهة الصراعات الاجتماعية، كالاضطهاد، والحروب، والتمييز العنصري والتعرض للجوع وإنكار الحقوق، فالسلام مطلب إنساني ودونه يعيش الإنسان في فزع وخوف يفقده اتزانه ويجعله يتعامل مع من حوله على أساس أنهم أعداء، ويفقده صداقتهم واحترامهم، فالإنسان اجتماعي بطبعه فإذا فشل في التكيف، فإنه يفقد سلامه الاجتماعي ويشعر بالعزلة والتقوقع.

لذلك توجهت الأنظار نحو الرياضة باعتبارها دعامة أساسية للاندماج الاجتماعي والأخلاقي للشعوب، وضد التهميش بسبب الحواجز الثقافية والاجتماعية التي يقف وراءها نوع الجنس والإعاقة وغيرها من أشكال التمييز. كما يمكن للرياضة عن طريق المنافسات البدنية أن تكونا مجالاً لممارسة المساواة والحرية والتمكين، وممارسة الرياضة مهمة جداً للنساء والفتيات، أو الأشخاص ذوي الإعاقة أو الذين يعيشون في مناطق تشتد فيها النزاعات أو الأشخاص المتماثلين للشفاء من أمراض ألمت بهم.

فواجب الجميع دوما أفرادا أو جماعات، حكومات أو منظمات...أن يشجعوا تعميم لغة السلام الرياضية التي قطعت أشواطا تاريخية عبر العصور، من اجل التقارب والتنافس الشريف، هذا ما تعلمناه من مجتمعاتنا القديمة، وما يجب أن ترسخه المجتمعات المعاصرة في نشر الرسالة الرياضية الساعية إلى تلقينها وتعميمها، فالرياضة لها الدور الكبير على الروابط الفردية والمجتمعية والوطنية والإقليمية والقارية والعالمية، فعلى صعيد الفرد تنمي قدراته الجسمية وطاقاته الفكرية والمعرفية العامة لديه، أما وطنيا فهي تساهم في النمو الاقتصادي والاجتماعي وتطوير الصحة[19] العامة ووسيلة تواصل بين فئات المجتمع. أما قاريا وعالميا فيتجلى دورها في إثبات الهوية الوطنية

والثقافية في المنافسات الدولية، من خلال النشيد الوطني، وأداء تحية العلم، وبالتالي التعريف بالبلد في وسائل الإعلام بالإضافة إلى أدوار تنموية[20] اقتصادية واجتماعية ونشر ثقافة السلام بين الشعوب.

كيف لا وجميع القيم الأساسية للرياضة (التفوق، الصداقة، الاحترام) تدافع عنها جميع الهيئات الرياضية الدولية. كما يمكن للرياضة أن تلعب دورا هاما من أجل عالم أكثر أمنا ورخاء من خلال قيمها التعليمية لتساعد في التغلب على الانقسامات الثقافية والإثنية، وخلق فرص عمل، وتعزيز التسامح وعدم التمييز بحسب الجنس واللون والدين واللغة، وتعزيز التكامل الاجتماعي والصحي.

الهوامش:

[1] هناك العديد من المؤلفات التي تناولت تطور الألعاب قديما والتي اعتمدنا عليها في كثير من معلومات هذا المقال أهمها:

Jean-Paul Thuillier et Wolfgang Decker., Le Sport dans l'Antiquité - Egypte, Grèce et Rome Editions Picard – Antiqua, France, 2004 ; Olivova, V, sports and Games in the ancient world, Newhaven-Londres, 2004 ; Violaine Vanoyeke., La naissance des Jeux Olympiques et le sport dans l'Antiquité, Les Belles Lettres - Realia 2004..

[2] Bahn, P .G.. Cave Art: A Guide to the Decorated Ice Age Caves of Europe. F Lincoln, London. 2007 pp. 81–85 .

[3] Anne Cheng, Histoire de la pensée chinoise, Éditions du Seuil, coll, 1997, pp 02-10.

[4] كان نظام اليوجا - وهو مصطلح باللغة السنسكريتية (योग)- الفريد من نوعه يشمل تمرينات القوام والتنفس المنظم، وكان على كل من يرغب ممارسة هذا النظام أن يتبع برنامجا يشمل على أربعة وثمانون وضعا مختلفا للقوام، وكلمة يوجا تعني "اتحاد روح الإنسان بالآلهة. راجع:

Louis Renou, Grammaire sanskrite élémentaire, Paris 1978. pp 17.18.

[5] عبد اللطيف احمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهللادي، دار النهضة العربية، بيروت، 1976. ص 113 ايضا ;

Marrou Henri-Irénée , Histoire de l'éducation dans l'Antiquité, vol. I : Le Monde grec, Seuil, coll. « Points Histoire », 1981. p. 193 .

[6] الجمنزيوم هو المدرسة أو المعهد الرياضي عند الإغريق مارس فيه الرياضيون التدريب البدني، توفر فيه كل الإمكانات والأدوات الرياضية الخاصة بالألعاب الرياضية المعروفة لديهم. ظهر في القرن السادس ق.م، يشرف عليه رياضيون يختارون من القبائل المختلفة، من مهامهم الإشراف على سلوك الشباب

داخله، والجمنزيوم لم تقتصر وظيفتها على النواحي الرياضية بل تنمية النواحي الاجتماعية والخلقية والصحية، أما من مهامه الإدارية العناية بالصبيان والشباب ورعايتهم. وأيضا العناية بالتدريبات الرياضية إعداد المنافسين للمهرجانات، كالتدريب على العاب القوى ورمي السهام بالقوس... إلى جانب شؤون التدريب على استعمال السلاح..

[7] Violaine Vanoyeke, op cit, p. 89-97..

[8] محمد إبراهيم بكر، قراءات في حضارة الإغريق القديمة، الهيئة المصرية للكتاب، 2002، ص ص 131-134. أيضا لطفي عبد الوهاب يحي، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة ، الإسكندرية، 1991، ص ص 169-182.

[9] فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، من أقدم عصوره حتى 322 ق.م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1980. ص 61.

[10]Sweet W.E., Sport and Recreation in Ancient Greece, Oxford, 1987, p, 281.

[11] عبد اللطيف احمد علي،المرجع السابق ص 112. أيضا مقال: سيد الناصري، الألعاب الاولمبية، المجلة التاريخية، ج 21، 1974: ول ورايل ديورانت. قصة الحضارة. كتاب حياة اليونان، ترجمة محمد بدران ، بيروت، ص 224....

[12]فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص، 62: أيضا عبد اللطيف احمد علي، المرجع السابق، ص ،1976. ص 116.

[13] Young D. C., A Brief History of the Olympic Games, Oxford-M B.well, 2004, pp, 184-86 ; Golden M., Sport

and Society in Ancient Greece, Cambridge, 1998, p. 230..

[14] فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص، 63.

[15] الحقيقة وعلى مراحل تاريخ البشر ظهرت الثقافة الرياضة النسوية بأشكال مختلفة ومتباينة، أحيانا واضحة المعالم وأحيانا مبهمة وغامضة، وهذا وفقا لاختلاف المجتمعات البشرية في الثقافات والعادات والمعتقدات.. فالثقافة الرياضية النسوية لم تكن حق من حقوق الأفراد التي وجب احترامها وتنفيذها أو الاعتراف بها والتشجيع عليها. لأن التطور الحضاري الإنساني في العصور القديمة اعترى مفهوم ممارسة المرأة للرياضة والتداريب الجسمية فيها كثيرا من التطور المتدرج البطيء، لأن المتغيرات والمعتقدات الدينية والثقافية والفلسفات الفكرية والسياسية لعبت جزءا كبيرا في ذلك التباطؤ.

[16] رواه الإمام مسلم في صحيحه (2664).

[17] عبد اللطيف احمد علي، المرجع السابق، ص 116.

[18] Guttmann, Allen. The Olympics: A History of the Modern Games, 2002. Pp04-06.

[19]RIGATOS, G., Athlétisme et santé, la santé par le sport, traduction et notes par F.-J. Herr, Revue O Lychnos, N° 98, janvier 2004,p. 30-33 et n° 99, avril 2004, p. 45-49.

R. Lalka ka, "The Rôle of Sporting Goods Manufacture in Economic Development prepared for the United

[20]Nations Development Programme, presented at the International Olympic Forum for Development, June 1999, p. 12.

الدراسات التاريخية الجزائرية في حقل الوثائق الأرشيفية
كتاب: "الحرف والحرفيون لعائشة غطاس أنموذجاً"

أة/ ليلى غويني
جامعة علي لونيسي -البليدة-

الكلمات المفتاحية : الوثائق الأرشيفية – العهد العثماني – مجتمع مدينة الجزائر- فئة الحرفيين – منهج استقراء الوثائق – الملامح الاجتماعية والاقتصادية لمختلف شرائح المجتمع .

الملخص:

ترمي هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أهمية المصادر الأرشيفية التي تعود إلى تاريخ الجزائر العهد العثماني في دراسة التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي. إذ أخذنا دراسة الباحثة عائشة غطاس رحمة الله عليها في مجال الدراسات الوثائقية كنموذج لإبراز أهمية هذه المادة؛ حيث تطرقت الباحثة لدراسة الظاهرة التاريخية في جانبها الاجتماعي-الاقتصادي انطلاقا من الوثائق الأرشيفية فكان كتابها الموسوم بـ***"الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830 مقاربة اجتماعية –اقتصادية"***، على درجة كبيرة من الأهمية ويمكن أن يكون منهجاً للدراسات الأرشيفية في المستقبل.

ويمكن القول أن دراسة المؤرخة عائشة غطاس تعتبر من أهم ما كتب حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي بمدينة الجزائر في القرن السابع عشر، لاسيما وأنها اعتمدت على كم هائل من الوثائق المحلية (سجلات المحاكم الشرعية، و دفاتر التركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال الموجودة في المركز الوطني للأرشيف الجزائري) فقدّمت الملامح الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع مدينة الجزائر بشكل عام، وشريحة الحرفيين بشكل خاص، كما طبّقت الباحثة من خلال عملها التاريخي، منهجا علميا تاريخيا، غاية في الدقة العلمية ونموذجا يقتدى به في حقل الدراسات الأرشيفية، ومنه فتحت المؤرخة مسارا جديدا للباحثين الجدد في استقراء الوثائق.

Résumé:

L'étude socio économique de la ville d'Alger (**Dar Es Sultan** dans la période ottomane) peut etre menée par le biais **des archives** concernant une corporation d'artisans et gens de métiers de cette cité. Sur ce point nous disposons de beaucoup d'écrits , citons quelques uns :

-Registre du gouvernement turc de l'Algérie y incluant la traduction du registre appelé ***Daftar techrifat*** détaillant l'administration de la régence d'Alger avant 1830 l'un des plus important ouvrage -Registres des Arrêtés des Tribunaux islamiques et ***archives habûs d'El Baylic*** dont les manuscrits de l'époque sont conservés par Le Centre National des Archives d'Algérie.

Parmi les études intéressantes celle de l'historienne Aicha Ghéttas*".* intitulé "«***Artisanat et Artisans à Alger entre 1700-1830 Approche socio économique*** 'un des rares ouvrages sure ce sujet Ainsi nous apprenons comment l'apport de cette frange de population, a contribué par son savoir faire dans de multiples domaines à révolutionner la vie socio économique De la cité

Introduction de nouvelles techniques des arts décoratifs et du travail de l'émail, du cuir, de la construction navale , du bâtiment, apport à l'expansion de l'essor urbain de la ville d'Alger et de la préservation des édifices etc..et celà en sus de leur obligation à s'acquitter de l'impôt à la collectivité et d'assurer l'intendance del'Administration turque en divers services

En restituant avec autant de détail une tranche de vie de la Médina. et le soucis de ne livrer que des informations issues des sources pré citées en écartant toutes informations partielles ou partiales, on peut affirmer que l 'auteure nous a légué un recueil majeur (plus de 400 pages) et qu'à ce titre il faut lui rendre un hommage à la mesure de l'effort de recherche consentie.

تمهيد:

عرفت المدرسة التاريخية خلال العقد السادس من القرن الحالي مسارا جديدا، وتوجها حثيثاً نحو دراسة تاريخ الشعوب العربية، ونعني بهذا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجتمعات العربية في الفترة الحديثة. ومن ثمة كان البحث عن مصادر جديدة تخدم هذا الغرض العلمي. ولعل أول مراحل هذه المهمة الشّاقة هو

استقراء المصادر المحلية بأصنافها، التي يمكننا اليوم استخدامها لمقاصد ومطالب تاريخية جديدة.

ونجد في هذا المجال سجلات المحاكم الشرعية التي أخذت تحتل مكانة مميزة بين مصادر تاريخنا، خاصة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي منه. وأول ما نستفيد من هذه السجلات أسماء القضاة وتواريخ جلوسهم للقضاء، كما أنها تعتبر أوثق مصدر للتَّعَرُّفِ على الأسعار، والأثاث، ونفقات الأزواج ومستوى المعيشة، وألقاب العائلات. وظهرت دراسات عديدة تبنّت هذا المنطلق الجديد، فساهمت بشكل واسع في الولوج إلى حياة المجتمع وفعالياته، وتجديد معارفنا حول المجتمعات العربية في الفترة العثمانية[1].

وتتوفر الجزائر، على غرار الولايات العثمانية، على رصيد زاخر من الوثائق الرسمية العائدة إلى الفترة العثمانية. ومن الإنصاف هنا أن نذكر أن من أوائل الباحثين في المدرسة الجزائرية الذين استخدموا هذه الوثائق، وأسهموا إسهاما كبيراً في التعريف بها، مما أدى إلى قفزة نوعية في دراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني: ناصر الدين سعيدوني[2]، و فاطمة الزهراء قشي[3]، ومنور مروش، وغيرهم. بالإضافة إلى مساهمات أخرى قام بها عدد من الباحثين في رسائل جامعية ساهمت في تسليط الضوء على المقاربات الاجتماعية والاقتصادية انطلاقا من الأرشيف.

أما الدكتورة عائشة غطاس التي جذبها موضوع دراسة الظاهرة التاريخية في جانبها الاجتماعي والاقتصادي انطلاقا من الوثائق الأرشيفية، فكان كتابها الموسوم بـ"**الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر** 1700- 1830 **مقاربة اجتماعية – اقتصادية**"[4]، على درجة كبيرة من الأهمية ويمكن أن يكون نموذجاً للدراسات الأرشيفية والاستفادة منها.

لقد قامت الأستاذة غطاس برصد التشكيلات التنظيمية والبنية الاجتماعية لهذه الفئة بناء على سجلات المحاكم الشرعية، ودفاتر التركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال الموجودة في المركز الوطني للأرشيف الجزائري[5]. فتمكنت من خلال ذلك من إبراز مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه الفئة، فجمعت هذه الدراسة بين التحصيل العلمي ومقاصد استثمار المصادر المحلية.

فكيف ساهمت في التعريف بأهمية هذا الرصيد التاريخي المهم؟ وإلى أي مدى عكست هذه الوثائق ملامح التفاعل الاجتماعي والاقتصادي في مدينة الجزائر؟.

1- سلسلة سجلات المحاكم الشرعية:

استغلت الباحثة في دراستها تقريبا على معظم سجلات المحاكم الشرعية، ويضم هذا الرصيد ثلاثا وخمسين علبة، تحتوي كل علبة على أزيد من مئة وثيقة أو أكثر، تخص مدينة الجزائر والمناطق المجاورة لها. وتغطي هذه السجلات فترة زمنية معتبرة حيث تمتد من النصف الأول من القرن السادس عشر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[6].

وتفيض سجلات المحاكم الشرعية بعقود (التحبيس، والعقود العقارية، وعقود البيع، والشراء، والقروض، والهبات، والوصايا، وعقود الزواج، والطلاق، والمرافعات والتركات)؛ وهذا ما يفسر لنا ثراء وتنوع هذا الرصيد. ولابد من الإشارة أن هذه السلسلة من الوثائق لا تخضع لترتيب كرونولوجي، ولا لأي تصنيف حسب طبيعتها وفحواها، ويعود هذا الخلط إلى ما تعرضت له الوثائق من إهمال وإتلاف على أيدي الاستعمار الفرنسي، إلى جانب الطريقة المتبعة في التدوين من قبل موظفي المحاكم وقتذاك، والمتمثلة في عدم اعتمادهم على الدفاتر أو السجلات واكتفائهم بالكتابة على اللفافات[7].

2- دفاتر التركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال:

تشكل دفاتر التركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال حيزا هاما من المصادر التي استغلتها الباحثة في دراستها وانطلقت من أقدم الدفاتر المحفوظة بالمركز الوطني للأرشيف الجزائري، التي تعود إلى الفترة الممتدة من 1111هـ/1699-1703م وهو تحت عنوان **"دفتر المخلفات الموضوعة ببيت المال من التراك (كذا) التي لا وارث لها والتي فيها حظ لبيت المال"** وقد اعتمدت على حوالي خمسة دفاتر: الأول يخص أواخر القرن السابع عشر أوائل القرن الثامن عشر، أما الدفاتر الباقية فتغطي الفترة الممتدة من 1785-1826م.

وتكتسي دفاتر التركات الصادرة عن هيئة بيت المال أهمية بالغة في الكشف عن جوانب هامة من المعطيات الإحصائية حول الممارسات المالية والاجتماعية للأفراد الذين يتوفون ولم يخلفوا عاصبا، أو هاجروا فيعدون بذلك في عداد الموتى[8].

3- سجلات البايليك:

كما رجعت الباحثة في عملها إلى دفاتر سلسلة البايليك، ولهذه الأخيرة أهمية قصوى، إذ تُطْلِعُنا على الواقع المادي وبشكل خاص النظام الضريبي، وعلى إحصاء للعقارات الموقوفة بالمدينة[9].

وتجدر الملاحظة إلى أن الاعتماد الأساسي في هذه الدراسة كان على المصادر الرسمية السالفة الذكر، إلا أن الباحثة لم تهمل الرجوع إلى مصادر الفترة، كمخطوط **قانون الأسواق** الذي أفاد في تسليط الضوء على آليات السوق بالمدينة[10]. وعلى دراسات متخصصة خاصة الغربية منها مما جعلها تصحح مفاهيم تاريخية عديدة سيأتي التنويه بها.

* منهج الباحثة غطاس في استقراء الوثائق الأرشيفية:

لقد أتاحت عملية الفرز والتمحيص، والقراءة المنهجية للمصادر المحليّة التي قامت بها الباحثة للمصادر الأساسية أن ترسم صورة للأوضاع التي عاشها مجتمع مدينة الجزائر، خصوصاً ونحن نفتقر إلى دراسات تعكس الصورة الحقيقية لواقع مدينة الجزائر بصفة خاصة، و المجتمع الجزائري بصفة عامة في هذه الفترة، في ظل ما كتبه المؤرخون الغربيون في إعطاء صورة قاتمة لهذه المجتمعات التي خضعت إلى سلطة الدولة العثمانية.

ولاستشراف صورة الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمدينة الجزائر، توجهت الباحثة في دراستها إلى هيكلة الموضوع ضمن محاور أساسية استطاعت من خلالها تتبع الحرف وصاحب الحرفة وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

المحور الأول: دراسة مجتمع المدينة:

يعتبر هذا المحور توطئة نظرية تقوم عليها بقية المحاور، حيث تطرقت الباحثة إلى موضوع التركيبة السكانية لمدينة الجزائر، خصوصا أن هذه الأخيرة عرفت سمات جديدة نتيجة التحولات التي شهدتها المنطقة في القرن السادس عشر.

وقد تناولت دراسات غربية عديدة لموضوع التركيبة السكانية، وصنفتها تصنيفا هرميا بحسب الرتبة الاجتماعية (حضر، كراغلة، أعلاج، برانية، مغاربة، يهود، عبيد ...).أما المتتبع للتصنيف الذي قامت به الباحثة لمختلف الفئات المذكورة ومميزاتها في الفترة؛ يجده أكثر دقة من حيث المعطيات الإحصائية، وهذا راجع لاستقرائها الوثائق الرسمية. فاستنادا إلى دفتر المخلفات[11] الصادرة عن بيت المال قدمت نسب ورصد المنخرطين في المؤسسة العسكرية من العنصر التركي و العنصر الكريتي والأرناؤوطي أو الألباني، ووضّحت ذلك بمنحنى تزايدهم خلال الفترة مابين 1699-1826 م[12]، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

تبين للباحثة من خلال استقرائها لسجلات المحاكم الشرعية[13]، ودفاتر المخلفات[14] معطيات كمية أبرزت إسهام الأعلاج أو المهتدين في نشاط الغزو البحري، الذي عرف تناقصا ملحوظا وأضحى منعدما تقريبا في أواخر القرن الثامن عشر [15]. فيما يخص فئة الكراغلة التي تقل المعلومات عنها في الوثائق ماعدا ما عثرت عليه الباحثة في سجل سلسلة البايلك[16]، التي ورد بها أسماء عديدة تأكد هوية هذه الفئة[17].

أما حول الفئة الوافدة على مدينة الجزائر، أو ما تعرف اصطلاحا **بالبرانية** فقدمت الدراسة معطيات تاريخية دقيقة هامة حول أصولها وممتلكاتها وهذا راجع لوفرة المادة في سجل المخلفات[18]. كما أوضحت من خلال عقود البيع والشراء والتحبيس، وعقود الكراء الفئة الأكثر امتلاكا للعقارات بالمدينة و هم البساكرة[19].

ومن وثائق المحاكم الشرعية، ودفتر التشريفات ومخلفات التركات[20]، تناولت الباحثة مختلف الشرائح الاجتماعية وأظهرت الجانب التنظيمي لمدينة الجزائر والهيئات المسيرة لها، وهي: **مشيخة البلد:** التي ظهرت في عائلات توارثت هذا المنصب مثل عائلة التمتام، بوضربة، بن الفقير[21] وغيرهم .و**موظفو النظام العام:** مثل المحتسب، المزوار، و**موظفو الخدمات العمومية**: مثل القاضي، وبيت المالجي، ومشرف الأوقاف ونقيب الأشراف.

المحور الثاني: أهل الحرف في مدينة الجزائر:

يعتبر هذا المحور جوهر الدراسة وللإلمام بكل ملامح التنظيم الحرفي تطرقت الباحثة إلى:

- **الجماعات الحرفية:**

اعتمدت الباحثة لدراسة هذه الفئة على وثائق المحاكم الشرعية وعلى سلسلة بيت المال، وبوجه خاص على دفاتر التركات، نظرا إلى ما تحتويه من أخبار عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية؛ فأحصت ما يربو عن مئة حرفة في المدينة[22] .

أما عن القائمة الحرفية بالمدينة فقد قدم لها مخطوط قانون الأسواق، ودفتر التشريفات الذي يعود إلى أواخر القرن السابع عشر على قائمة اشتملت على سبعة وعشرين أمينا، فضلا عن خمسة أمناء لهم صلاحيات التنظيم الخاص بالوافدين على المدينة (البرانية) [23].

ومن التقاليد الراسخة لدي التنظيمات الحرفية وراثة الصنعة في العائلة الواحدة على امتداد جيلين على الأقل[24]، واستطاعت الباحثة تتبع عدد من العائلات الحرفية التي توارثت النشاط الحرفي أبا عن جد، مثل عائلة المليح في العطارة، وعائلة بوعينين في صناعة المنسوجات الحريريّة، وعائلة ابن حمادوش في الدباغة[25].

■ **الهيكل التنظيمي لجماعة الحرفة:**

كان يخضع هذا التنظيم لنظام داخلي محكم بشكل هرمي يتصدره أمين الأمناء[26] ، ويظهر من خلال استقراء لمجموعة الاتفاقيات والعقود الواردة في وثائق المحاكم الشرعية نقطة في غاية الأهمية، مفادها وجود خاصية المحافظة على هذا المنصب داخل العائلة الواحدة، فقد توارثت عائلة الشويهد منصب أمين الأمناء من أوائل القرن السابع عشر إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر[27].

وأما فيما يخص منصب الأمين الذي يمثل السلطة العليا للحرفة ورمز جودتها، فلم يكن منصباً متوارثا في الأسرة الواحدة، بل كان ينتخب من طرف أهل الحرفة ممن يتوسمون فيهم حسن الأخلاق والأمانة، ورغم الغموض الذي يكتنف ظروف تعيين الأمين إلاّ أنّه لا يصبح نافذا إلا بعد موافقة أعلى السلطة في الدولة (الباشا أو داي) وإقرارها بحضور القاضي[28] ،إلا أنه بالرجوع إلى الوثائق على اختلاف أنواعها، نجد بعض الحالات القليلة جدّا توارث فيها الأبناء هذا المنصب عن آبائهم، مثل عائلة التغري وعائلة البعلاوي، وعائلة ابن تعايست...[29].

ومن مخطوط قانون الأسواق وكذا وثائق المحاكم الشرعية عرفنا بوجود مساعدين للأمين يختارون من فئة المعلمين منهم :الشاوش، والخوجة، والكاهية؛ واستطاعت الباحثة رصد بعض أسماء هذه الفئة ودورهم في السوق.

وحتى الحرفة بذاتها عرفت سلما هرمياً استشفته الباحثة من مختلف الوثائق مثل الأمين الذي له دور الرقيب على الصنعة وجودة البضائع، كما كان له دور الخبير لدى المحكمة يقوم بالتقويم ومعاينة السلع .أما الْعَلَم فهو صاحب الحرفة ومتقن الصنعة ورئيس الورشة يشغل تحت أوامره الصناع. يليه الصانع الذي يحسن الصنعة ولكنه لم يكتسب مهارته، ويشكل الصناع أعلي نسبة من الشغالين في الورشة، ويأتي في أسفل الهرم المُتَعلم وهو المبتدئ في الصنعة[30].

ونلاحظ مما سبق أن نظام السوق كان محكما مما جعل قواعد الانضباط في أسواق الحرفيين تمشي في شكل منظم، وفي حصانة قانونية، وهذا ما حافظ على حقوق العامة لجماعة الحرفيين.

■ **الصناعة ومميزاتها:**

أولت الباحثة عناية خاصة لدراسة أهم صناعات الفترة، بهدف إظهار السمات البارزة للصناعة الجزائرية وعليه قامت بمسح الشامل لدفاتر المخلفات[31] فخرجت بمعطيات هامة أفادت أن صناعة نسيج الحرير كانت أكثر إنتاجا، وعرفت ازدهارا ورواجا، ويعود ذلك للتحولات التي شهدتها المبادلات التجارية الدولية ابتداء من القرن 17م، حيث حلت مادة الحرير محل بضائع أخرى، وحافظت هذه الصناعة على ازدهارها إلى العقد الأخير من القرن 18م، ثم عانت من بعض المشاكل، إلا أنها ظلت إحدى أهم الصناعات الجزائرية.

ولم تغفل الباحثة عن ذكر أسماء أهم العائلات التي تولت أمانة جماعة الحراريين مثل عائلة الحاج علي وعائلة ابن محمد بن غزالة. وقد أشيد بمهارة وحدقة حرفي مدينة الجزائر في مجال صنع المنسوجات الحريرية وما يتفرع عنها من صناعة المناديل والأحزمة الحريرية بشكل خاص الحمراء و المرصعة بالذهب التي عرفت بالحزام الشاوش والحزام القشوشة[32].

وتُظهر المعطيات الإحصائية التي قدمتها الباحثة حول ترتيب الحرف على أن حرفة الحفافة –الحلاقة- كانت رائجة واحتلت المرتبة الثانية، بعد حرفة نسيج الحرير، ونالت حرفة القهوجية المرتبة الثالثة، أما صيد السمك وبيعه أخذ المرتبة الرابعة مع بيع الخضر والفواكه[33].

وألمّت الدراسة بكل ما يخص الصناعة وأهلها، فمن خلال استقراء الوثائق تبين إسهام جل الشرائح الاجتماعية في الحياة الحرفية بالمدينة، عكس ما ذكرته المصادر الغربية أن فئة البرانية هي الشريحة الوحيدة المحتكرة للصناعات، وإن كان لهذه الفئة دور هام في حياة المجتمع، فإن كل شرائح المدينة شاركوا في مجالات الإنتاج والتسويق. فقد كان الحضر والأشراف من جماعات العطارين والحراريين والخياطين، وعُرف العنصر الأندلسي بحرفة البناء حيث أسندت لهم معظم أعمال البناء لإتقانهم في هذا المجال، كما أطلعتنا الوثائق نسب وأسماء أفراد الجيش ممن امتهنوا بعض الصناعات كالحلاقة وصناعة الأحذية[34].

المحور الثالث: الوجه الاقتصادي والاجتماعي للمدينة

أ.مستويات المعيشية لدى الحرفيين

يمكن القول أن الباحثة في هذا المحل استطاعت أن ترسم أوضاع الحرفيين المادية من خلال تتبعها لوثائق مخلفات التركات لأهل الصنائع والحرف، فتبين لها الفروق الجلية والتفاوت الحاد في مستويات الثروة فالبعض عاش فقيرا واقتصرت تركتهم على ريال واحد أو ريالين، بينما خلف البعض الآخر تركات هامة نسبيا تنوعت بين الممتلكات العقارية والمصاغ. وللاستشهاد إلى ما وصلت إليه الدراسة من إحصائيات لمستويات ثروة الحرفيين تبين أن ثروة حرفة الحرير احتلت المركز الأول لفترات 1799-1803م/1807-1817م/1817- 1826[35].

كما توضح من خلال استقراء الوثائق التباين في الثروة حتى في الجماعة الواحدة للحرفة فاتضح أن أمناء الحرفة كانوا متميزين اقتصاديا فمثلا في الفترة الممتدة من 1787-1803م- وهي مرحلة حظيت نسبيا بغزارة الوثائق - أن سبع تركات تراوحت فيها الثروة مابين أربعة وثلاثين وسبعمائة ريال وهى الثروة المخلفة عن أمين الدباغين المتوفى سنة 1787م [36].

أما عن رصد الباحثة لمستويات ثروات مؤسسة الجيش، وطائفة الرياس فقد قدمت جداول دقيقة مصدرها دفاتر التركات، وفيما يخص جماعة البرانية فتبين أنها الفئة الأكثر حرمانا في المجتمع فكانت مخلفاتها بسيطة جدًا[37].

وإذا كانت التركات تعرفنا بالثروة المخلفة عن المتوفى مما يسمح لنا بدراسة مستوى الثروات، وهو أمر في غاية الأهمية؛ فهي أيضا تعكس لنا شتى مظاهر الحياة المادية للفرد من الباسطة والرفاهية. وتطلعنا على الممارسات الاقتصادية والاجتماعية كالثروة الموظفة في تأثيث البيت، وأنواع الملابس، ومسمياتها في ذلك العهد كالبرنوس، والبدعية، والغليلة، والعمامة، والحزام، وغيرهم .كما أوضحت الدراسة للتركات أن الأثرياء كان لباسهم متنوعا، يزيد عن ثمانية عشر قطعة، بينما اقتصرت بعض مكونات اللباس لدى الحرفين البسطاء على قطعة واحدة[38].

أما حول الثروة الموظفة في الميدان العقاري، فبينت القراءة منهجية عقود التحبيس الصادرة من سلسلة البايلك السجل رقم:(44) أن عددا من الحرفيين كان بحوزتهم بساتين بالفحص وهي المعروفة بالجنان فمثلا اتضح أن حرفتي العطارة والبناء

التي عرفت استقرارا ماديا ملحوظا في القرن 17م، مما أتاح لها الاستثمار في المجال العقاري[39].

ب.نظام الضرائب

وحول النظام الضريبي توجهت الباحثة إلى استقراء وثائق دفاتر السلطة أي سجلات البايلك ودفتر بيت المال، ودفتر التشريفات، وكذلك مخطوط قانون الأسواق، واعتمدت بشكل خاص على سجلات حسابية للنظام الضريبي من سجل بيت المال على سبيل الاستشهاد بالضرائب المفروضة على الكواش للسنوات التالية: 1731-1743م/1750-1756م.

وتبين بعد التمحيص وغربلة الوثائق أن صلاحيات الإشراف على النظام الضريبي كان يرتكز على ثنائية، أحد طرفيها بيد شيخ البلد الذي كان ملتزما بجباية الضرائب المستحقة من الجماعات الحرفية ويقدمها إلى الخزينة مرة كل شهرين بعدما يقتطع راتبه منها[40]، و الطرف الثاني بيد أمناء الجماعات وعرفت هذه الضريبة بضريبة البشماق أو "الحذاء" التزام أمناء الجماعات الحرفية بتقدمها سنويا، حيث قدمت الباحثة قائمة ضريبة أمناء المرتبة حسب القيمة المالية للضريبة لسنة 1103هـ/1691م[41]. وأشارتْ إلى دور السلطة في الرقابة المستمرة لتحديد سقف الأسعار وفرض الضرائب وتحديد تموين الحرفيين.

و بناء على المصادر المحليّة الّتي رجعت إليها الباحثة استخلصت التّوزيع التّبوغرافي للأسواق بالمدينة، ونظام التّخصيص فيطلق أسماء الأسواق بحسب الحرف، مثل: سوق الخيّاطين و سوق الدّبّاغين، و سوق الحرّارين ... وهو نظام امتازت به جلّ المدن العربيّة بوجه عام، و اتّضح للباحثة أنّ هذا النّظام حتّى وإن كان ساري المفعول بمدينة الجزائر إلاّ أنّها عثرت على وثائق تفيد وجود نشاطات أخرى بالأسواق لا تمدُّ بصلة بتخصّص السّوق مثل: وجود حانوت الخضر بسوق الكتّان، و حانوت الحفّافة بسوق الشّمّاعين[42].

وفيما يتعلق بعدد الأسواق ورغم شحّة الأخبار في مصادر الفترة فإنّ الباحثة استندت بالوثائق الأرشيفية لإزالة هذا الغموض وخرجت بقائمة عدديّة لأسواق مدينة الجزائر تتمثّل في واحد وخمسين سوقا متعدّدة الاختصاصات، وتكمن أهمية هذه الدراسة أيضا في وضع خريطة لتوزيع النّشاطات الحرفيّة من أماكن الحوانيت في حومات المدينة والفنادق والرّحبات، ونظام الحراسة في الأسواق[43].

ج.الحياة اليومية في مدينة الجزائر

عرجت الباحثة في دراستها للحياة اليومية بمدينة الجزائر على التنويه بأماكن الإقامة وتحديد حومات الحرفيين، وفي محاولة لإعادة تركيب توزيع السكان داخل المدينة، وتحديد خصوصيات هذا التوزيع حددت الباحثة المادة والمنهج المتبع في دراسة هذه النقطة، فاستندت إلى ثلاثة مصادر أساسية: المصدر الأول سلسلة المحاكم الشرعية التي تظم عقود التحبيس وعقود البيع والشراء، وأوضحت ضخامة عدد رسوم التحبيس مقارنة بعقود البيع والشراء. المصدر الثاني سلسلة سجلات البايلك وفرت المعلومات حول قضايا الوقف من إحصاءات وحسابات وما إلى ذلك و كذلك وثائق بيت المال بوجه خاص دفاتر المخلّفات.

و للإشارة أنّ المصدر الأوّل والثّاني أتاح التّعريف على المالكين وعلى هويّاتهم ونشاطهم، أمّا المصدر الثّالث فإنّه يشير إلى عناوين المتوفّين وإلى الثروات المخلّفة عنهم، ومن الكم الهامّ من الوثائق السّابقة الذّكر استخلصت الباحثة النّسيج الاجتماعي لمختلف شرائح المدينة، إذ بيّنت أنّ التّوزيع السّكّاني عبر حومات المدينة لا يخضع لأسس مهنيّة أو عرقيّة، فقد أقام الأتراك بالمدينة العليا (الجبل) بحومة القصبة و غيرها، ولم يُخصّص للبرّانيّة حي خاص بهم، فالجيجليّون سنحت لهم أوضاعهم الماديّة امتلاك عقّارات بحومات مختلفة ومن الملاحظ أيضا أنّه ليس ثمّة أي تعارض بين الثّراء والكثافة السّكّانيّة فعدّة حومات كانت ذات كثافة سكّانيّة عالية تميّزت بالطّابع الأرستقراطي كحومتي "باب السّوق" و "حمّام المالح" و يلاحظ أنّ الكثافة السّكّانيّة بمدينة الجزائر تسير نحو النّقصان من الأعلى إلى الأسفل إذ تميّزت منطقة الجبل بكثافة سكّانيّة عالية. ولم يخضع هذا التّوزيع إلى ثنائيّة معيّنة حضر/ أتراك، حضر/ برانيّة، مسلمون/ أهل الذمّة، إنّ أهمّ مميزات اختيار الإقامة والجوار في مجتمع مدينة الجزائر هو الانسجام الكبير بين القاطنين[44].

كما تطرقت الدراسة إلى تبيان أهمية عقود الزواج والطلاق، التي نتعرف من خلالها على مختلف أنواع المهور ومكوناتها، والممارسات الاجتماعية السائدة آنذاك، وكذا صلات المصاهرة القائمة وقتئذ في مجتمع مدينة الجزائر. وعليه أولت الباحثة اهتماما كبيرا لدراسة شبكة العلاقات والتحالفات القائمة بين شرائح المدينة واستندت في ذلك، إلى مدونة من عقود الزوج و الطلاق المحفوظة ضمن سجلات المحاكم الشرعية التي تضم أربعة وثلاثين ومائة عقد زواج وعشرة ومائة عقد طلاق تغطي فترة مابين 1703-1854م،

وأخذت بعين الاعتبار عدم لجوء بعض أفراد المجتمع إلى المحاكم لتسجيل عقود الزواج أو الطلاق، فرجعت الباحثة أيضا إلى عقود التحبيس وعقود البيع والشراء والتركات وغيرها التي تحوي أخبار هامة حول دوائر المصاهرات[45] .

ومن خلال الوثائق سالفة الذكر؛ يمكن القول أنها توصلت إلى كشف إستراتيجية المصاهرة في مجتمع المدينة التي لم تقم على عامل القربة بقدر ما قامت على عامل الانتماء الفئوي، وعرجت الباحثة على تحليل شبكة المصاهرة ضمن كل شرائح المجتمع منها دائرة المصاهرة لدى فئة النخبة، وداخل مؤسسة المشيخة وعند العلماء والأشراف، وضمن الجماعات الحرفية التي خصتها بالتفصيل، فتطرقت لدراسة المصاهرة داخل الجماعة الواحدة .

و تبين أن المصاهرة مثلا داخل مؤسسة مشيخة البلد كانت ترتكز على الحفاظ على المنصب بشكل خاص، أما فئة العلماء فقد وسعت دائرة المصاهرة بحيث شملت الجيش و فئة النخبة والأشراف وغيرهم، في حين أظهرت الدراسة التحليلية للوثائق أن فئة الحرفية لم تنحصر لفئة معينة، ولم تضيق دائرة المصاهرة داخل الجماعة الواحدة، بل تجاوزتها حيث أقيمت زيجات بين عائلات حرفية مختلفة النشاطات[46].

كما بينت الدراسة أن شريحة الحراريين بشكل خاص انفردت بممارسات متميزة عن باقي الجماعات الحرفية، حيث اختار هؤلاء مصاهرات وفق اتجاهين: الأول يشمل الانتماء الحرفي بمعنى داخل الجماعة نفسها، وهذا قصد تحقيق النفوذ والهيمنة الاقتصادية، أما الثاني فكانت ضمن إستراتيجية الانتماء الارستقراطي الديني والمدني[47].

ولا يمكن دراسة المصاهرات والزواج دون التطرق للصداق الذي يعتبر مؤشر هام للمستوى المعيشي للفئات الاجتماعية وتوصلت الدراسة إلى معطيات كشفت مكونات الصداق وقيمتها المادية، عبر الفترة المدروسة.

وخرجت الدراسة باستنتاج هام أن ظاهرة الثراء الفاحش بمدينة الجزائر كانت قليلة، وأن فئة كبار الموظفين والتجار هم أكثر فئة ثراء في المجتمع، وأما فئة الحرفيين فمثلت الطبقة الوسطى الميسورة الحال – مع تفاوت بين كل حرفة[48].

وفي الأخير يمكن القول أن دراسة المؤرخة عائشة غطاس تعتبر من أهم ما كتب حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي بمدينة الجزائر في القرن السابع عشر، لاسيما وأنها اعتمدت على كم هائل من الوثائق المحلية التي تعتبر وثائق "**مجردة**"، حيث أخضعتها

لاستقراء فاستخرجت الملامح الاجتماعية واقتصادية لمجتمع مدينة الجزائر بشكل عام، وشريحة الحرفيين بشكل خاص، كما طبقت من خلال عملها التاريخي منهجا علميا تاريخيا، غاية في الدقة العلمية ونموذجا يقتدى به في حقل الدراسات الأرشيفية، ومنه فتحت المؤرخة مسارا جديدا للباحثين الجدد في استقراء الوثائق.

الهوامش:

[1] من أهم الدراسات العربية في المجال الأرشيفي نذكر:-الساحلي،خليل أوغلي، "سجلات المحاكم الشرعية كمصدر فريد للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، المجلة التاريخية المغربية،تونس،العدد الأول،جانفي1974م،ص ص،25-32، وعبد الودود محمد يوسف، "سجلات المحاكم الشرعية كمصدر أساسي لتاريخ العرب في العصر العثماني"، المجلة التاريخية المصرية،المجلد التاسع عشر، 1972م، ص ص،325 -335، ورفعت أبو الحاج، "منطلقات نظرية في منهجية التاريخ الليبي"، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية،السنة الأولى،العدد الثاني،1979م،ص ص،25-83،وعبد الرحيم،عبد الرحمن، "الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة إبان العصر العثماني(1517-1798)من خلال وثائق المحاكم الشرعية"، أعمال الملتقى الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جزءان زغوان، 1988م،ص ص،477-499.

[2] سعيدوني ناصر الدين: -"نظرة حول الوثائق العثمانية بالجزائر ومكانتها في تاريخ الجزائر الحديث"، مجلة التاريخ، عدد4، السنة 1976م، ص ص، 135145، و"الكتابة التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر"، مجلة الثقافة،عدد45،سنة1978م، ص ص،25-45؛ و"موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغربية ،عدد57-58،سنة1990م،ص ص،157-173.

[3] قشي فاطمة الزهراء، قسنطينة المدينة والمجتمع في الصف القرن الأول من القرن الثالث عشر هجري، من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي،رسالة دكتوراه دولة، جامعة تونس1998م.

[4] الكتاب هو نسخة معدلة ومراجعة لأطروحة دكتوراه دولة ناقشتها الكاتبة بقسم تاريخ جامعة الجزائر عام 2002م.

[5] الأرشيف الوطني الجزائري الموجود ببئر خادم

[6] غطاس عائشة، "سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر-العهد العثماني"، مجلة انسانيات،عدد3،شتاء1997م،ص70.

[7] نفسه، ص،71.

[8] غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م مقاربة اجتماعية اقتصادية، منشوراتANEP، الجزائر ، 2007م، ص ص،12 -13.

[9] وضعت هذه السجلات من طرف السلطات الاستعمارية في السنوات الأولى التي أعقبت الاحتلال في إطار القيام بإحصاء الشامل للعقارات الموقوفة بالمدينة وخارجها. انظر: نفسه، ص 14.

[10] استعملت الباحثة: مخطوط، للمجهول، قانون الجزائر، النسخة الأولى رقم1607، والنسخة الثانية رقم: 1378، المكتبة الوطنية الجزائرية.

[11] اعتمدت الدارسة في هذا العنصر على دفتر التركات التالية: 4،35،44،49،54،58.

[12] غطاس، الحرف والحرفيون...، ص ص، 22-26.

[13] نفسه، ص27.

[14] بيت المال ،دفتر رقم:10،14،35،49،54،58،99،173.

[15] غطاس ،المرجع السابق، ص ص،27-28.

[16] مركز الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة البايلك، سجل رقم: 13و17و20.

[17] غطاس، المرجع السابق، ص ص،26-27.

[18] بيت المال، دفتر رقم: 10،22،23،35،58،63،80.وعلب المحاكم الشرعية رقم:59،143.

[19] غطاس ،المرجع السابق،ص ص،30-31.

[20] نفسه، ص ص،69-88.

[21] نفسه، ص ،ص،65،67،68 .

[22] نفسه، ص،111.

[23] نفسه، ص ص،108-109.

[24] من خلال عملية الفرز الكاملة التي قامت بها الباحثة لسجلات المحاكم الشرعية تتبعت توريث الحرفة لدى العائلة الواحدة للمزيد أنظر:نفسه،ص ص، 113-114.

[25] حول أسماء اسر التي توارثت الحرفة الواحدة أنظر:نفسه، ص ص،114-116.

[26] منصب أمين الأمناء هو وظيفة حكومية تجمع فيها بين عدة سلطات إذا هو المشرف المسؤول عن سجلات الحكومة الخاصة بالنشاط الحرفي وهو أيضا المسؤول عن النظام الضريبي الذي تخضع له جماعات الحرفية أنظر:نفسه، ص ص،229-230.

[27] استخلصت الباحثة مخطط بينت فيه توارت عائلة الشويهد كنموذج أنظر:نفسه،ص ص، 136-140.

[28] نفسه، ص ص، 143-148.

[29] نفسه، ص ص، 149-151.

[30] نفسه، ص ص، 152-162

[31] اعتمدت الباحثة على: دفتر المخلفات رقم10،54،58،106...، وعلى علب محاكم الشرعية 150 ،132، 26، 22، 16، 9...

[32] تطرق دراسات عديدة إلى الأنواع السلع في الفترة الحديثة من بينها: Venture de Paradis. Tunis et Alger au 17siécle .Paris 1983

[33] غطاس، المرجع السابق، ص،231.

[34] نفسه، ص ص، 232-255.

[35] نفسه، ص ص، 280-283.

[36] قدمت الباحثة عينات عديدة للمزايد أنظر:نفسه،ص ص، 284-886.

[37] نفسه، ص ص، 286-294.

[38] نفسه، ص ص، 294-298.

[39] للمزيد حول جداول التوزيع ملكية الحرفيين بالفحص .أنظر: نفسه، 299 -302.

[40] نفسه، ص، 175.

[41] نفسه، ص ص، 175-182.

[42] نفسه، ص ص 203-205.

[43] نفسه، ص ص،211،208-222.

[44] حول الحومات و التوزيع السكاني راجع فصل أماكن الإقامة من كتاب.أنظر:نفسه، ص ص، 313-339.

[45] نفسه، ص، 349.

[46] قدمت الباحثة نماذج عديدة حول المصاهرات الّتى بينت التحلفات الأسر من أجل السلطة أو علم أو دين،الثورة أو النفوذ للمزيد أنظر:نفسه،ص ص ،349-362.

[47] نفسه، ص ص، 359-361.

[48] نفسه، ص ص، 363-370.

سكك الحديد بتونس خلال الحماية الفرنسية

قراءة في نشاط الشركات الأجنبية (1880- 1920م)

أ/ دهـان سليمان

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -

الكلمات المفتاحية: سكك الحديد- الحماية – تونس – بونة قالمة – الاستعمار الاقتصادي- الشركات الأجنبية. :

الملخص:

تعتبر سكك الحديد من أكبر المجالات في قطاع المواصلات التي وجب دراستها من أجل فهم ميكانزيمات وآليات الظاهرة الاستعمارية في العالم، ذلك أن سكك الحديد تعتبر همزة الوصل بين المستعمر وهدفه الاقتصادي، المتمثل أساسا في استنزاف المواد الأولية من البلاد المستعمَرة، وتسهيل استثمار رؤوس الأموال الأوروبية في تلك الجغرافيا الجديدة، وهذه الورقة البحثية تحاول تسليط الضوء على واقع سكك الحديد بالبلاد التونسية، من خلال تبيان حقيقة نشاط الشركات التي استهدفت القطاع قبل الحماية الفرنسية وبعدها، وحقيقة الدور الذي جسّدته في المشروع الاستعماري الفرنسي.

Abstract:

The railway transport sector is one of the largest areas to be studied to understand the phenomenon of colonization in the world, Because The railway connecting the colonial state with its economic objectives is the geography that has been colonized throughand facilitate the transfer of raw materials from the colonial country, and facilitate the investment of European capital in this new geography.

This research talks about the status of railway in Tunisia before French protection andClarify the reality of the activity of foreign companies that have worked in this sector**,** nd the role it played in the French colonial project**.**

Key words:

Railway - Colonial protection-Tunisia – Economic colonization-Companies

- مقدمة:

يعتبر قطاع السكك الحديدة بمثابة الحبل السري للظاهرة الاستعمارية نظرا لأهميته في ربط البلد المستعمر مع مستعمره، عند قيام المستعمر باستنزاف ثروات الشعوب كان قطاع السكك الحديدية أكثر آلية فعالة لتحقيق أهداف المشاريع الاقتصادية الاستعمارية في البلدان المستعمرة في كل الأنحاء، ولم تكن البلاد التونسية بدعا من المستعمرات، فقد عرفت هي الأخرى تغيرات في هذا المجال عبر شركات أجنبية، استهدفته قبل الحماية الفرنسية سنة 1881، وبعدها على نطاق أوسع. والإشكال المطروح هنا هو كيف كانت وضعية قطاع السكك الحديدية بتونس قبل الحماية الفرنسية؟، وما طبيعة النشاطات التي جسدتها مختلف الشركات التي نشطت به، بعد أن أصبحت تونس تحت إدارة الحماية الفرنسية؟.

يندرج الحديث عن وضعية سكك الحديد بتونس قبل الحماية ضمن إطار الحديث عن مظاهر العلاقات التونسية مع البلدان الأوروبية، فلكون هذا القطاع ذا طابع اقتصادي، فقد شكل عدة ملامح من هذه العلاقات، التي امتزجت في التدخلات السياسية في شؤون تونس عبر الامتيازات الأجنبية.

- واقع خطوط السكك الحديدية قبل 1881:

تميزت العلاقات التونسية الأوروبية قبل الحماية الفرنسية بالتنافس الشرس بن الدول الأوروبية لافتكاك امتيازات ومشاريع اقتصادية ذات فوائد كبيرة، كان على رأسها قطاع سكك الحديد، وخير مثال على ذلك التنافس الذي حصل حول مشروع إنشاء سكة حديد تربط بين مدينة تونس– ومدينة حلق الوادي، وهذا منذ سنة 1854، إذ قدمت بريطانيا عرضا لإنشاء هذا المشروع، ورفضته حكومة الباي، لتنهال عروض أخرى على الحكومة التونسية في سنة 1859، من طرف كل من هولندا في 02 مارس، وفرنسا في 03 ماي 1861، والولايات المتحدة الأمريكية في 01 جويلية 1863، وعرض آخر من طرف إيطاليا في ديسمبر 1863، إلا أن كل هذه العروض رفضت، لعدم قدرة أي طرف منح ضمانات للفائدة التي ستجنيها الحكومة التونسية[1].

وفي نهاية المطاف، استطاعت بريطانيا أن تتغلغل عبر امتياز مشابه، وهو مدّ خط سكة الحديد من تونس العاصمة إلى الساحل بتاريخ 23 أوت 1871، ثم تمكنت من الحصول على الخط القديم (تونس- حلق الوادي)[2]، وهذا من خلال شركة رأسمالية تدعى شركة Edward Pickering نسبة لمالكها، وهو رجل صناعي، تحصل على كبرى المشاريع

في القارة الأوروبية[3]، لكن تثاقل أشغال الشركة الإنجليزية، بسبب تناقص رأس مالها هو الأمر الذي جعل قنصل فرنسا "روسطان"M. Roustan[4] يطلب من الوزير الأول التونسي خير الدين باشا أن يلغي هذا الامتياز، إضافة للضغط والتشويش الذي كان يقوم به شخص يدعى مصطفى بن سماعيل، الذي كانت تجمعه علاقة بالقنصل الفرنسي، والذي كان له خلاف مع الوزير الأول خير الدين، متحججا أن بريطانيا لم تعد تنجذب بقوة إلى تونس، ويجب منح الامتياز لفرنسا.

ودخل الإيطاليون على الخط لمنافسة الإنجليز والبريطانيين، وذلك عبر شركة "فلوريو روباتينو" وهي شركة كانت خاصة بعائلة روباتينو القاطنة بمدينة جنوة، ثم تحولت الى شركة رأسمالية[5]، وانطلقت في الأشغال بسكك الحديد بإيطاليا منذ 1851، من خلال إنشاء خط سكة حديد من جنوة باتجاه مدينة كالياري، لتقتحم بعدها السوق التونسية للمنافسة على المشاريع المعروضة للاستثمار من أجل الربح، بالإضافة إلى رغبتها في الحصول على الدعم المادي من الحكومة الإيطالية، التي كانت تنوي ربط مصالحها مع تونس، وهو ما جعلها تتلقى كل الدعم الحكومي، فأول مشروع قامت به تمثل في إنجاز خط تلغرافي بين تونس وحلق الوادي، مستغلة رغبة الحكومة الإيطالية وضع حد للاحتكار الفرنسي للمشاريع بتونس، وقام الإيطاليون بدعاية مفادها أنهم سيقومون بإنشاء شبكة تلغراف مستقلة بتونس تماما كالمتواجدة في إيطاليا، مع ربط الشبكتين بكابل بحري، ثم دخلت الشركة في مفاوضات مع الشركة الإنجليزية Edward Pickering التي كانت تعمل على مد خط سكة حديد بين تونس وحلق الوادي والمرسى، الذي واجه صعوبات ومشاكل في إنجازه فباعته لها في فيفري 1880، لتحصل الشركة الإيطالية على حقوق المشروع بعد مفاوضات ماراثونية بسبب رغبة الفرنسيين في شرائه من خلال شركة بونة قالمة النشطة بالشرق الجزائري حينها[6].

ـالتغيرات التي طرأت على قطاع السكك الحديدية بعد فرض الحماية الفرنسية:

عرف هذا المجال سيطرة أجنبية تامة عليه بعد فرض الحماية، والتي تعتبر بمثابة استمرار للواقع الذي فرض قبلها من خلال التنافس الخارجي، واحتكاره من قبل شركات أوروبية متنوعة، لكن التغير الذي حصل بعد 1881 تمثّل في تراجع النفوذ الإنجليزي الإيطالي لصالح الشركات الفرنسية، التي استحوذت على حقوق استغلال السكك الحديدية، وخلقها شبكة جديدة في كامل التراب التونسي، وهذا بما يتماشى مع مصالحها

الاقتصادية بالدرجة الأولى، وعلى رأسها استغلال مناجم المواد الأولية، كالفوسفات والحديد والزنك.

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الطرق الحديدية المشيدة والمفتوحة للحركة بطول 1600 كلم، وذلك في اتجاهات متعددة أهمها طريق تونس العاصمة، إلى حلق الوادي مرورا إلى المرسى، تونس نحو مدينة أريانة، تونس اتجاه بنزرت، "سوق العربة" نحو "عين الدراهم"، سوق العربة إلى الكاف، تونس إلى منوبة، تونس إلى مجاز الباب، تونس إلى سوسة، صفاقس إلى قابس، سوسة إلى المنستير والمهدية[7].

وفي مطلع القرن العشرين ازداد طول خطوط سكك الحديد المشيدة بـ930 كلم[8]، وهذا تحت إشراف المديرية العامة للأشغال العمومية، التي سلمت مشاريع السكك الحديدة لمجموعه من الشركات الفرنسية، وهذا دون حساب الخطوط التي قامت بمدها الشركات العاملة بالحقل الصناعي، واستخراج المواد الأولية، من أجل ضمان النقل إلى الموانئ، وفيما يلي أبرز شركات السكك الحديدية:

- نشاط الشركة الفرنسية بونة – قالمة:

تعتبر شركة بونة قالمة أكبر الشركات الأجنبية التي عملت بقطاع استغلال السكك الحديدية بتونس، تأسست في سنة 1875 لمدة مئة سنة، برأس مال 30 مليون فرنك، وتعتبر شركة بونة قالمة فرعا لشركة أخرى عملاقة وهي شركة البناء "باتيغنول[9]" Société de Construction des Batignolles وهي شركة فرنسية محدودة تأسست في 1846 من طرف شخص يدعى "ارنست غوان" Ernest Goiiin إذ قام هذا الأخير بفتح رأسمالها سنة 1872، لتصبح شركة رأسمالية محدودة، عملت بعدة مجلات أبرزها صناعة الجسور من مادة "الميتال"، ثم مجال الأشغال العمومية والبناء لتدخل مجال مد خطوط السكك الحديدية، مزاولة كل هذه الأنشطة مع بعضها البعض، وقد انطلق نشاط الشركة في فرنسا ووسط أوروبا[10] ثم انتقل نشاطها إلى الجزائر، وتحديدا في عمالة قسنطينة التي حصلت بها على عدة مشاريع، خاصة مد سكة الحديد نحو مناجم الونزة، التي تعتبر أهم منطقة معدنية في الشرق الجزائري لتبقى فيها مدة طويلة من الزمن[11].

وفي نفس الوقت انتبهت الشركة وهي تزاول نشاطها بهذه المنطقة إلى أهمية الخط الحديدي الذي يربط أبرز موانئ الشرق بونة وقالمة، بمنطقة تبسة الغنية بالفوسفات، الأمر الذي جعل الشركة ما بين سنتي 1875 إلى 1880 تقوم بتأسيس مجموعة صناعية عن طريق إنشاء فروع جديدة، يختص كل فرع بمزاولة نشاط معين، وهنا انبثقت عنها

شركة بونة قالمة التي عملت بالتراب الجزائري بادئ الأمر، ثم بدأت تدخل إلى التراب التونسي من خلال الحصول على مشاريع سكك حديد من حكومة البايات، لتوسع نشاطها بتونس أكثر من الجزائر بعد فرض الحماية سنة 1881م[12].

تركّز نشاط الشركة بتونس إجمالا على الشمال من خلال المشاريع التي سبقت الحماية وتحديدا الخط الحديدي الذي يربط تونس العاصمة بغار الديماء على الحدود الجزائرية بطول 220كلم، والذي حصلت على امتلاكه والإشراف عليه بعد الحماية[13]، أما الجنوب التونسي فكان من نصيب شركة سكك الحديد والفوسفات لقفصة التي كانت أكبر شركة لمد سكك الحديد هناك، وذلك لتوفر الفوسفات بقفصة.

بدأت نشاط شركة بونة بصورة كبيرة وقوية بتونس في سنة 1892 بعد أن قدّم السيد M. Michaud المدير العام للأشغال العمومية بتونس مسودة مشروع إنشاء شبكة لسكك الحديد يبلغ طولها 1259 كلم للربط بين كبرى المدن التونسية، إضافة لبعض الطرق الفرعية، وفي 12 أكتوبر 1892 منحت حكومة الحماية لشركة بونة قالمة امتياز إنجاز هذا المشروع، وأمضت معها اتفاقيتين لإنجاز مجموعة من السكك هي كالآتي:

مد سكة حديد تربط مدينة تونس بسوسة مرورا بفحص تونس، وخط من سوسة إلى القيروان، ومن سوسة إلى "مقنين" على أن يمدد إلى صفاقس فيما بعد، ومن سوسة إلى نابل، ومن تونس إلى حمام الأنف للمرور إلى "منزل بوزلفة" و"القليبية"، تم الانتهاء من الجزء الذي يربط تونس بالجديدة بعد سنتين من انطلاقه أي في1894م، وفي ما يخص بقية الطرق منحت حكومة الحماية مدة خمسة سنوات إلى الشركة لإنجاز المشاريع واستكمالها[14] على أن تحصل الشركة على 1750 فرنك على الكلومتر الواحد بتكلفة عامة بلغت 5.600.000 فرنك مع إمكانية زيادة 400.000 فرنك، كميزانية تكميلية للمشروع إن اقتضت الحاجة ذلك، وتم الاتفاق أيضا على جملة من المشاريع التي ستنجز مستقبلا وهي الخط الحديدي الرابط بين تونس وسوسة، عبر النفيضة وزغوان، مرورا بسهول الفحص الزراعية، والخط الثاني يربط سوسة بالقيروان مرورا بسيدي الهاني، والخط الثالث من سوسة إلى "مكنين" مرورا بـ"مساكن"، والخط الرابع يربط تونس بسوسة لكن عبر الخليج فيمر بالقليبية ونابل والحمامات، مخالفا الطريق الأول، وقد خصص لهذه الخطوط الحديدية الجديدة غلاف مالي يفوق 18 مليون فرنك، فالخطان الأول والثاني قدرت تكلفتهما 10.984.580فرنك، أما الخطوط المتبقية فقدرت التكلفة بـ7.200.000 فرنك[15]، وانطلقت بتجسيد هذه المشاريع مباشرة، وعرفت تقدما في عدد الكلومترات المنجزة سنة تلو الأخرى على مستوى كل الخطوط التي استهدفتها، فقد افتتح الخط

الرابط بين حمام الأنف ونابل المار عبر "منزل بوزلفة" في 1895، وفي نفس السنة تم الانتهاء من الخط الذي يمتد من سوسة إلى النفيضة على امتداد 52 كلم، كما تقدمت الأشغال في إنجاز محطات القطار في كل من تونس العاصمة وسوسة لاستقبال المسافرين والتجار أصحاب البضائع لتنتهي به الأشغال في 1897، وهي ذات السنة التي استكمل فيها خط تونس العاصمة بزغوان، والخط الرابط بين سوسة والقيروان، وبذلك تكون الشركة قد أوفت بكل التزاماتها التي نص عليها اتفاق 1892 القاضي بالانتهاء من كل المشاريع وتسليمها إلى الحكومة التونسية خلال خمس سنوات أي في1897م[16].

في ظل تقلص النفوذ السياسي الإيطالي بتونس تمكنت شركة بونة قالمة من شراء امتياز استغلال الخط الحديدي الرابط بين تونس العاصمة وحلق الوادي من الشركة الإيطالية "فلوريو روباتينو" في سنة 1898بمبلغ ضخم يقدر 7.500.000 فرنك بعد 18 سنة من الاستغلال هذه الأخيرة له، مع ضمان فائدة الحكومة الإيطالية[17]، وهذا بعد معاناة الشركة الإيطالية من مشاكل مالية[18]، واتهمت شركة بونة- قالمة الإيطاليين بالتلاعب بعقود بيع هذا المشروع من خلال تبني الحكومة الإيطالية للعملية نيابة عن مالكها، فأصبح البيع رسميا حكوميا لا فرديا خاصا، إضافة لضمان الفوائد المالية للحكومة الإيطالية بعد عملية البيع[19].

كما طورت الشركة من نشاطها عن طريق دخول مجال الاستثمارات الثنائية مع أطراف أخرى أغلبها الشركات العاملة بقطاع المناجم وذلك بقيامها بتوفير خدمة النقل من المناجم إلى مختلف الموانئ البحرية، وركزت على الشركات العاملة باستخراج الفوسفات لكونه أكبر معدن استهدف بتونس كلها، فكانت الخطوط الحديدية للشركة توصله إلى ميناء بونة الجزائري وميناء صفاقس في الجنوب التونسي، وميناء تونس العاصمة فيما بعد، وذلك عبر اتفاقيات مشتركة مع شركات استغلال المعادن التي انتشرت في كل البلاد التونسية[20].

وفي أقصى الشمال قامت الشركة بربط ميناء بنزرت بخط سكة الحديد المتجه إلى منطقة الجديدة ابتداء من مارس سنة 1894م[21]، ودخل هذا الخط الخدمة في الأول من نوفمبر من ذات السنة، بتسعيرات متفاوتة بين النقل الأفراد ونقل البضائع[22]، وزادا توسع نشاط الشركة في العقد الثاني من القرن العشرين بدخول عدة خطوط حديدية الخدمة ابتداء من سنة 1914 منها الخط الرابط بين "ماطر" و"نبر"، إضافة إلى مد العديد من الامتدادات لخطوط منجزة من قبل، وهذا إما لتقريب المناطق العمرانية أو لمستلزمات نقل المواد الأولية التي تطلبها الشركات العاملة بذلك القطاع منها إضافة 38

كلم إلى الخط الحديد الذي ينتهي في مجردة، وإدخال بعض الإصلاحات للأخطاء التي وقع فيها الطوبوغرافيون في إنجاز خط تونس سوسة، وهذا بعد أن ظهرت عيوبه بعد انطلاق استخدامه، مع تطعيم الخطوط بورشات إصلاح للعربات كالورشة التي أقيمت بمنطقة "سيدي فتح الله" في ضاحية تونس العاصمة[23]، كما حصلت الشركة في 1917على امتياز إنشاء خط حديدي يربط نفزة بطبرقة، ودخل هذا الخط الخدمة في 15 نوفمبر 1922[24].

وكانت فئات واسعة من المجتمع التونسي والجزائريون بعمالة قسنطينة تنتقل عبر خطوط الشركة، وبلغ عدد الركاب في كل من تونس والجزائر معا ما بين 3.768.000 إلى 3.889.000 مستخدم خلال سنتي 1919 و1920، كما بلغت حجم الحمولات التي نقلتها الشركة إلى الموانئ بالدرجة الأولى ما بين 1.660.000 طن سنة 1919، و1.830.000 طن سنة 1920[25]

ومنذ سنة 1920 لم تقم الشركة بفتح خطوط حديدية كثيرة، فقد اقتصر نشاطها التنموي على عمليات التطوير من السكك الموجودة بإضافة بعض الامتدادات الضرورية، زيادة على عمليات صيانة وزيادة عدد المعدات المستخدمة، كعربات النقل والجر والقاطرات المخصصة لحمولات البضائع، فضلا على المسافرين وهذا بغرض رفع المردودية وتوفير خدمات متكاملة غير منقوصة للزبائن[26].

لقد مثلت المشاريع التي حصلت عليها شركة بونة قالمة دعامة حقيقية لحكومة الحماية في كل المجالات الاستراتيجية، فقد حصلت الشركة على المشاريع من أجل غاية ربحية وتحقيق فوائد خاصة، لكنها أسدت إلى حكومة الحماية خدمات كبيرة، تمثلت في فك العزلة عن عدة مناطق زراعية أصبحت بفضل تواجد الخط الحديدي مناطق جالبة للمستوطنين الزراعيين مثل حوض مجردة، كما ساهم تفرع شبكة خطوطها في تنشيط عمليات نقل المعادن مما ساعد على رواج الصناعة الاستخراجية، التي رفعت من حجم وقيمة الصادرات التونسية نحو الخارج بمختلف السلع والمنتجات[27].

ومع مطلع العقد الثاني من القرن العشرين طرأ تغير كبير وجذري على الشركة من حيث الملكية زيادة على التسمية ففي سنة 1923 تحديدا تحولت الشركة إلى شركة تونسية محضة، وتحولت تسميتها من شركة بونة قالمة ذات الطابع الفرنسي الجزائري، إلى شركة ذات طابع تونسي فتغير اسمها إلى شركة المزارع وسكك الحديد التونسية، وقد ورثت عنها سكة حديد في حالة نشاط بطول 1579 كلم[28]، وورثت كل الخطوط التي عملت عليها بونة قالمة.

إن هذه الشركة قد غيرت من واقع خدمة النقل بصورة كبيرة بعدما كان في السنوات الأولى للحماية شبه منعدم، فوفرت الخدمة للراغبين في التنقل من شرق تونس إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، زيادة على التنقل بين المدن الحدودية الجزائرية التونسية، وقد تمت الإشارة لهذا الأمر في عدة رحلات تمت في السنوات الأولى للحماية[29].

والجدول الموالي يوضح حجم التعاملات والأرباح بالفرنك التي حققتها الشركة في تنمية رأسمالها، والأرباح التي تحققت عن كل سهم خلال عقد من الزمن يبدا من 1914 وينتهي 1923.

السنوات	المبلغ الخام	الربح الصافي	ربح السهم
1914	22.667.161	2.035.195	30
1915	16.824.191	1.908.531	30
1916	21.816.232	1.504.679	30
1917	21.026.732	//	30
1918	24.718.337	1.084.349	30
1919	27.282.536	988.374	30
1920	39.793.543	1.977.539	30
1921	46.668.288	2.036.587	30
1922	45.200.942	2.618.770	30
1923	55.498.472	2.950.033	30

المصدر: Crédit foncier, Op. Cit., P 140

إن هذا الجدول يبين بوضوح حجم الفائدة التي حصلت عليها الشركة من استثماراتها في تونس، ويتجلى ذلك في أرقام الربح الصافي الذي تراوح بين المليون ونصف وشارف على عتبة الثلاثة ملايين فرنك في سنة 1924، وكذلك ثبات الفائدة عن كل سهم، وحسب قراءاتي عن نشطات هذه الشركة، فيمكنني رد هذا النجاح إلى اتساع مجال نفوذها في كامل التراب التونسي، فضلا عن نشاطها في الشرق الجزائري، ولطبيعة الاستثمار كونها أشرفت على قطاع ذي حركية كبيرة وهو النقل، ولكون الشركة متعددة الاستثمارات في أكثر من مجال، فهي تعمل في الجانب الزراعي بغرس الأشجار على جانبي طرق سكك الحديد التي تشرف عليها.

إن هذا الأرباح التي حققتها الشركة، وبالنظر إلى نطاقات نشاط هذه الشركة له دلالة لمكانتها باعتبارها نقطة مرجعية في الاقتصاد الفرنسي بتونس، وأحد ركائز الحماية،

لأن نشاطها الاقتصادي لطالما تم توظيفه سياسيا قبل الحماية وبعد فرضها، وكونها شكلت إحدى آليات العلاقة بين فرنسا وإيطاليا بعد المشكل الذي وقع بين الطرفين بسبب شركة روباتينو الإيطالية، وكانت شركة بونة قالمة السبب الرئيسي في حل القضية.

ـ نشاط شركة التراموای بونةـحلق الوادي:

وهي شركة فرنسية رأسمالية محدودة، تأسست في سنة 1900 لمدة 63 سنة، بلغ رأسمالها 600.000 فرنك منها 1200 مساهم بقيمة 500 فرنك للسهم، تواجد مقرها الرئيسي في باريس، غلب على نشاطها الجانب الخدماتي في مجال السياحة، فقد عملت الشركة على استغلال خطوط الترامواي من مدينة بونة الجزائرية إلى حلق الوادي، وكل الخطوط التي حصلت على امتيازات عليها، بما فيها تلك التي تمتد إلى إقليم قسنطينة الجزائري، نظرا للضمانات الأمنية التي تقدمها الشركة للسياح القادمين من الخارج بقيامها بمتابعتهم في خطوط سكك الحديد الفرعية خارج التراب التونسي بناحية الشرق الجزائري[30]، والجدول الموالي يوضح مختلف النشطات والمعاملات المالية الداخلية والخارجية سنة 1923.

الأرباح والخسائر	953.025	**عوائد الاستغلال**	856.176
مصروفات إدارية متنوعة	3.325	**فوائد مختلفة**	3.941
فوائد، واستهلاك ملزم	29.000	**أقساط المديريات**	54.392
نفقات سرية	11.626	**ضمانات الاستغلال**	119.614
علاوات التسيير البشري	11.053	**مجموع القروض**	1.034.125
عوائد أقليم قسنطينة	28.297	**احجم التدفقات المالية**	1.036.328
ديون الإدارة السابقة	//	**الرصيد الإجمالي السنوي**	25.603
مجموع التدفقات	1.026.328		

إن الملاحظ من أرقام هذه الشركة هو ضعف مواردها المالية، ويتضح ذلك في رقم رأسمالها الذي لم يتعدى المليون فرنك، كذلك من خلال هذا الجدول يمكننا فهم قلة رأسمالها الذي هو بالأساس قلة في عدد المساهمين ويتضح جليا في ضعف الشفافية في

المعاملات المالية الداخلية فضلا على الخارجية، وكونها مهمة أحيانا أخرى، مثل ديون مجلس الإدارة القديم التي لم يصرح يعل، والنفقات السرية للإدارة.

لكن رغم ذلك تبقى هذه الشركة إحدى الأذرع التي ساهمت في رسم ملامح الاقتصاد الخدماتي بتونس عن طريق سكك الحديد، كما ساهمت في وضع أسس لاقتصاد يعتمد على السياحة كمصدر دخل وربح للفرد والجهات الرسمية.

- شركة التراموای لتونس العاصمة:

وهي شركة فرنسية رأسمالية محدودة، بلغ رأسمالها 12 مليون فرنك فرنسي، تضم 120.000 مساهم بـ 500 فرنك، تأسست الشركة في 04 مارس 1903، لمدة 75 سنة[31]، انبثقت عن شركة كبرى تعمل في مجال النقل بفرنسا وهي الشركة الفرنسية العامة للنقل بالترامواي التي عملت بفرنسا وبلجيكا وتونس، ليبدأ مساهمو الشركة الجديدة بعقد اجتماعاتهم السنوية بمعزل عن الشركة الأم ابتداء من سنة 1903 سنة تأسيسها مستغلين الظروف التي تمر بها حكومة الحماية، ورغبتها في تثبيت سياستها الاقتصادية بالبلاد، لتتحصل على مجموعة من المشاريع بتونس بما يضمن مصلحة الطرفين[32]، اتخذت الشركة مقرا لها في تونس العاصمة، تمكنت من تنمية رأسمالها على عدة مراحل، إذ تأسست برأسمال يفوق ثلاثة ملايين، وبعد عشرة سنوات وصل إلى 12 مليون[33]، مستغلة عدم ولوج شركات كثيرة مجال النقل بتونس، فإلى غاية مطلع القرن العشرين كانت شركات النقل الحضري بتونس تعد على الأصابع، ومحصورة في تونس العاصمة[34].

اشتمل نشاط الشركة على جانبين رئيسيين، الأول والأهم يتمثل في العمل على مد خطوط سكك حديدية لمرور عربات الترامواي الذي يعمل بالطاقة الكهربائية بهدف توفير النقل العمومي للأفراد والبضائع، أما الجانب الثاني من نشاطها فهو عملها بمجال إنتاج الطاقة لهدفين رئيسين الأول يتمثل في تزويد خطوطها بالكهرباء اللازمة للسير، والثاني لإمداد المناطق الحضرية بالكهرباء، وإيصالها إلى أبعد نقطة ممكنة عبر اتفاقات مع إدارة الحماية.

وكانت شركة بلجيكية تعمل منذ 1883على ربط العاصمة بضواحيها، وقامت بمد خط بطول ثمانية كلم فقط، لتقوم الشركة الفرنسية العامة للترامواي في سنة 1901 بشراء امتيازها، ثم تأسست عنها الشركة التونسية للترامواي في سنة 1903، مستغلة وضع المديرية العامة للأشغال العمومية هدفا لها يتمثل في مد شبكة من الخطوط الحديدية للترامواي، تربط تونس العاصمة وضواحيها بمسافة 66كلم مقسمة إلى أحد عشر خطا

عبر شبكة كهربائية أهمها مد خط تونس أريانة وخط تونس- باردو- منوبة[35]، ومن أجل هذا الهدف حصلت الشركة في سنة 1913 على امتياز بموجب اتفاق أُبرم بين المدير العام للمديرية العامة للأشغال العمومية ومدير مجلس إدارة الشركة التونسية للترامواي، يتم بموجبه مد سكة حديد للجر الكهربائي تربط بين العاصمة إلى حمام الأنف مرورا بمنطقة جبل جلول ومقرين[36]، وتم مد الشركة بامتياز آخر يتمثل في إنجاز خطين حديدين يشتغلان بالكهرباء، لربط تونس بضواحيها الشمالية الشرقية الأول من قناة حلق الوادي إلى تونس، تشمل بناء محطات في طريقها كقرطاج وصولا إلى المرسى، أما الخط الثاني فيربط المرسى بتونس بخط موازي للخط الحديدي الذي شيدته شركة بونة-قالمة من قبل على مسافة 35 كلم، ومن أجل تجسيد هذا المشروع تم انتداب 230 عاملا[37].

أما في المجال الثاني المتعلق بإنتاج الطاقة الكهربائية، فان هذا النشاط كان موازيا ومتداخلا مع الجانب الأول فبحكم أن عربات الترامواي التي كانت تستخدمها الشركة عبر خطوطها، تعمل بالطاقة الكهربائية فقد عملت الشركة على تزويد مدينة تونس وضواحيها بالطاقة الكهربائية، وهذا انطلاقا من المصنعين الذي شيدتهما الشركة في منطقة "باب السعدون"، وفي حلق الوادي، فالأول يعمل لتزويد المناطق الحضرية بالكهرباء والثاني لتزويد شبكة الترامواي[38]، كما وسعت نشاطها ببناء محطة كبيرة لتوليد الكهرباء، وهو ما جعلها تمد الكهرباء من حمام الأنف إلى غاية نابل بقوة 30.000 فولط على مسافة 92 كلم ليكون هذا الخط منطلقا لتوصيل الكهرباء فيما بعد إلى مدن سوسة وصفاقس، وقامت بإجراء دراسات لإمداد ناحيتي "مجاز الباب" والجديدة [39].

وما لبثت الشركة من الانتهاء من تجسيد هذه المشاريع حتى عقدت اتفاق أخر مع المديرية العامة للأشغال العمومية يقضي بإيصال الشركة لخطوط كهربائية بقوة 30.000 فولط من تونس إلى ماطر مرورا بعدة مناطق بين المدينتين كالجديدة وتبوبه[40]، وفي الجدول الموالي أرقام تبين أرباح الشركة خلال عقد النشاط بهذا المجال.

السنوات	صافي الدخل	الربح العام	الربح بالسهم
1914	888.099	720.000	6
1915	665.737	480.000	4
1916	660.445	480.000	4
1917	742.301	480.000	4
1918	682.568	480.000	4

1919	765.409	600.000	4.5
1920	831.359	600.000	5
1921	883.401	600.000	5.5
1922	853.375	660.000	5.5
1923	863.957	720.000	6

المصدر: Crédit foncier, Op. Cit., P164.

إن التطور في رأسمال هذه الشركة يقودنا للمقارنة بينها وبين رأسمال شركة التراموای" بونة-حلق الوادي" الذي كان ثابتا ولم يعرف نماء، رغم أن كلتا الشركتين خدماتية، والشركة الثانية الأقدم زمنيا من حيث التأسيس، وحصلت على امتيازات امتدت إلى الناحية الشرقية للجزائر، وكلاهما عمل في قطاع السياحة، وقد يرجع سبب ذلك الاختلاف في الموارد المالية لشركة "بونة-حلق الوادي" مقارنة بشركة التراموای التونسية إلى الجوانب التنظيمية، والشفافية المالية بين مجلس الإدارة والمساهمين، ويمكن اعتبار هذه الشركة من الأعمدة التي أسست للاقتصاد السياحي بتونس.

ـ نشاط شركة سكك الحديد والفوسفات لقفصة:

عملت هذه الشركة في الجنوب التونسي بقطاع رئيسي وهو استخراج الفوسفات، الأمر الذي حتّم عليها مد سكك حديد بين مناطق الإنتاج وميناء صفاقس وذلك مرور بعدة مناطق في الجنوب التونسي، وتأسست شركة الفوسفات وسكك الحديد لقفصة في سنة 1897 برعاية كبار ملاك الأسهم في شركتي المعادن المغناطيسية "مقطع الحديد"، الناشطة بالغرب التونسي والشرق الجزائري وشركة "سان غوبان" Saint-Gobaïn، بلغ رأسمالها 18.000.000 فرنك، لـ 36.000 سهم بقيمة 500 فرنك[41]، ثم ارتفع رأسمالها إلى 36 مليون فرنك سنة 1920، بعد أن تم فتح رأسمالها قصد زيادته بـ180.000سهم[42]، واستهدفت الشركة استغلال الفوسفات الجيري بناحية بقفصة وإنشاء واستغلال سكك الحديد الرابطة بين المناجم وميناء صفاقس وذلك بموجب الامتياز الذي حصلت عليه من الحكومة التونسية من خلال مرسومي 20 أوت و18 ديسمبر 1890، كما كان للشركة الحق في كل العمليات الزراعية والصناعية والتجارية والمالية بالأراضي التي قامت بشرائها أو استجارها، كما لها أولوية إنجاز الأعمال المقاولاتية والمشاريع العمومية في الأراضي التابعة لها[43].

وشرعت الشركة في مد هذا الخط الحديدي من قفصة إلى صفاقس الذي يلغ طوله 250 كلم ليحقق الغاية المرجوة منه، وقد استغرق وقت طويلا لإنجازه[44]، مما اضطر

الشركة لتسريع وتيرة الأعمال عبر توظيف الأهالي في بعض المناطق الوعرة التي تمر عبرها خط السكة، كمنطقة سيدي محرز التي عرفت إصابة أربعين عاملا بالشركة[45]، لتعلن عن افتتاحه بصورة رسمية في 28 أفريل 1899، حيث انطلق الخط من ميناء صفاقس، ووصل إلى واحات قفصة، ونظرا لأهمية هذا الخط الجديد، فقد اعتبر الفرنسيون يوم افتتاحه بالمفصلي في تاريخ الصناعة والزراعة والتجارة التونسية، رغم أن الفترة الممتدة من تاريخ اكتشاف الفوسفات 1885 وتاريخ بداية استغلاله 1899 طويلة جدا.

-خاتمة:

لقد أفرزت ممارسات الحماية الفرنسية على البلاد التونسية واقعا اقتصاديا جديدا، يرتكز على جعل الاقتصاد التونسي ملحقا بالاقتصاد الفرنسي، وكانت تونس بمثابة جغرافيا الإمداد بالمواد الأولية للاقتصاد الفرنسي، وحققت إدارة الحماية هذا الهدف عن طريق اتباع سياسة محكمة، كان عصبها هو تغيير البنية التحتية، وعلى رأسها قطاع النقل والمواصلات، الذي كان لدى الساسة الفرنسيين بمثابة الحبل السري بين فرنسا وتونس، وذلك عبر مجموعة من الشركات الفرنسية التي عملت على استكمال المشروع الذي انطلق قبل الحماية، وكانت الشركة الفرنسية بونة-قالمة بمثابة رأس الأخطبوط في البلاد التونسية، قياسا بأهميتها في ربط كل نواحي البلاد التونسية، وتسهيل نقل السلع والأفراد والمواد الأولية، فقد أعطت هذه الشركات اكبر ضمان لتوافد المستوطنين الأوروبيين وضمان أكبر لتوافد الرأسمال الأجنبي والاستثمار في شتى المجالات، ففي الزراعة وفرت خطوط سكك الحديد فضاءات جديدة للاستيطان الزراعي، بفكها العزلة عن العديد من المناطق، وفي الصناعة، وهي أبرز قطاع اقتصادي، الذي عرف توافد هائلا لرأسماليين استهدفوا المعادن بتونس، وعلى رأسها الفوسفات والحديد والزنك، بحيث كان يتوجب على هؤلاء الرأسماليين ربط مناجمهم بأقرب خط رئيسي لشركات سكك الحديد، وكذلك الحال في النقل الحضري والتجارة، إذ حقّق هذا الواقع الجديد سهولة وسرعة التحرك بمختلف الأقطار، وعزّز من حضور الإدارة في مختلف الأرجاء.

- الهوامش:

(1) Debernardi Laurent. Le premier chemin de fer tunisien, **Revue française d'histoire d'outre-mer**, T 50, N 179, deuxième trimestre 1963, P 198.

(2)Narcisse Faucon**, La Tunisie avant et depuis l'occupation française : histoire et colonisation**, tom 1, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1893, P250.

(3) Debernardi Laurent, Op.cit. P 204

(4)قنصل فرنسا العام بتونس، عين في 9 جوان 1881 كوزير مقيم بتونس بعد فرض الحماية: انظر:
Amédée Rivière, **La Tunisie : géographie, événements de 1881, organisationpolitique et administrative, organisation judiciaire**, Challamellainé éditeur, Librairie Algérienne et colonial, Paris, 1887, P 19

(5)Rivalta Augusto, Monumento a RaffaeleRubattino, Direzione Generale per la Valorizzazione del patrimonio culturale, Ufficio Relazioni con il Pubblico, P124.

(6)جان قانياج، **أصول الحماية الفرنسية على تونس (1861-1881)**، تر: عادل بن يوسف، محمد محسن البواب، دار سنباكت للطبع، دار برق للنشر والتوزيع، تونس، 2012، ص 427.

(7)Direction générale de l'agriculture, du commerce et de la colonisation, **Notice sur la Tunisie**, Imprimerie Générale j. Picard, Tunis,1899. P19.

(8)Ibid.,P20.

(9)بلدية في باريس تنتمي اليوم إلى الدائرة التاسعة بالعاصمة.

(10) Burnel Anne. La Société de construction des Batignolles de 1914 à 1939, histoire d'un déclin**, Histoire, économie et société**, A14, N2, P302

(11) Gouvernement général de l'Algérie, **Le Bône- Guelma- l'Ouenza**, Imp. Administrative Victor Heintz, Alger, 1913, P4.

(12)Burnel Anne, Op. Cit, P312.

(13)De Fague E. et PonzeveraC.,**Les Pêches Maritimes de la Tunisie**, Imp. Edition Bouslama, Tunis, 1903, . P227

(14)Paulard. S, **Les richesses de la Tunisie : ce que les Français peuvent faire dans la régence de Tunis**, imprimerie topographique de G. gourdineau, Paris, 1893, P 75.

(15) Compagnie Bône-Guelma,**L'Écho des mines et de la métallurgie**, 19/11/1893, A16, N47, P32

(16)Petit Revue financière, Compagnie des chemins de fer de Bône à Guelma et prolongements, **Le Journal des débats**, 29/07/1897, N208, P4.

(17)Jules Saurin, **L'invasion sicilienne et le peuplement français de la Tunisie** : conférence faite par M. Jules Saurin, en mars et avril 1900, à Marseille, Lyon, Lille, Roubaix, Augustin Ghallamel éditeur, libraire colonial, Paris, 1900, P6.

(18)Narcisse Faucon, Op.cit., PP 256. 257.

(19)Jules Saurin, Op. Cit.,P6

(20) Compagnie des chemins de fer de Bône a Guelma et prolongements,**Le Journal des chemins de fer,** 11/07/1896**,** A55, N6093, P513.

(21) Chambre des députes, Les chemins de fer tunisiens,**Le Temps**, 21/05/1892, N11322, P3

(22) Compagnie des chemins de fer de Bône a Guelma et prolongements: Assemblée générale du 21/06/1895, **Le Journal des chemins de fer**, 27/07/1895, A54, N6042, P512.

(23) Les Chemins de fer de Bône-Guelma et prolongements en 1914, **Le Journal des transports**, 3/07/1915, A38, N9, P115.

(24) Compagnie des chemins de fer de Bône a Guelma et prolongements,**Les Annales Colonial**, 22/06/1923, A24, N93, P4.

(25) Compagnie des chemins de fer de Bône à Guelma, **Les Annales Colonial.**,20/06/1921, A22, N72, P2.

(26) Compagnie des chemins de fer de Bône a Guelma et prolongements,**Les Annales Colonial.**,20/06/1921, A22, N72, P2.

(27) Paul Leroy Beaulieu, La Tunisie, **Le Journal des débats**, 20/02/1901, N50, P1

(28) Compagnie fermière des chemins de fer tunisiens,**Les Annales Colonial.**,30/05/1924, A25, N76, P2.

(29)من بين الرحلات التي تحدثت عن هذا الواقع نجد:

Victor Cambon, **De Bône à Tunis, Sousse et Kairouan**, Imprimerie de salut publique, 2eme édition, Lyon, 1885, P159.

Édouard Céalis, **De Sousse à Gafsa, lettres sur la campagne de Tunisie(1881-1884),** Imp. Flammarion, Paris,1897,

(30)Crédit foncier d''Algérie et de Tunisie. Société anonyme. Imprimerie Chaix, Paris, (1924-1925), P155.

(31)Ibid, P163.

(32)Compagnie des tramways de Tunis, **Le Journal des finances**, 14/01/1911, N2, P13.

(33)Crédit foncier, Op. Cit., p 163.

(34)Les Chemins de fer en Tunisie, **Le Journal des finances**, 5/09/1908, N36, P850.

(35)Les Tramways de Tunis, **Les Annales Colonial.**, 23/04/1914, A15, N48, P4.

(36)Chemins de fer et tramways, **Le Capitaliste**, 30/10/1913, A36, N44, P723.

(37)Les Tramways de Tunis, Op. Cit., P4.

(38)Ibid., P4.

(39) Compagnie des tramways de Tunis**, Les Annales Colonial**13/08/1928, A29, N125, P6.

(40)Tunisie, la vie économique, L'électrification des campagnes tunisiennes, **Les Annales Colonial,** 24/06/1933, A33, N72, P2.

(41) Les enterprises phosphatières d'Algérie – Tunisie, **Le Journal des finances.**, 11/04/1903, N15, P2.

(42) Crédit foncier, Op. Cit., P 343.

(43)Mokta-el-Hadid, **Paris-capital**, paraissant tous mercredi, Paris, 10/02/1897, A10, N 6, P2.

(44)La Compagnie de Mokta-el-Hadid**L'Écho des mines et de la métallurgie.**, 4/10/1896, A22, N1084, P 1181.

(45)Dernières dépêches, **Le Temps**, 15/04/1898, A 38, N 13464, P6.

إدارة الفلاحة وتحديث الزراعة الاستعمارية بتونس

د/ ناجي كشيدة

كلية الآداب-سوسة-

الجمهورية التونسية

الكلمات المفتاحية: الزراعة- الإدارة الاستعمارية – الزيتون - إدارة الفلاحة – المردودية- الأهالي.

الملخص:

نتناول في مقالنا هذا موضوع السياسة الزراعية التي تبناها الاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية منذ إرساء نظام الحماية سنة 1881م، وتأسيس إدارة الفلاحة التي صبغت بطابع تحديثي قصد النهوض بقطاع مثّل محور العملية الاستعمارية بتونس، وهي تندرج ضمن سياق استعماري جديد جوهره تنشيط الاستيطان، وإعطاء الأولوية المطلقة للقطاع الفلاحي باعتباره القاطرة الجارة لاقتصاد البلاد التونسية.

Résumé:

dans cet article,on parle de la politique agricole adaptée par le colonisateur français en Tunisie, depuis l'installation du Système Protégeant en 1881, également la fondation de l'administration de l'agriculture modernisée.

Elle est conçue pour booster quelques domaines comme:

- l'axe de colonisateur en Tunisie, qui de fait un nouveau contexte colonial visant au colonialisme.
- favoriser le secteur agricole car il est l'âme de l'économie tunisienne.

لا يختلف عاقلان في محورية الأرض كعامل إنجاح وعنصر تدعيم للمنظومة الاستعمارية في الآن ذاته، ولم تخرج الأراضي التونسية عن هذه القاعدة حيث كانت هدفا سهلا في أغلب الأحيان للهجمة الاستيطانية منذ إرساء نظام الحماية سنة 1881م ويجوز الحديث حتى قبل ذلك التاريخ. اهتمام الفرنسيين بالأراضي التونسية كان واضحا وشاملا،

خاصة مع تبني سياسة الاستعمار الزراعي الرسمي منذ 1892م، من خلال إرساء منظومة قانونية وتشريعية خاصة وجدّ ملائمة. رغبة استعمارية لم تغفل حتى المناطق الموجودة بالجنوب أو ما يعرف بأراضي التراب العسكري، والتي يمكن الاستفادة منها و بالرغم من قلّة خصوبتها مقابل امتدادها الجغرافي فانّ الرغبة الاستعمارية كانت حاضرة للتوطين و الاستغلال.

1- محورية الأراضي السياليّة بصفاقس: لمحة عامة

يتكون المجال الجغرافي للمراقبة المدنية بصفاقس أساسا من قيادة جبنيانة شمالا، وقيادة الصخيرة جنوبا، والمركز الإداري صفاقس، وهي بذاك تمثل أهم مركز إداري في جنوب البلاد. كانت هذه المنطقة محل اهتمام الإداريين[1] والمعمّرين الفرنسيين لما تضمنته من إمكانيات فلاحيه يمكن استغلالها في الزراعات الملائمة لمناخ الجهة: جوهر الاهتمام تمثل في وجود سهول ممتدة بظهير مدينة صفاقس عرفت انتشارا لغراسة الأشجار المثمرة كالزيتون واللوز. هذه السهول هي ما اصطلح عليها بالأراضي السياليّة التي تمتد على مسافة تتراوح ما بين 60 و70 كم[2] حول صفاقس، وقد تحدّث بعض الرحالة من الفرنسيين[3] عن وجود جنان حول أسوار المدينة ممتدة على قطر 12 كم مشجرة زياتين ولوز وغيرها.

استمدت هذه الأراضي تسميتها من عائلة سيالة الصفاقسية، والتي منحها إياها علي باي الثاني أواسط القرن الثامن عشر (1759) على سبيل الالتزام، وكانت هذه العملية تتجدّد عند كل اعتلاء جديد للعرش الحسيني.

لكن اضطراب أحوال الدولة عامة، وتراجع موارد الخزينة، إضافة إلى التغيّر الذي عرفته أهواء الحكام ،جعلت الباي محمّد الصادق (1859-1882) يسترجعها نهائيا سنة 1871 وتكون بذلك قد انطوت تحت لواء أملاك البايليك.

ومنذ فترة طويلة مثلت هذه السهول المقدرة مساحتها بـ 900 ألف هكتار موطنا للعديد من فرق المنطقة خاصة، كالمثاليثة المهاذبة ونفّات وما تبعها من فروع وعروش: كأولاد غيدة، أولاد نجم، الشماترة وغيرهم. كما أنّ استراتيجية موقعها، ومجاورتها للعديد من مواطن القبائل الأخرى، كالسواسي جلاص والهمّامة جعلها تعرف استقرارا موسميا

لهذه الأخيرة بحثا عن المرعى لقطعانها، هذه الحالة ولدّت في الغالب صراعات ونزاعات قبلية كانت في معظمها متمحورة حول نقاط المياه والمراعي، لكنها مثلت سمة من سمات تلك الفترة لا غير. غير أنّ القبائل المتركّزة بظهير صفاقس منذ فترة كانت تعتبر نفسها صاحبة حق على هذه المساحات نظرا لدوام استغلالها ولعراقة توطينها. لكن وبتبلور فكرة الاستعمار الزراعي الرسمي وظهور مفهوم أراضي الدولة ستفقد أجزاء هامة من مجالها الحيوي وستكون أول الخاسرين.

إنّ تدخل الحكومة التونسية و"بيلكة" هذه الأراضي لم يكن سلبيا ومانعا لنسق الغراسات إذ أصدر الباي بتاريخ غرة محرم 1288 (23 مارس1871) مرسوما[4] يقضي بإمكانية الحصول على مقاسم لغراستها زيتونا بعد توجيه طلب في الغرض لقايد صفاقس. وبناء على هذا المرسوم و بعد تركز الحماية طالب الفرنسيون المستقرون هناك بمواصلة العمل به، حيث لعب المراقب المدني للجهة جيروم فيدال Jérôme Fidelle[5] منذ تعيينه سنة 1887 دورا مهما للترفيع من نسق الاستغلال، وسعى إلى جلب اهتمام المشرفين على إنجاح المشاريع الاستعمارية، كما نادى المعمّر ونائب رئيس بلدية صفاقس ڤو Gau، بضرورة استغلال هذه الأراضي، ومنحها للمعمّرين، وجدّد دعوته أمام الندوة الاستشارية[6] المنعقدة في دورتها الأولى بالتأكيد على وجود 33481 شجرة زيتون منتجة وقديمة، إضافة إلى مليون شجرة صغيرة "حويلة" (بالمفهوم العامي المتداول) وبقاء مساحات شاسعة تنتظر الاستغلال. وهي نفس الفكرة التي نجدها عند كل العارفين بالمجال الصفاقسي وخاصة الفرنسيين منهم من خلال تأكيدهم على "وجود عوامل هامة للاستعمار بجهة صفاقس توفرها غراسة الزيتون"[7]. وقد حصل الالتقاء بين هذين الإداريين وبورد حول ضرورة استغلال المجال المحيط بمدينة صفاقس.

فلئن كانت سهول التل التونسي توفر الزراعات الكبرى، وسهول قرمبالية مهدّت لميلاد غراسات الكروم والقوارص، فإن جهة صفاقس تمثل المناخ الأمثل عند الفرنسيين لاستعادة أمجاد "إفريقيا" المستعمرة الرومانية التي وفّرت الزيوت عبر مرّ العصور. هذا الاهتمام الفرنسي بغراسة الزياتين بسهول صفاقس يتنزل في ظرفية عالمية عرفت فيها

أسعار الزيوت ارتفاعا[8]، وتدني القدرة الإنتاجية لبعض الدول خاصة في حوضي المتوسط. وأصبحت هناك نواة لتركّز فرنسي بالجهة من خلال تقديم الفرنسيين[9] لـ21 مطلبا للحصول على مقاسم بالجهة تغطي18937 هك في أواخر 1891 مقابل 10 آلاف هكتار يتصرف فيها 302 ملاكا أهليا في غالبتهم من أعيان القبائل والفرق[10]: فشيخ الشماترة مثلا كان يتصرف في 500 هكتار، وخليفة أولاد سليم له 1130 أصل زيتون و120 هكتار والأمثلة كثيرة ومتعدّدة بريف الجهة عن مثل هذا الاحتكار "المجالي و الفئوي".

كما يمكن تفسير هذا الانحصار في المساحات إلى عمليات الترحيل أو الهجرة البشرية[11] التي عرفتها الجهة خاصة بعد انتهاء معركة صفاقس وبسط الفرنسيين هيمنتهم على المنطقة، وما يتبع ذلك من قمع وتسلط على المقاومين. إضافة إلى حالات العداء المتواتر بين العروش ومختلف الفرق، دون التغافل عن المعطيات الديمغرافية (ضعف الكثافة) والمستوى التقني المتخلف إن لم يكن بدائيا عند سكان الجهة مع سيطرة طفيفة لنمط الترحال بالرغم من وجود بعض المراكز السكانية.

تاريخ هذه الجهة سيعرف تحوّلا جذريّا منذ 1892، فهذه السنة التي تمثل حدّا فاصلا بين تجربتين مختلفتين من الاستعمار الزراعي الفرنسي لتونس، فلئن لم تكن نتائج التجربة الحرّة في مستوى التّطلعات الإدارية والرسمية الفرنسية نظرا لعديد مواطن الخلل فيها وتاثيرها السلبي على الرصيد البشري والعقاري المستحوذ عليه بتونس. فإن المرحلة الجديدة ستعرف تسخيرا تدريجيا للمجال التونسي سينطلق من أرياف صفاقس-لسوء حظها-، وتحديدا من الأراضي السيالية التي اعتبرت أراضي تابعة للدولة ومن خلالها شرع لدولنه[12] Domanialisassions الكثير من المساحات الزراعية التونسية. ولقد لعبت التشريعات والقوانين دورا أساسيا في بلورة هذا المشروع الاستعماري من خلال إصدار قانون 8 فيفري1892 والمتعلق بالتفويت بالبيع في الأراضي السيالية.

- فاعلية قانون 8 فيفري 1892:

صدر الأمر العليّ المنظم لعملية بيع الأراضي السياليّة بصفاقس بتاريخ 10 رجب 1309 الموافق لـ8 فيفري 1892 عن باي تونس على باشا(1882-1902) وقد تضمن بابين

و12 فصلا احتوى الباب الأول على 4 فصول اهتمّت بتسوية الملكيات المتحصل عليها بموجب قانون غرة محرم 23/1288 مارس 1871 والتي نُعتت بالقديمة.

في حين تطرق الباب الثاني بفصوله الثمانية (8) إلى الطرق الكفيلة بالحصول على مقاسم جديدة، من خلال تقديم مطالب في الغرض لقايد صفاقس (ف5) متضمّنة تحديدا للمكان مساحة المقسم وحدوده كما يلتزم الراغبون في الحصول على مقاسم إحياءه وتشجيره في مدّة لا تتجاوز أربع سنوات (ف6) مع تهديد الحكومة باسترجاع المقسم في حال تمّ الإخلال بذلك. ولمزيد التشجيع على اقتناء هذه الراضي أقرّ ثمن الهكتار الواحد بـ10 فرانكات (ف7).

وفي خطوة مكمّلة وأخيرة يتحصل المتقدّمون على شهادة ملكية ورسم طوبوغرافي للقطعة (ف9)، ملكية تكون نهائية وباتّة. من خلال هذا القانون الصادر عن الباي يمكن الإشارة إلى نجاح السلطات الفرنسية في إجباره على ذلك وتفادي أي إشكال مباشر مع سكان الفرق البالغ عددهم 35 ألف نسمة[13] حسب التقديرات الرسمية الفرنسية. وهي بذلك تكون قد استخلصت العبرة من تجربتها بالجزائر في محاولة منها لإصلاح البعض من أخطاء الماضي.

فالإدارة الفرنسية راهنت على قوة التشريعات والقوانين التي أثبتت فاعليتها منذ القانون العقاري لسنة 1885. هذا القانون الجديد سيمثل أداة فعالة لنهب مئات الآلاف من الهكتارات وتوظيفها لصالح الاستعمار الرسمي في ظلّ تغير مفهوم أملاك الدولة، والذي أصبح يستوعب كل المساحات الزراعية بتونس، والقابلة للاستصلاح والفلاحة، ولم تسلم منه سوى الأراضي القاحلة، والشطوط والسباخ وسيعرف هذا القانون أولى التنقيحات بتاريخ 10 ماي 1892 لكن الأهم هو تنقيح 2 جانفي 1895[14]، الذي استثنى بعض الأراضي من التسجيل والاستيلاء، لكنه لم يمنع من انتقال أغلبها للفرنسيين.

وبصدور هذا القانون تكون السلطات الاستعمارية قد مهدّت الطريق لتركيز نواة فرنسية كثيفة بسهول الجهة من خلال تسهيل التسرب العقاري الأجنبي لأهم منطقة فلاحية بجنوب البلاد، صمدت لبعض الوقت أمام شراسة الهجمة الاستعمارية. فمباشرة وبعد إصدار هذا القانون وفي ظرف 6 أشهر[15] تمّ تسجيل 25 مطلبا للحصول على مقاسم

فلاحية ستمكن الفرنسيين من الحصول على ما يفوق 13 ألف هكتار وفّرت 220 ألف شجرة زيتون إضافة إلى ما غرسه الأهالي منذ فترة.

هذا النسق المرتفع من حيث عدد المطالب الموجهة لإدارة الفلاحة للحصول على الأراضي السيالية نستشفه من التقارير الرسمية[16] التي أشارت إلى وجود 793 مطلبا، منها ما هو متعلق بتسوية الوضعيات القديمة، وذلك ما نصت عليه الفصول الأربعة الأولى من قانون فيفري 1892، إضافة إلى ما يتعلق بعمليات جديدة وذلك إلى حدود غرة جوان 1893 وإجمالا تعطي مساحة تقدر بـ 65ألف هكتار.

لكن الملفت للانتباه غلبة المطالب الموجهة من قبل أهالي الفرق وحتى أصيلي مدينة صفاقس حيث نجد 727[17] مطلبا مقابل 66 مطلبا فقط صادرة عن أوروبيين، ويمكن تفسير ذلك بمسارعة الأهالي إلى تسوية وضعياتهم السابقة للقانون الجديد وخوفهم من جور السلطات (وهو ما اعتادوا عليه) وكذلك عملية حماية لما ورثوه عن الأجداد تجاه ما لمسوه من إصرار أوروبي على الاستيلاء على هذا الرصيد العقاري الهام.

بالنسبة لضعف التواجد الأوروبي إلى هذه الفترة على الأقل، تجدر الإشارة إلى بعض الثغرات التي تضمنها هذا القانون بالرغم من فوائده العديدة التي يمكن تسجيلها لفائدة الاستعمار والمعمّرين، فمن غير الجائز أن يكون الفرنسي أو الأوروبي ملمّا بموقع وحدود وخاصيات القطعة التي يرغب في الحصول عليها كما أنّ أغلبهم يجهل المنطقة تماما، إلى جانب التعقد الذي تعرفه بعض الوضعيات العقارية وهو ما عرقل طرق عمل المحكمة المختلطة Le tribunal Mixte.

هذه الوضعية جعلت الإدارة الفرنسية، وخاصة إدارة الفلاحة مطالبة بإيجاد الحلول اللازمة، والمتمثلة خاصة في الاعتماد على الترقيم أو التسجيل الكلي l'immatriculation en bloc، ربحا للوقت وللمساحة في آن واحد. هذه العملية لوحدها تتطلب مبالغ مالية خاصة بها كانت في حدود 20 ألف فرنك خصّصت من الميزانية العامة للدولة.

وبمرور الوقت أصبح الوجود الفرنسي بظهير صفاقس أمرا واقعا وذا كثافة، فبالمقارنة مع الجاليات الأوروبية الأخرى المستقرة بالجهة إيطاليين ومالطيين، سيطر أبناء المتروبول على مساحات هامة من الأراضي المفوّت فيها بمساحة تقدر بـ19089

هكتار سنة 1892[18]مقابل 1184 فقط للإيطاليين، هذا الجزء من البلاد سيكون للفرنسيين بدرجة أولى فهم جوهر المرحلة الاستعمارية الجديدة بتونس.

ولمزيد منح الوجود الفرنسي بالجهة المزيد من المجالات الضرورية تم تكوين لجنة معاينة وتحديد الراضي السيالية المنبعثة خلال الفترة (1895-1896) والتي كان هدفها "البحث عن أراضي للاستعمار الفلاحي بالجهة"[19]، هذه اللجنة منحت لكل الفرق المنتشرة مساحة لا تفي بحاجتها: 200 ألف هكتار فقط أضيفت إليها 40 ألف هكتار من الأحباس في حين مرّت بقية الأراضي للفرنسيين وللشركات التي عرفتها أرياف صفاقس، وهي شركات رأسمالية بعثت لأجل الاستحواذ على أكبر رصيد ممكن من الأراضي. وأوّل هذه الشركات بعثت سنة 1893 واستحوذت على 1100 هكتار ستضاف إليها مئات الآلاف من الهكتارات التي ستستولي عليها 7 شركات أخرى بالجهة لغراستها زيتونا، وقد أثّر هذا النجاح على توجهات الشركة المالكة لهنشير النفيضة[20] التي عبّرت عن رغبتها في التخلي عن زراعة الكروم، والتوجه للقطاع الجديد المربح، خاصة مع الانتعاشة[21] التي عرفتها الصادرات الفلاحية التونسية من الزيوت خاصة مع تظافر الجهود الأهلية وقوة رأسمال الأوروبيين الموظف للنهوض بالمنطقة.

لكن هذا التملك الأوروبي كان له ضحايا على الطرف المقابل، وأولهم الفرق التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى إبعادها نحو المناطق الأقل خصوبة ونادرة الأمطار. في حين كانت تعمل من ناحية أخرى على تأليب الفرق وبث الصراعات البينية[22] وإثارة العصبية القبلية، وتكون بذلك قد خدمت المعمّرين من خلال إزاحة منافسين على المجال من جهة، وأيضا إزالة خطر القلاقل والانتفاضات التي من شأنها عرقلة نسق الاستحواذ الأوروبي الفاحش في منطقة اعتبرت فاتحة الاستعمار الرسمي بتونس. من خلال التحرك الإداري الرسمي القائم على التشريعات أمكن للإدارة الاستعمارية تطويع معظم المجال الفلاحي بجهة صفاقس لصالح الاستعمار الزراعي وإخراجه من النمطيّة وغلبة الطابع التقليدي.

سيعرف ظهير هذه المنطقة التونسية تحوّلا جذريّا سيطبع تاريخه الحديث، من خلال تدرجّه من منطقة ذات طابع بدوي- رعوي[23] تشتد فيها الصراعات القبلية،

والتحالفات المحلية، إلى مجال فلاحي متطوّر، سيعرف منافسة شرسة ذات منحى اقتصادي وتجاري، خاصّة وأنّ هذا المجال الصفاقسي عامة أصبح استعماريا بالأساس مثلت غابة الزياتين بالأراضي السيالية جوهره.

لقد مثلت العشرية الأخيرة من القرن 19 حلقة مفصلية من الوجود الفرنسي بتونس، حيث تمكنّت الإدارة الاستعمارية من خلال سياسة التشريعات والقوانين والتسهيلات، من خلق واقع استعماري جديد قوامه التركز الفرنسي الكثيف بالأرياف التونسية والمدعوم من قبل الحكومة، وهو ما مكن من تطويع غالبيّة المجال التونسي الذي أصبح سهل المنال للاستغلال الممنهج. استغلال مهد له من خلال إحداث الإدارات والهياكل المختصة كإدارة الأشغال العامة سنة 1882كنواة أولى لما سيعرف بالإدارات الفنية، كذلك إدارة خاصة بالمالية في نفس السنة، وإدارة الفلاحة سنة 1890 بموجب أمر 3 نوفمبر من نفس السنة التي سيديرها الصحفي والمنظر الاستعماري بول بورد إلى حدود 1895 و هي فترة الإصلاحات و المبادرات بامتياز.

2- مبادرات بول بورد للنهوض بالفلاحة التونسية:

مع إطلالة العشرية الثانية من الحضور الفرنسي بتونس أخذت ملامح تحوّل البلاد التونسية إلى مجال استعماري صرف بالتبلّور، خاصة مع تكرّس ظاهرة التخصّص الزراعي والتي لئن كانت حاضرة باستمرار منذ القديم، إلا أنها ستعرف المزيد من الترسّخ بعد أن فتح الباب واسعا أمام المبادرات الفردية المدعومة بكثافة من قبل الحكومة، بحيث كانت سهول الشمال الغربي مجالا لزراعة الحبوب بدرجة أولى، ووفرت سهول المراقبة المدنيّة بقرمبالية وباقي مجال الوطن القبلي الظروف الملائمة لزراعات الكروم والقوارص، وهي في الأصل زراعات استعمارية راهن عليها الفرنسيون واعتبر نجاحها مقياسا لمدى حضورهم البشري والإداري.

ومثلت سنة 1892 تدعيما لهذا التمشي من خلال تبني سياسة استعمارية جديدة رافقها تسرب نحو مجال جغرافي جديد وهام، شكّل ظهير صفاقس أو ما يعرف بالأراضي السيالية نواته الأولى. بهذه الجهة ستتركز كل الجهود لإحياء غابة الزيتون ولأجلها وضع قانون فيفري 1892 وفسح المجال لتوافد المعمرين للاستقرار والاستغلال.

في هذه الظرفية ستعمل الإدارة الاستعمارية على استعادة غراسة الزيتون بتونس وبصفة خاصة بوسط البلاد لأمجادها كما ستحرص على جعلها زراعة استعمارية

تصديرية تخدم المتروبول وبدرجة أقل المحمية. حرص تمثل في اهتمام الإداريين الفرنسيين بمستقبل هذا النوع من الغراسات من خلال التقارير والملاحظات.

وقد تكفّل مدير الفلاحة بول بورد من منطلق تكوينه الفلاحي ومنصبه الإداري اللذين يخولان له ذلك بدراسة واقع وآفاق هذا النوع من الغراسات بصفة خاصة من خلال تقريره الموجه للمقيم العام بتونس.

-ا- التقرير الحاسم لبورد حول غراسة الزيتون بالوسط:

هو في الأصل لم يخصّص لغراسة الزيتون، بل تطرق إلى غراسة الأشجار المثمرة بالوسط التونسي، وخصّ قطاع الزيتون[24] بحيز هام منه. وجّه هذا التقرير للمقيم العام روفيه (Rouvier) الذي جعل القطاع الفلاحي من أولى اهتماماته منذ توليه منصبه سنة 1892.

فقد أدرك الفرنسيون بسرعة ومن بينهم بورد الفارق الكبير بين واقع فلاحي قديم ميّز البلاد التونسية، وجعلها مصدرا للزيوت لمعظم المجال المتوسطي، وتركها في نفس الوقت هدفا للقوى المتناحرة بالمنطقة على مرّ العصور من جهة، وبين ما آلت إليه الأوضاع من تخلّف زراعي وتراجع المساحات المخصصة لهذه الغراسات من جهة أخرى.

الإشكال التاريخي بين الأمس واليوم:

لقد طرح بورد المسألة منذ البداية "الوسط التونسي يمثّل إشكالا تاريخيا عجز علم الآثار عن فكّ رموزه، وأظنّ بأن الحل يكمن في الفلاحة[25]. فمن خلال معاينته الميدانية لمعظم مناطق الوسط التونسي، متّبعا خطّ سير من الجم باتجاه القيروان غربا وصولا إلى الحدود الجزائرية، والتخوم الشمالية لقفصة، عائدا نحو صفاقس تبيّن له الكم الهائل من الآثار الرومانية القديمة التي تقف شاهدا على ازدهار عمراني واقتصادي وتجاري سابق. وكما اعتقد بورد فإنّ هذه الآثار هي بقايا لمعاصر رومانية (Pressoirs) تقيم الدليل على وجود غابة هامة من الزياتين بجهة الوسط التونسي حيث مثّلت هذه المنطقة في العهود الرومانية مجالا حضريا حيويا تمركز حول سبيطلة (سفيطلة) حيدرة (Ammaedara) والقصرين وتلابت. لكن الواقع يختلف تماما بعد مرور آلاف السنين بحيث غابت كل مظاهر الحياة التجارية وتراجعت مكانة الزراعة عند الأهالي وبكامل المنطقة تقريبا ولمزيد البحث والإلمام بخفايا هذا التغيّر استند بورد عند إنجازه لتقريره

إلى ما دوّنه الجغرافيون والرحالة الذين عرفوا البلاد التونسية منذ العهد الروماني والعربي وحتى الحديث.

فالمؤرخون الرومان واللاتينيون أقرّوا بأن منطقة البيزاسان (Byzacène) وتقابلها جغرافيا منطقة الوسط التونسي حاليا والتي ستعرف تسميتها التغيّر بتغيّر الحضارات هي الموطن الرئيسي لغراسة الزيتون وتحدثوا بإطناب عن تنامي المبادلات التجارية مع روما بفضل غراسات هذه الجهة من الزياتين. نفس هذه الوضعية الجيّدة تحدث عنها المؤرخون العرب كالإدريسي والبكري الذي أكّد على تصدير الزيوت إلى المشرق، والمغرب وحتى إلى بلاد الروم[26]، وأسهب هؤلاء وغيرهم في الحديث عن ثراء منطقة المُزاق من خلال وجود غراسة الزيتون التي يتعامل معها الأهالي بكل دراية وإتقان. وقد وجد بورد في المجال المحيط بصفاقس عوامل النجاح لانطلاق غراسة الزيتون وإحياء الغابة القديمة، فإلى جانب الاهتمام الرسمي المسجّل منذ العهد الحسيني قبيل الحماية وملائمة العوامل المناخية، استند إلى تركيز الكتابات التاريخية على محورية هذه المدينة التي استفادت من تجارة الزيوت حيث اعتبرت مدينة من المستوى الأول[27]. وأورد بورد تأكيد البكري على أن صفاقس تبقى مقصد كبار تجار المتوسط[28].

هذه الصورة الإيجابية و ذات العمق التاريخي ستعرف التلاشي، حيث صوّر الرحالة والجغرافيون الأوروبيون الحالة السيئة التي لاحت عليها المدينة التي تختزل بدورها واقع كل المنطقة إن لم نقل البلاد عامة. فالوزّان الفاسي والمعروف عند الغرب بـLéon l'Africain وجد المدينة في حالة من التراجع التام على جميع الأصعدة، كما أشار بايسنال (Peyssonnel) سنة 1784 إلى تضاؤل الحجم السكاني للمدينة واقتصار اقتصادها على الكفاف مع انعدام شبه تام للمبادلات التجارية.

وحتى الفرنسيون وقُبَيْلَ احتلال البلاد، كانوا على علم بما آلت إليه أحوال البلاد من تعكّر للأوضاع، وتراجع لمداخيل الدولة وضعف للرعية. ويطرح التساؤل عن الاختلاف الكلي بين ما صوّر في عهود سابقة على أنه ازدهار عمراني واقتصادي قائم بجهة الوسط على غابات هامة من الزياتين، وبين ما أصبح عليه الوضع إلى حدود القرن التاسع عشر من انهيار اقتصادي وتراجع عمراني وفتور ديمغرافي؟.

في سياق تفسيره لذلك يقول بورد بأنّ "العوامل المناخية لم تتغيّر: المجال بقي على حاله، لكن ما تغيّر هو تعامل الإنسان مع الموجود"[29]، والإشارة واضحة من وراء ذلك إلى إهمال العرب لهذه الغراسات، وبصفة خاصة ما أقدمت عليه قبائل بني هلال وبني سليم من نهب وتهديد لسير الحياة بطرق طبيعية، كما أن التحامل الأوروبي والغربي صوّر الفلاح التونسي خاملا وميالا للتواكل، إلى جانب ضغط الجباية وقلة الموارد المالية وتقلب المعطيات المناخية. لكن بورد، وبنظرة تفاؤلية، يرى أنه من الممكن إصلاح الإنسان لما أفسده سلفه وعبّر عن إمكانية استعاد هذا القطاع لإشعاعه السابق من خلال تضافر المجهود الأهلي مع التقنيات الأوروبية التي يتكفّل بها المعمرون الواجب إشراكهم في عملية إحياء غابة الزياتين والاستفادة من الأراضي السيالية، خاصّة وأن أبناء الجهة (أهالي صفاقس وأبناء الفرق والعروش) قد بادروا قبل الاهتمام الرسمي التونسي والفرنسي بإحياء الغراسات بالمنطقة حيث سجلت أولى المحاولات[30] مع إطلالة القرن التاسع عشر خاصة العشرية الأولى منه، لكن النتائج كانت محدودة لتلاصق الغراسات وغياب العمل الممنهج.

وانتظر الجميع منتصف ذلك القرن (1850) ليأتي أحد الأهالي: الحاج محمد التريكي، الذي كان يشغل منصب أمين غابة الزيتون بصفاقس في فترة إنجاز بورد لتحقيقاته، ويعاين هذه النقائص، ليبادر فيما بعد بمضاعفة المساحة الفاصلة بين الزياتين لتبلغ 24 مترا، وهو ما حسّن نسبيا في المردوديّة ومنح الفرصة للبقية للاستفادة من خبرته، وقد لاقت هذه المجهودات تجاوب الأهالي الذين حذوا حذوه. واتخذ بورد هذا الفلاح دليلا له[31] ومساعدا في جولاته الميدانية.

تواصل هذا النسق جعل غابة الزياتين بأرياف صفاقس تغطي عشية الاحتلال 18 ألف هكتار في مجملها كنتاج لمجهود أهلي محلي. وذلك ما دفع بمدير الفلاحة إلى التنويه بهذه المجهودات والتأكيد على عدم الحاجة لأي تلقين علمي دخيل[32]. وعاب على أهالي الجهة اقتصارهم على التناقل الشفوي لهذا الموروث وغياب محاولات التدوين، كما أنه لا يمكن اعتبار هذه الحالة استثناء، فقد تعامل العرب مع موروثهم ولفترة طويلة بالمشافهة وضاع أغلبه وحتى ما وقع تدوينه لاحقا تعرّض للتحريف والزيغ.

-ب- مراحل غراسة الزيتون بصفاقس:

كما هو متفق عليه يضمن مناخ الجهة لهذا النوع من الغراسات النجاح خصوصا إذا تمت العملية على تربة رملية محمّرة[33]. وأكدت سائر الدراسات المتعلقة بقطاع الزيتون ضرورة القيام بالغراسة في ترب تمنح المياه النفاذ[34] إلى باطن الأرض وتستبعد التربة الطينية والخفيفة كذلك.

أولى مراحل غراسة الزيتون بالجهة، كما بغيرها من البلاد، تتمثّل في تجهيز الحفر التي ستحتوي المشاتل يصل عمق هذه الحفر إلى 60 صم وأحيانا 75 صم[35]، عند الاصطدام بالأرض الوعرة. لكن هذه المعطيات المتعلقة بالعمق تبقى موضع شكّ، خاصة إذا علمنا أنه بجهة الساحل مثلا يصل العمق إلى متر أو أكثر، وكذلك المحيط (الأضلع) وللعمق دور هام على مستوى حماية الشجرة من اشتداد الجفاف وتعاقبه، وعادة تتم عملية الحفر في فصل الخريف للاستفادة من أمطاره.

بعد هذه الخطوة وإتمام عملية الغراسة، تكمن المهمة الأساسية في حماية الغراسات الحديثة من الجفاف والعطش من خلال تواتر عملية السقي التي تبقى ضرورية طوال السنة الأولى بعد الغراسة وقد تتواصل حتى السنة الثانية وتعفي الفترات الممطرة الفلاح من تلك المشقّة.

من المراحل الأخرى الضرورية للمحافظة على نمو الشجرة يؤكد بول بورد و استنادا إلى دليله المحلي على الأهمية القصوى لعملية الحرث التي تنطلق عادة من شهر أكتوبر لتنتهي في ماي. ويرى بورد بأنّ الفلاح الحريص على إنجاح غراساته مطالب بخمس (5) عمليات حرث على امتداد الموسم الفلاحي: عمليتان بالمحراث التقليدي والمكتفي بخدش الأرض وثلاث أخرى بالمحشّة la maâcha التي يشدّد بورد على أنها ابتكار صفاقسي صرف[36] يسهم في القضاء على الأعشاب الطفيلية والتي عادة ما تؤرق الفلاح كـ"النجم" le chiendent وتكرار مثل هذه العملية وبأوقات مضبوطة من شانه تجهيز التربة وتهيئتها.

مثل هذه العمليات يمكن التقليص منها مع نمو الشجرة واشتداد عودها، لتصبح بعد ذلك عمليّة الشذب محور اهتمامات الفلاح بعد كلّ عملية جني للمحصول، هذه العملية التي يقوم بها أناس مختصون تساهم في تهوئة الشجرة ومنحها شكلا ملائما،

وترتبط حدّتها بوفرة الإنتاج: فكلما كان الإنتاج أوفر كان الشذب أكثر حدّة ومزيلا لأقصى عدد ممكن من الأغصان ضمانا لصابة مقبلة جيدة ويدفع للشذّاب 3.5 فرنك يوميا[37].

هذا التقرير جاء ملما بواقع غراسة الزياتين والتي تعرف كغيرها من الأشجار والنبات تواترا لبعض الآفات المهدّدة للشجرة والثمرة على حدّ السواء. حيث تمت الإشارة لمرض "الكحلة"[38] le noir والمعروف كذلك عند الأهالي "بالمَنْ" الناتج عن حشرة صغيرة تستوطن الأغصان، وتفرز مادة سامة تسقط الأوراق والثمار قبل نضجها، وتعرف انتشارا واسعا في الغراسات المحاذية للبحر وبالأخصّ "الأصول الضعيفة"[39].

أما الآفة الأخرى التي أوردها مدير الفلاحة في تقريره فهي المعروفة بـle ver [40] واسمها Dacus oleae ولا تعطي مرادفا للدودة في اللغة العربية بل إنها إفراز خاص بحشرة مضرّة بالزياتين.

وتمثل الرياح الصيفية الحارة والجافة بالبلاد أو ما يعرف" بالشهيلي le Sirocco" الوسيلة الأنجع للقضاء عليها برغم تأثيرها السلبي على الغراسات الضعيفة والصغيرة. ولئن اكتفى التقرير بذكر هاتين الآفتين دون غيرهما، فإن شجرة الزيتون تبقى عرضة لبعض الآفات الأخرى: منها الفطري الذي يصيب الأغصان ويؤدي في بعض الأحيان إلى هلاك سريع للشجرة[41]. إضافة إلى ذباب الزيتون والذي تختلف تسميته بين شمال البلاد وجنوبها.

لكن تبقى الطيور المهاجرة أكثر فتكا وضررا بالزياتين، حيث تعرف منطقتا الساحل وصفاقس قدوم أعداد هامة منها قبيل عمليات الجني، وتهدّد الثمار بالأكل والإتلاف. والمتعارف أن إبعادها يتم بطرق متداولة كالصياح وضرب الأواني القصديرية[42]، ليتطور ذلك بعد تلك الفترة ليصل إلى استعمال السلاح الناري للترهيب.

وعموما يبقى التأثير السلبي لمختلف هذه الآفات والأمراض محدودا في غالب المواسم، وتقتصر الخسائر على الزياتين الضعيفة والمغروسة بجانب البحر أو التي تعاني إهمالا وذلك نادر الحصول بوسط البلاد وبسهول صفاقس خصوصا.

-ج- دور المغارسية:

نجاح هذه الغراسات بريف صفاقس يعود أساسا- إضافة إلى ما ذكر- إلى اعتماد الملاّك على عمّال فلاحيّين مختصّين في مثل هذه القطاعات من خلال إبرام نوع خاص من العقود هي عقود المغارسية: الذي يربط صاحب الأرض بأحد المزارعين الذين يتمّ انتدابهم من أرياف الجهة. ويسند إلى المغارسي جزء من الضيعة لا تتجاوز مساحته عادة الـ10هكتارات مع إمكانية حصوله على أضعاف ذلك[43]، مثل هذه العقود هي في الأصل نوع من العمل المشترك بين الطرفين، فالمالك يقدّم الأرض في حين يساهم العامل (المغارسي) بمجهوده العضلي، ومعرفته بالعمل مع توفير المستلزمات الضرورية: كأدوات الحرث والدواب الصالحة للجرّ...

وقد تحدّث بورد عن رصيد بشري هام توفّره قبائل المثاليث للعب دور المغارسي، ويذكر وجود ألفي مغارسي إضافة إلى ما توفّره العروش والفرق من يد عاملة مختصّة. هذه الشراكة بين الطرفين تنتهي عادة بعملية قسمة عادلة تكون مناصفة للأرض لما احتوته من أصول زيتون. تتم هذه العملية (القسمة) غالبا في السنة الثامنة[44] من تاريخ الغراسة في حين يرى بعض المهتمين بالشأن الفلاحي بأن هذه الخطوة تحصل على الأرجح بين السنة العاشرة والخامسة عشر. وعموما تحصل القسمة والشجرة قد دخلت طور الإنتاج وبعد أن أوفى كلا الطرفين بالتزاماته.

لكن تحدث الاستثناءات وتؤجل هذه العملية لمدة تصل إلى 20 سنة[45] ويرجع ذلك إلى رغبة الملاك في تأبيد شراكته مع المغارسي لإخضاعه والعمل على استغلاله. وقد دعا صاحب التقرير صراحة إلى ضرورة اعتماد المعمرين المتحصّلين على ملكيات بالجهة على المغارسية أصيلي أرياف صفاقس المتقنين لقواعد العمل الفلاحي والملمّين بكل مراحل غراسة الزيتون. ويذهب بورد برأيه إلى انسجام تام بين الطرفين وتكافؤ في الفرص. وتكون الأوضاع المعيشية وظروف العمل أفضل ممّا كانت عليه من الفلاح الأهلي بالنسبة للمغارسي.

-د- تفاؤل بالمردودية:

تبقى مسألة إنتاج شجرة الزيتون و مردوديتها في ارتباط وثيق بنجاعة العمل الفلاحي وبجهوزية الأرض إلى جانب ما تجود به السماء. ومن منطلق تحقيق هذا التقرير

لجملة من الأهداف المسطّرة مسبقا، كتشجيع الاستيطان الفرنسي بالجهة، ومضاعفة نسق الاستحواذ على أراضي الجهة، يبدو بورد شديد التفاؤل بمستقبل قطاع الزيتون على صعيد توسّع المساحات وأيضا المراهنة على قدرته على تعويض التكاليف المالية التي قدرها ب518 فرنكا لمساحة 10 هكتارات تحتوي على 200 أصل زيتون بعد أن كان العدد أقل من ذلك اعتمادا على الطريقة الأهلية في الغراسة[46].

لكن سرعان ما تنخفض هذه التكاليف عند إتمام القسمة واسترجاع المالك للتسبقات المدفوعة للمغارسي إلى جانب اكتمال نمو الأشجار وتجاوز المراحل الأولى التي تتطلب عناية خاصة مع الأخذ بعين الاعتبار خضوع الأشجار منذ السنة الخامسة عشر لضريبة الكانون المقدرة ب45 صنتيما (0.45 ف) للشجرة الواحدة[47]. وذلك ما يفضي إلى ارتفاع المرابيح المتأتية عن الهكتار الواحد بحيث تصل 68 فرنكا بعد اتّباع الطريقة الأهلية التقليدية في الغراسة أي 17 شجرة بالهكتار و80 فرنك عند تبني الطريقة الأوروبية، التي تجعل من الهكتار الواحد يحتوي على 20 شجرة.

لكن المتأمل لمختلف مراحل الإنتاج والنمو يجد أن الفلاح مجبر على الانتظار لعدة مواسم لجني المحاصيل والأرباح: فشجرة الزيتون تدخل طور الإنتاج الفعلي بعد خمس عشرة سنة من غراستها، ولتصبح ذات مردود هام ومستقر عليه الانتظار لخمس سنوات إضافية[48]. وهذا ما يجعله ملزما على إيجاد البديل طوال هذه الفترة. وحتى بعد أن تدخل الشجرة في طور الإنتاج تكون الصابة في حال تذبذب بين الضعف والتوسّط، وتسجل الصابة الجيدة مرة كل ثلاث أو أربع سنوات[49]، ويمكن اعتبارها المتنفس الوحيد للفلاحين، وخاصة للمغارسية لتعويض أتعاب سنوات طويلة من الانتظار والعمل الشاق مثّل فيها دور الرهينة عند المالك.

- تقديرات بورد حول ثمن و مردودية شجرة الزيتون[50]:

عمر الشجرة	ثمنها بالفرنك	المردودية		
		زيتون	زيت	نقدا (ف)
10 سنوات	15- 18	لم تدخل طور الإنتاج الفعلي		

15 سنة	35- 40	30 ل	6.9 ل	2.15 ف
20 سنة	45- 50	45 ل	10.3 ل	4 ف

هذه الأرقام التي يتشبّث صاحبها بمطابقتها للواقع الفلاحي بجهة صفاقس بنسبة كبيرة، يمكن اعتبارها من قبل المقدمين على اقتناء مساحات لتشجيرها واستغلالها محفّزة ومشجعّة إلى أبعد الحدود، لكن البعض من الملمّين بخصوصيات البلاد ومعطياتها الاقتصادية والتجارية اعتبروها ضربا من ضروب الخيال حيث صنّفها رجل الاقتصاد و المنظر الاستعماري الفرنسي **بول لروا بولي** Paul Leroy Beaulieu روايات ألف ليلة وليلة[51]. لكن تقديرات بورد المستقاة من عنصر أهلي متصل مباشرة بالأرض وجدت مساندة وتأكيدا من قبل المختصّين الفرنسيين في المجال الفلاحي حيث يذهب المتفقد الفلاحي مينانقوا Minangoin في تقريره إلى أبعد من ذلك بكثير من خلال تأكيده على أهمية إنتاج شجرة الزيتون في الموسم الفلاحي 1898-1899 وهو من المواسم الجيدة:

- مردودية شجرة الزيتون بصفاقس خلال الموسم الفلاحي 98-1899[52] :

	المردودية		
عمر الشجرة	زيتون	زيت	نقدا
10 سنوات	40 ل	4 ل (10 %	3.2 ف
15 سنة	70 ل	10.5 ل (15 %)	8.4 ف
20 سنة	100 ل	20 ل (20 %)	16 ف
25 سنة	120 ل	30 ل (25 %)	24 ف

كما تطرق مينانقوا إلى الصابة الجيدة جدا التي عرفتها غابة الزياتين بصفاقس في الموسم الفلاحي 1893-1894 أي مباشرة بعد إنجاز بورد لتقريره، وكأن الجهة أرادت منح بورد المزيد من المصداقية والواقعية.

لقد كان رأي الأخير أكثر تفاؤلا من بورد الذي منح الشجرة إمكانية الإنتاج في السنة الخامسة عشرة، وأكّد ضعفه في العاشرة مستندا على المصادر الأهلية، فإنّ متفقّد الفلاحة يمنح هذه الغراسة قابلية الإنتاج منذ العشرية الأولى بعد غراستها. كما

سجّل ثمن اللتر الواحد من الزيت خلال الفترة الفاصلة بين التقريرين (7 سنوات) ارتفاعا ملحوظا بـ15 صنتيما ليصل إلى 0.8 فرنك سنة 1900[53] وهو يعتبر في أحد أوجهه تأييدا لتوجّه بورد.

-د- ردود الفعل الرسمية وغير الرسمية عن التقرير:

مثل هذه التقارير الصادرة عن كبار الموظفين الفرنسيين بالبلاد لم تكن لتمرّ في الخفاء خاصة وأنها صدرت عن شخصيته مثلت الإدارة الاستعمارية خير تمثيل في تطبيق برامجها الاستعمارية التوطينية وفي ظرفية مفصلية بالنسبة للوجود الفرنسي بتونس.

الصدى الإيجابي لهذا التقرير ترجمته رغبة المتروبول في الحصول على ثلاث نسخ منه عن طريق الإقامة العامة[54]. وتأكّد هذا الطلب ثانية في فترة وجيزة لا تتعدّى الشهرين من خلال تكليف وزارة الخارجية[55] للمقيم العام روفيه بنقل التهاني لبورد بعد نجاح تقريره، ورواجه عند الأوساط الرسمية بباريس، وطلب خمس نسخ أخرى. فـ"التهافت" الرسمي أصبح واضحا وجليا على هذا التقرير، في حين كانت العشرات من التقارير الأخرى والمتطرقة لعدة جوانب تهم المتروبول ومستعمرتها لا تعدو أن تبقى مجرّد مراسلات بين الإدارات الاستعمارية. وهذا التجاوب في حدّ ذاته يعتبر مساندة لمساعي بورد بتونس والمشجّعة على الاستيطان والاستقرار بمجال لطالما بقي بعيدا عن أعين المعمرين.

بعد هذا التجاوب الرسمي السريع كان تقرير بورد محل اهتمام معاصريه والمهتمين بالشأن الاستعماري بتونس، حيث أكد شارل ريبان على ثراء هذا التقرير بالقول: "تبقى كل صفحاته للمطالعة بكل تمعّن"[56]. إذ بفضله ارتفعت نسبة الأراضي المخصصة لزراعة الزياتين، وأخذ هذا القطاع أبعادا أخرى.

كما اعتبر بورد حاملا لفكرة رائدة حول مجال شاسع وشبه جاف أمن بإمكانية إحيائه واستعادته لأمجاده. وبالرغم من معارضة الكثيرين فقد نجح في استمالة أصحاب القرار والميسورين، من خلال تركز الشركات الاستعمارية بريف صفاقس منذ 1893، إلى جانب قدوم الكثير من المعمرين الذين كان لهم نصيب من هذه الثروة العقارية بريف صفاقس.

2- تفعيل قطيع الضأن التونسي: مبادرة نموذجية لبورد:

أنجز هذا التقرير[57] استنادا إلى ما استخلصه السيد مراس Mares متفقد الفلاحة[58] بالبلاد من نتائج تتعلق بالقطيع التونسي من الأغنام خلال جولته بمعظم المراقبات المدنية، وأيضا الملاحظات التي وجّهها المراقبون المدنيون للمقيم العام كردّ على الاستمارة التي وجهها لهم بتاريخ 28 ماي 1892[59] لتقييم القطيع بتونس.

إضافة إلى الرغبة التي سادت كل الأطراف المسؤولة عن القطاع الفلاحي بنية تطوير مختلف جوانبه من إنتاج زراعي وحيواني وجعله في نهاية المطاف موظفا لصالح الاستعمار والمعمّرين.

واستنتج مدير الفلاحة أنه بالرغم من الإجراءات المتخذة لتشجيع المربين والفلاحين، فإن النتائج كانت دون المأمول، فلا الأهالي طوّروا طرق التعامل مع قطعانهم، ولا المعمرون جعلوا هذا الاختصاص من أولى اهتماماتهم لذلك نجده يعطي تشخيصا متميزا لواقع قطيع الأغنام بالبلاد.

-ا- تشخيص واقع القطيع التونسي:

بناء على المعلومات التي وفّرها المراقبون المدنيون يؤكد بورد على محدودية حجم القطيع التونسي من الأغنام عدديا والذي قدّر بـ1.223.481 رأس[60] وهو ما يمثل ربع (1/4) القطيع الموجود بالجزائر. هذا العدد اعتبر ضعيفا وبالإمكان مضاعفته ما بين خمس وستّ مرات[61] خاصة وأن بعض مناطق البلاد توفّر فرصا سانحة لانتشار أعداد هائلة كامتداد السهول وتوفر المراعي وكذلك تراجع عمليات النهب والسرقة التي كانت في السابق سائدة بين العروش والفرق. لكن وقع التغافل عمّا سبّبته سياسة إبعاد القبائل للاستحواذ الاستعماري على معظم المجالات التي مثلت سابقا أهم المراعي وانحسار القطيع بالوسط والجنوب أي بالمجال الجاف والقاحل.

فكيف كان التوزع الجغرافي للقطيع بالبلاد التونسية؟

لقد كشفت المعطيات التي وفّرها المراقبون المدنيون تباينا واضحا لتوزع القطيع بين مختلف المراقبات.

توزع قطيع الأغنام بالمراقبات المدنية في موفى 1892[62]

المراقبات المدنية	العدد (بالألف رأس)
المراقبة المدنية بالقيروان	154000
المراقبة المدنية بسوسة	138000
المراقبة المدنية بالكاف	114680
المراقبة المدنية بتونس	53812
المراقبة المدنية بباجة	52761
المراقبة المدنية ببنزرت	40319
المراقبة المدنية بصفاقس	34500
قيادة نابل	27107
المراقبة المدنية بمكثر	23692
المراقبة المدنية بسوق الإربعاء	20430
قيادة جربة	12467
المراقبة المدنية بتوزر	10700
حلق الوادي	15
المجموع	683405

الملاحظ أن المراقبات المدنية التي تحظى بعدد هام من الضأن هي تلك التي ضمّت قبائل أو عروشا عرفت بعراقة ممارستها للنشاط الرعوي، فقبيلة جلاص بالمراقبة المدنية بالقيروان وبمختلف عروشها ينطبق عليها هذا المثال إلى جانب المراقبة المدنية بسوسة والتي ضمت في جزئها الشمالي عروش أولاد سعيد، وجنوبا قبائل السواسي، والتي تبقى في اتصال مباشر مع جيرانها كجلاص والهمامة، بالإضافة إلى شساعة المجال الجغرافي لهذه المراقبة، في حين وفرت جهة الكاف كل عوامل النجاح لتواجد القطيع من خلال امتداد السهول، وخاصة ما يمكن أن تستفيد منه القطعان من مجال للرعي بعد عملية الحصاد بالمساحات الممتدة، لكننا لا نجد نفس هذا الحجم الهائل فكل من مراقبتي باجة وسوق الإربعاء.

في حين تبقى محدودية العدد بمراقبة توزر منطقية لعدة أسباب مناخية وطبيعية لا تتلاءم معها مثل هذه الحيوانات وتوجه الأهالي نحو تربية الإبل والجمال .أما

وبالنسبة لمنطقة التراب العسكري، فقد كانت الأعداد كالآتي وفق الأرقام التي أوردها ضباط مصلحة الاستعلامات التي يخضع لها هذا المجال:

توزع القطيع بالتراب العسكري في موفى1892[63]

المنطقة الإدارية	العدد (بالألف رأس)
دائرة قفصة	169890
فريانة	122000
قابس	94000
الوحدة الإدارية بمدنين	80300
دائرة تطاوين	40000
عين دراهم	16787
الوحدة الإدارية بقبلي	13400
دائرة جرجيس	4200
المجموع	539977

اعتمادا على هذه الأرقام يمكن تأكيد رأي بورد القائل بإمكانية مجاوزة القطيع لهذه الأرقام واستغلال المساحات المتوفرة. لكن من الواضح بأن عدة العوائق قد تقف حائلا دون ذلك فمناخ معظم جهات البلاد يتميز بالجفاف، انحباس الأمطار وعدم انتظامها، وانعدام المحزونات العلفية، مع تواتر السنوات الجافة والإمكانيات المحدودة للمربين. ولعل الفارق في العدد بين ما توفره المراقبات المدنية (683504) رأسا وما يوفره التراب العسكري(539977) رأسا خير دليل على تأثير المناخ التونسي على هذا القطاع.

وبالنسبة للنوعية الغالبة من هذه الحيوانات فهي من النوع ذي "الليّة الكثيفة"، وتسمى في بعض المصادر بالخروف ذي الذيل الكبير مع استثناءات بوجود ما بين 50 و 60 ألفا[64] من النوع ذي الذيل الصغير[65] المجلوبة من الجزائر. وتنتشر العديد من التسميات والأنواع: كـ"المرزوقي" بجهة الجنوب الغربي والمفضل، لوفرة الحليب الذي يوفره، إلى جانب نوع آخر بالمناطق الشمالية الغربية للبلاد.

وفي سياق تفسيره لمحدودية حجم القطيع بالبلاد يشدّد بورد على غياب التجهيزات الضرورية لإيواء مثل هذه الحيوانات : كالمآوي[66] والاصطبلات، والانعدام شبه الكلي للمخزونات العلفية التي تعتبر ضرورية خاصة عند الفترات القاسية والجافة وسجل بالمراقبة المدنية بمكثر[67] الاستثناء من خلال منح بعض فلاحي الجهة العلف لقطعانهم في فترات تساقط الثلوج.

إضافة إلى ذلك كان لاشتداد الجفاف وخاصة لاستمراره الأثر السلبي على نمو عدد الرؤوس بكامل البلاد، بحيث كانت الخسائر فادحة[68] كما حدث سنة 1881. أمام ندرة المراعي وانحسارها بالمناطق الشمالية يجبر أغلب المربين بكل من الوسط و الجنوب على توجيه قطعانهم نحوها.

كما تنطلق هذه العملية المألوفة في فصل الخريف لتنتهي مع حلول الربيع، لتشمل معظم المراقبات بالبلاد حيث تعرف توجيه قطعان المراقبتين المدنيتين بكل من تونس وبنزرت نحو سهول القيروان وصفاقس، وتصل في بعض الأحيان وللضرورة إلى منطقة الأعراض (سهول قابس)، بينما تكون جهة الوسط الغربي الوجهة الرئيسية لقطيع مراقبات الشمال الغربي. مثل هذه العمليات يقوم بها الرعاة الذين يتم اختيارهم حسب مهاراتهم وإلمامهم بأماكن المراعي، وينحدر هؤلاء في الأغلب من قبائل الفراشيش، جلاص، والهمامة وفريق عكارة (جرجيس).

وكثيرا ما ينتج عن هذا الالتقاء المكثّف بمناطق محدودة بعض التوتر المتعلق أساسا بالمراعي، أو ما يعرف بـ"العشابة"، وبالأولوية في استغلالها أو ما شابه ذلك من مشاكل هي في العادة مألوفة وعند الاقتضاء يؤول الأمر بين يدي القاضي[69].أمّا الأقلية من الفلاحين الأهالي والمتأثرين إلى حدّ ما بما أدخله جيرانهم الأوربيون من تحديث وتركيز للمأوي وتخزين للعلف، فإن قطيعهم يبقى متمركزا بملكياتهم وغير ذي حاجة للتنقل.

تأصّل تربية الماشية جعل من بعض المناطق والمدن بالبلاد تعرف على أنها أسواق خاصة ودائمة بهذه النوعية من الحيوانات; وهي في العادة أسبوعية، وتكون مقصدا للفلاحين المربين من جهة، وللراغبين في الشراء إما للاستهلاك الخاص في المناسبات الدينية والخاصة أو لمحلات الجزارة.

أهم أسواق بيع القطيع بالبلاد[70]

الشمال	ماطر- العالية- منزل بوزلفة- باجة- سوق الأربعاء- طبربة- الفحص- سوق الخميس
الوسط والساحل	مساكن- جمال- العلا- حاجب العيون

وخلال عملية بحثها عن المراعي، تبقى قطعان الماشية عرضة للعديد من الأمراض المتأتية أساسا من الماء الملوث الذي كثيرا ما ترتاده الأغنام، إضافة إلى ما تتسبب فيه أعشاب مراعي الشمال المكسوة بالضباب والرطوبة من أمراض أخطرها مرض" الحمرا[71] Hamra" بالإضافة لبعض الأمراض التي تصيب الأمعاء والكبد[72]، وتزيد قلة الإمكانيات والجهل بالطرق المثلى للوقاية والعلاج من مضاعفة الخسائر. هذا القطيع الذي يمثل الثروة الوحيدة لفلاحي بعض الجهات بالبلاد لم يرتق إلى مستوى يؤهله ليفرض نفسه كقطاع منتج ومصدر، ففي الجوار تصدّر الجزائر سنويا ما يفوق المليون رأس من الأغنام باتجاه السوق الفرنسية وباقي المجال المتوسطي وبات تطوير هذا القطاع أمرا عاجلا.

-ب- إدارة الفلاحة تتدخل وتطرح البدائل:

أمام هذا الركود الذي يعيشه قطاع الأغنام بالبلاد، وغلبة الطرق التقليدية في التعامل مع القطيع، وأمام عزوف الأغلبية الساحقة من المربين المحليين والأجانب عن تحسين مردودية قطعانهم، تدخلت إدارة الفلاحة من خلال القيام ببعض الإجراءات العملية، بغاية التشجيع على ضمّ نوعية جديدة من الخرفان تستورد من الجزائر وتعرف بالنوع الجزائري ذي "الليّة الخفيفة"[73] La race Barbarine à queue fine وقد اشترط بورد لنجاح هذه العملية اتخاذ خطوتين هامتين: تترجم الأولى من خلال منح هذه النوعية "المستوردة" الأولوية على مراعي الأراضي الدولية، وإعفاء مربيها من دفع الأداء الموظف على "العشابة". وقد طبّقت هذه التجربة الفريدة بالمجال الفلاحي ببوثدي على حدود

المراقبات المدنية بكل من سوسة صفاقس والقيروان والمقدّرة مساحته بـ60 ألف هكتار[74]. وقد لاقت هذه العملية صدى واسعا من خلال تناقل الرعاة بكل المناطق الامتيازات الممنوحة لهذا النوع الجديد من القطيع، خاصة مع شيوع فكرة تعميم هذه التجربة بباقي الأراضي الدولية المبرمجة كمراعي.

حاجة المربين لمثل هذه النوعية الجديدة، ومطالبتهم بتوفير المزيد من أعدادها تجعل إدارة الفلاحة تطبّق الخطوة الثانية من برنامجها الرامي لتطوير القطيع التونسي. فبمجرّد أن يعبّر المربّي عن رغبته في تطوير قطيعه كميا و نوعيا وبعد إيداع المطالب المتضمّنة للعدد المراد الحصول عليه بكل من مقر القباضة المالية بتونس، بمقرات المراقبات أو عند القياد[75]، تتكفل إدارة الفلاحة بعد ذلك ممثلة في شخص متفقد الفلاحة بجلب القطعان من الجزائر وتتحمل كل المصاريف المتعلقة بالعملية (الشراء، النقل، الإيواء). تتم عملية التسليم بمقرات المراقبات المدنية وبنفس الأسعار المعمول بها بالجزائر وبدون فوائد[76].

ولضمان مردودية أفضل للقطيع يرى بورد أن الوسيلة الأنجع لذلك تتمثل في تمكين المربين والفلاحين الذين بادروا باقتناء إناث من النوع الجزائري ذي الذيل الخفيف والمالكين لمأوي مخصصة لذلك من "أكباش مارينوس بلاد الكرو"[77]Marinos de la Crau المعروفة بصلابتها، وبقدرتها على التحمّل، خاصة وأنها سريعة التأقلم مع مناخ البلاد. إضافة إلى أن عملية التزاوج بين هذا النوع والإناث المجلوبة من الجزائر ستمنح- بمرور الوقت- قطيعا مغايرا لما هو عليه الآن من حيث العدد والخاصيات.

فهل حصل تجاوب مع ما نادى به بورد؟

لقد كان بورد يأمل في تجاوب رسمي من شأنه تكريس هذا التوجه الجديد في أسرع الآجال، ولم ينتظر كثيرا حيث صدر الأمر العلي بتاريخ 19 مارس 1893[78] المنظم لعملية بيع أكباش مارينوس وأغنام من النوع الجزائري. وأما مساهمة الأهالي في إنجاح هذه الخطوات فقد راهن عليها مدير الفلاحة واعتبر المربين المحليين عنصرا فاعلا في العملية، والتي بدورها لم تخيب آماله، حيث أقدم بعض الأعيان المحليين على تطعيم قطعانهم بهذه

الأنواع الجديدة، كما هو الحال مع قايد السواسي الذي شجع أهالي الجهة على تبني هذه الفكرة لتجويد القطيع.

كما سجل تجاوب بعض الفرق والعروش مع أفكار بورد كأحد فروع ماجر وأولاد عون الذين طالبوا بتمكينهم من الخرفان الجزائرية ذات الذيل الصغير (وذلك أحد أوجه صدى التجربة الحكومية ببوثدي).

وإذا علمنا بأن ثمن الكيلوغرام الواحد من اللحم الذي يوفره هذا النوع من الخرفان والمقدر بـ1.7 فرنك[79] يتجاوز بـ30 صنتيما نفس الكمية التي يوفرها خروف من فصيلة ذي الذيل الكبير فإن ذلك من شأنه تحريك سواكن الراغبين في الربح المادي، خصوصا وأن عمليات البيع بالأسواق تشهد أيضا تفوّقا للنوع الجزائري بثمن يقدر بـ20 و25 فرنك للرأس مقابل 14 و 17 فرنك للنوع المحلي. هذا الفارق يعود أساسا إلى مذاقها الخاص[80] والمطلوب بشدة بالسوق التونسية والجزائرية وحتى الفرنسية التي بقيت تنتظر المنتوج الحيواني التونسي.

وفي تواصل للتجاوب مع هذه التوصيات التي أوردها بورد أدرجت الغرفة المختلطة للتجارة والفلاحة بسوسة[81] تربية الخروف ذي الذيل الصغير ضمن المسائل المهمة التي يجب مناقشتها منذ أول جلساتها.

وفي خطوة وقائية وضمانا لسلامة القطيع من الأمراض المعدية، كمرض الحمى أو الأكلة السوداء أو المرض العجمي[82] ألزمت الحكومة الفلاحين بما يلي من تدابير حمائية:

-حجز القطيع المصاب لمدة خمسة عشر يوما ومنع اختلاطه بباقي القطيع السليم منعا لتسرب العدوى.

-منع البيع أو الذبح للاستهلاك.

-اتخاذ جملة من الخطوات عند الإصابة.

وتبقى أمام المربين الراغبين في الاستفسار وجلب الأدوية الاتصال بإدارة الفلاحة أو بمصالحها، لكن غاب عن الأذهان صعوبة التنقل بالنسبة لكثير من المربين بالداخل وبالجنوب. كما لا يمكن التعويل على حصول تجاوب كبير وهام، فالطرق التقليدية في التعامل مع هذه الحالات رائجة بكثرة ولا مجال لمنافستها طبيّا.

هذا التفاعل الإيجابي مع تقرير مدير الفلاحة على المستوى الرسمي المتمثل في التشريعات والقوانين، إلى جانب انصهار الأهالي في هذه العملية "التأهيلية" لقطاع ستحاول الإدارة الاستعمارية توظيفه لصالح المد الاستعماري الرامي إلى نهب معظم الخيرات، يقيم الدليل على نجاعة تدخل بورد وإيمانه بأن المساهمة الأهلية في النهوض بكل القطاعات الفلاحية أصبحت أمرا لا مفر منه.

3-حرص إدارة الفلاحة على مجابهة الآفات : التصدي للجراد مثال:

يبقى الجراد من أكثر الآفات فتكا بالمحاصيل الزراعي،ة نظرا لتواتر قدومها ولشساعة المجال الجغرافي الذي تكتسحه بأعداد هامة. في مقابل عجز دائم للفلاحين عن مقاومتها مع غياب للطرق الكفيلة بذلك. وقد منحت إدارة الفلاحة بتونس المجهود "الوقائي" أهمية بالغة من خلال التركيز على السبل الرامية إلى التقليص من حجم الخسائر الناجمة عن هذه الآفة.

في هذا السياق يشير بورد[83] إلى أولوية القضاء على بيض هذه الحشرات قبل عملية التفقيس، نظرا لأهمية هذه الخطوة الاستباقية في التقليص وبشكل كبير في أعداد الجراد. يتحدث يورد في تقريره عن نوعين من هاته الحشرة: فحسب التعريف الذي يضعه الأهالي تعرف الأولى بالجراد العربي وعلميّا بـStauronotus marocanus وهذا النوع يعرف بتواتر قدومه للبلاد منذ 1888 دون تسجيل خسائر كبرى في مستوى الزراعات. أما النوع الثاني الذي اكتسح البلاد سنة 1891 والمعروف محليا باسم جراد الأدارم Acridium peregrinum والذي يستهلك في بعض الجهات.

يكمن الخطر المتأتي من هذه النوعية الأخيرة إضافة إلى الخسائر الزراعية في كثرة أعدادها، وسرعة تفقيس بيضها والتي لا تتعدى الشهر من تاريخ وضعها. وقد تسببت في خسائر فادحة عند اكتساحها للبلاد التونسية سنوات 1866، 1874، 1875، 1877[84] .

وتبقى المناطق الحدودية والواقعة على أطراف الصحراء أولى محطات هذه الآفة حيث سجلت أولى عمليات بروزها بالمراقبة المدنية بتوزر يوم 20 فيفري 1891[85]، وتحديدا بالمنطقة الواقعة بين نفطة وشط الغرسة لتلتحق بها أعداد أخرى اجتاحت معظم منطقة الجريد وقفصة، وهي المناطق التي عرفت تواترا كثيفا لغزو الجراد خلال فترات زمنية قصيرة الشيء الذي باغت الفلاحين، خاصة وأن مثل هذا المجال يشكو نقصا

ديمغرافيا، قد يعرقل نسق التصدي له إضافة إلى سرعة تقدم في ظل ملائمة العوامل الجوية والمناخية (غياب الأمطار وضعف قوة الرياح). وبمرور الوقت أخذت الرقعة الجغرافية التي شملها تركّز هذه الآفة بالاتساع خاصة مع تعدد محاور تقدمها. ففي اليوم الرابع من شهر مارس وصلت أعداد منها إلى واحات قابس لكنها لم تمثل تهديدا فعليا.

وبداية من منتصف مارس اجتاحت منطقة تمغزة وما يعرف ببلاد السقي، وكانت الخسائر فادحة لتعرف بعد ذلك الاستقرار بكامل جهة قفصة ومن كثافة أعدادها أنها صورت من قبل المصادر وكأنّها تنتقل في شكل "سحاب كثيف"[86].

ولم يمض شهر مارس حتى اكتسحت المناطق المحيطة بقابس بشكل تام. وبفضل المراسلات المستمرة للمراقبين المدنيين والقياد، أمكن رصد مجالات تحرك هذه الآفة فقد اتجهت شمالا حيث سجل وصولها يومي 4 و5 أفريل إلى كل من الصخيرة والمحرس جنوب صفاقس. وبعد ذلك بمدة سجل أقصى تقدم لها بمنطقة الجم وكذلك الشأن بفريانة على الحدود الجزائرية.

فإلى هذه الحدود الجغرافية يبقى الجراد متمركزا بالأساس في الجزء الجنوبي من البلاد وكان التخوف كبيرا من تسربه نحو الشمال حيث ستكون الخسائر أكبر بغراسات الكروم والحبوب في فترة حساسة من الموسم الفلاحي.

لقد كانت هذه التخوفات في محلها، إذ سرعان ما انتشرت هذه الحشرات بكثافة بكامل منطقة الساحل[87] وسجل الحضور خاصة بقيادات المهدية وجمال، أين وفرت لها الزياتين والأراضي المهيّأة الأرضيّة المثلى للتكاثر من خلال ترك بيضها أرضا.

استقرار العوامل المناخية وبداية ارتفاع الحرارة ساعدت هذه الأفواج العديدة على بلوغ منطقة مرناق ومجاز الباب في أوائل شهر ماي[88] وهو ما مثّل تهديدا مباشرا لغراسات الكروم، التي حاولت السلطات الفلاحية والمدنية ضمان حمايتها كما هو الشأن بباقي جهات البلاد جنوبها ووسطها.

منذ أن سجّلت بوادر تفشّي هذه الآفة بمختلف جهات البلاد كان تدخّل إدارة الفلاحة سريعًا باعتبارها الجهاز الإداري الأوّل المسؤول عن القطاع الفلاحي، من خلال توفير أجهزة خاصّة للقضاء على هذه الحشرات: Appareils cypriote. والتي وضع الكثير منها على ذمّة فلاّحي ومعمّري الجهات المتضرّرة: 100 جهاز لجهة توزر، ومثلها لقفصة و

صفاقس، وتحسّبًا لكلّ طارئ تمّ تخصيص 213 جهازًا آخر لمراقبة الكاف، مكثر والقيروان وقد وصل إجمالي هذه الآلات الممنوحة 1100 جهاز[89] منها ما هو مجلوب من الجزائر. وأمام الحاجة الماسة والأكيدة لهذه الأجهزة تمّ تركيز وحدة لتصنيعها بالعاصمة[90] وتمّ كذلك الاستنجاد بسوائل مستخرجة من الزيوت الثقيلة سيتمّ توفيرها من وهران بالجزائر تستعمل للفتك بالجراد.

جهود إدارة بورد لم تكن الوحيدة للتصدّي لهذه الآفة، فقد عاضدتها السلطات المدنيّة بالجهات وعن طريق المراقبين المدنيين وأعوانهم ،وخاصّة أعوان السلطات العسكريّة التي وفّرت العدد الكافي من الجنود والضبّاط، وسخّرت فرق الصباحيّة بجهات عديدة[91] للقضاء على الجراد بأماكن تجمّعه.

من جانبها قرّرت الحكومة بداية من 18 مارس 1891 توفير مبلغ مالي هام لتغطية المصاريف المتعلّقة بهذه العملية، وقد بلغ هذا المبلغ 25 ألف ريال ثمّ تمّت مضاعفته واستقر أخيرًا على 166 ألف ريال وهو مبلغ بإمكانه دعم المجهودات المبذولة بكافّة المراقبات.

ومع اشتداد وطأة هجمة الجراد صدر الأمر العلي بتاريخ 7 ماي 1891[92] والقاضي بإجباريّة التصدّي لهذه الآفة على كلّ الفلاحين والمستغلّين الفلاحيين والعاملين بالضيعات والملاّكين والأجراء وقد منح هذا الأمر السلطات المحليّة إمكانيّة تسخير متساكني المناطق المتضرّرة للمقاومة والتصدّي وذلك في حدّ ذاته يندرج ضمن صلاحيات القياد.

فما مدى مساهمة الأهالي في هذه المجهودات؟

لقد كان التحّرك الأهلي لصدّ تقدّم الجراد تلقائيّا منذ البداية وفي فترات سابقة لصدور الأمل العليّ. فقد أشاد بورد[93] بنجاح التدخّل الأهلي بواحات قابس على وجه الخصوص، حيث تمكّنوا من القضاء على ما تمركز هناك من الجراد دون الحاجة إلى طلب العون من باقي الأطراف الأخرى (إقبال بعض السكان على استهلاك الحشرات) وساندوا بكثافة المجهودات المبذولة بجهة قفصة.

كما كانت مشاركاتهم فعّالة في الحضائر المتنقّلة التي تمّ تركيزها بأرياف صفاقس تحت إشراف أعوان المراقبة المدنيّة، وساهموا في إنجاز عمليّات حرث الأراضي الفلاحيّة.

نفس هذه المساهمة نوّه بها مدير الفلاحة والتي تمّت بالمراقبة المدنيّة بسوسة، حيث تمّ في الفترة الممتدّة بين 24 أفريل و12 ماي تجميع 60 ألف كيلوغرامًا[94] من بيض هذه الحشرات خاصّة بقيادتي المهديّة وجمّال (تتمّ عمليّات الوزن بحضور القيّاد). وأتمّ الأهالي كذلك عمليّات حرث ممتلكاتهم بسرعة.وساهم الأهالي في إتلاف الأحراش بمناطق زغوان والفحص من خلال إشعال النار. لكون هذه التكوينات العشبيّة والنباتيّة تمثّل ملجأ لأعداد هامّة من الجراد. وبفضل هذه المجهودات كانت الخسائر محدودة بأرياف صفاقس وسوسة وفي حين كانت بالغة نسبيًّا بجهتي مجردة مجاز الباب.

من الملاحظ أنّ بورد لم يتجاهل هذه المجهودات الأهليّة، بل نزّلها ما تستحقّه من المكانة، واعتبر تدخّل الأهالي من ملاّكْ، مستغلين وعمّال فلاحيين ناجحًا وساهم بنسبة كبيرة في التقليص من الأضرار والخسائر.

لقد عكست جميع هذه المجهودات المبذولة من قبل مختلف الأطراف المتصديّة لآفة الجراد التقاء الجميع حول غاية واحدة، تمثّلت في حماية المحاصيل الزراعيّة حتّى ولو اختلفت زوايا النظر إليها: فالإدارة الاستعماريّة بمختلف أطرافها المتدخّلة عَمِلَت جاهدة على حماية أهمّ قطاع استعماري بتونس تركّزت حوله المجهودات الرسميّة وغير الرّسميّة (قوانين عقاريّة أموال مستثمرة، تشجيعات وحوافز). في حين هبّ الأهالي لحماية الأراضي لكونها تمثّل أحد مقوّمات هويّتهم ووجودهم ،حتّى وإن أصبحت الاستفادة منها في تراجع في ظلّ تكرّس واضح للهيمنة الاستعماريّة.

خاتمة :

يمكن الإقرار بأن مبادرات إدارة الفلاحة منذ تأسيسها قد صبغت بطابع تحديثي قصد النهوض بقطاع مثل محور العملية الاستعمارية بتونس، وهي تندرج ضمن سياق استعماري جديد اعتمد منذ 1892، جوهره تنشيط الاستيطان، وتكريس التفوق العددي لأبناء المتروبول في إطار العشرية الأولى، للحماية التي طغى عليها التنافس مع الإيطاليين. الملفت للانتباه الدور الريادي الذي لعبه بول بورد من خلال إعطائه الأولوية المطلقة للقطاع الفلاحي باعتباره القاطرة الجارة لاقتصاد مثل اقتصاد البلاد التونسية. معظم هذه المبادرات لا تعدو أن تكون محاولة منه لتجاوز مرحلة لم ترتق لتطلعات الفرنسيين.

كما لا يمكن كذلك تجاهل المكانة التي يوليها هذا الإداري للمجهود الأهلي، المترجم بالتجاوب بكل المراحل التي مرت بها هذه المبادرات، وبأغلب المناطق التي شملها الجانب التحديثي وهو مجهود يراه ضروريا لإنجاح المرحلة الاستعمارية.

الهوامش:

1- أرشيف وزارة الشؤون الخارجية. سلسلة أوراق أعوان، بكرة 511، صندوق 496، ملف1: تقرير بورد حول زراعة الزياتين بالبلاد التونسية موجه لمفوض الإقامة العامة بتونس بتاريخ 17 أوت 1891. و10.

2- - القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية والرأسمال الاستعماري ظهير صفاقس (1892-1929)**، منشورات كلية الآداب منوبة، 1992، ص 182.

3- - Barabon (Léopold): *A travers la Tunisie*, J Rothschild, éditeur Paris 1887, p 169.

4- - أ. و. ش. خ. س أوراق أعوان، أوراق روفيه ، بك511، ص 496، م.1، و16: تقرير مدير الفلاحة إلى مفوض الإقامة العامة بتونس بتاريخ 17 أوت 1891 حول زراعة الزيتون بالإيالة.

5- - البرشاني (سمير): **النشاط التجاري بجهة صفاقس بين 1881و1929**، ش. دكتوراه، تونس 2002، ص31.

6- - أ. و. ش. خ، **م.س**، و16.

7- بارابون (ليوبولد): **عبر البلاد...**، **م.س**، ص171.

8 - البرشاني (سمير): **النشاط التجاري ...**، **م.ن**، ص.34

9 -Yazidi (Bechir) : ***La politique coloniale et le domaine de l'Etat en Tunisie,*** faculté de la Mannouba, édition Sahar, Tunis, 2005.p77

10- القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية ...**، **م.ن**، ص .68

11 - **م. ن**، ص 66.

12- يزيدي (بشير): **السياسة الاستعمارية...**، **م.س**، ص73

13- - القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية ...**، **م.ن**، ص .67

14- الرائد الرسمي، أمر مؤرخ 2 جانفي 1895، الفصل الأوّل.

15- أرنوليه (فرانسوا): **المقيمون العامون.. أولئك المكروهون**.ناراتيون للطباعة مرسيليا 1995، ص42

16- أ. و. ش. خ. س. تونس 1885-1916، بك 155، ص226، م1: مراسلة المقيم العام بتونس روفيه Rouvier إلى وزير الخارجية Deville حول الأراضي السيالية بتاريخ 7 أوت 1893. و159 وما يليها.

17- **ن. م**، و159 وما يليها.

18- بونسيه (جون): **الاستعمار و الزراعة الأوربية في تونس منذ 1881**.المطبعة الوطنية باريس 1962، ص172.

19- القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية ...، م.س**، ص .65

20- بن بلقاسم (إبراهيم):**هنشير النفيض بالوسط التونسي من 1873-1936**ة،شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1987-1988، ص.88

21- البرشاني (سمير): **النشاط التجاري ...، م.س**، ص.34

22- القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية ...، م.س**، ص 222.

23- البرشاني (سمير): **النشاط التجاري ...، م.س**، ص40.

24- بورد(بول): **تقرير للمقيم العام روفيه حول الأشجار المثمرة بالأخص الزيتون بالوسط التونسي** (بالفرنسية)، تونس جوان 1893.

- Bourde (Paul) : *rapport au résident général Rouvier sur les cultures fruitières et en particulier sur la culture de l'olivier dans le centre de la Tunisie,* Tunis 1893.

25- بورد(بول): **تقرير للمقيم العام ...، م س**، ص .1

26- بورد(بول): **تقرير للمقيم العام...، م س**، ص 26.

27- **ن.م**، ص .27

28- **ن. م**، ص .27

29- بورد(بول): **تقرير للمقيم العام ...، م س**، ص.25

30- **ن.م**، ص .28

31- **ن. م**، ص .28

32- **ن.م**، ص .30

33- **ن.م**، ص .30

34- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش): **غراسة الزيتون بالإيالة التونسية، الإدارة العامة للفلاحة والتجارة والاستعمار**، مطبعة فيبر Weber، تونس، 1913، ص .3

35- بورد (بول): **التقرير...، م. س**، ص .30

36- بورد (بول): **التقرير... ، م. س** ، ص 33.

37- **ن. م**، ص .34

38- **ن.م**، ص.34

39- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش): **غراسة الزيتون...، م س**، ص .26

40- بورد (بول): **التقرير... ، م. س**، ص .34

41- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش)**: غراسة الزيتون...، م. س**، ص .26

42- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص .30

43 - Minangoin (N) : *Culture de l'olivier dans le centre de la Tunisie exploitation par Mgharci et exploitation directe*, Tunis. Rapide, 1900, p 2.

44- بورد (بول): **التقرير...، م. س**، ص.39

45- القسنطيني (الكراي): **الأرياف المحلية...، م س**، ص .31

46- بورد (بول): **التقرير...، م. س**، ص .44

47- **م. س**، ص .42

48- **ن.م**. ص 46.

49- **القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية...، م س**، ص .99

50- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص.25

51- بونسي (جون): **الاستعماروالفلاحة...، م س**، ص .172

52- مينانقوا (ن): **غراسة الزيتون...، م. س**، ص15.

53- **م. س**، ص .16

54- أ.و.ش.خ.س. تونس 1885-1916، بك155، ص226، م 1، و 159-161: مراسلة الإقامة العامة لوزارة الخارجية بتاريخ 7 أوت 1893.

55- أ.و.ش.خ.س. تونس 1885-1916، بك155، م. س، م 1، و 166: مراسلة من المقيم العام لوزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 28 سبتمبر 1893.

56- ريبان (شارل): **محاضرات حول...، م س**، ص 45

57 - Bourde (Paul) : *rapport à Mr Rouvier Résident Général de France sur l'élevage de mouton en Tunisie, imprimerie rapide*, Tunis, 1893.

58- **م. س** ، ص .7

59- أ.و.ش.خ.س. أوراق أعوان، أوراق روفيه، بك.511، ص 496، م 1، و 332-333، مراسلة المقيم العام للمراقبين المدنيين بتاريخ 28 ماي 1892.

60- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص .5

61- ريبان (شارل): **محاظرات...، م. س**، ص .97

62- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص .5

63- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص 5.

64- بديرة (المازري): **التحديث والمستوطنون الفرنسيون في الساحل التونسي مع إطلالة القرن العشرين ضمن من البيزاكيوم إلى الساحل: مسيرة منطقة تونسية عبر العصور** ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ندوة قسم التاريخ1999 ، ص .46

65- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص .8

66- **ن. م**، ص .9

67- **ن. م**، ص .9

68- **ن. م**، ص .8

69- **ن.م**، ص 10.

70- بورد (بول): **التقرير...، م. س**، ص .10

71- **ن. م**، ص .9

72- **ن.م**، ص .12

73- الرائد التونسي: **أمر مؤرخ في 19 مارس 1893**، الفصل الأول.

74- بورد (بول): **التقرير... ، م. س** ، ص 22.

75- **م.ن**، ص .23

76- **ن. م**، ص .23

77- الرائد التونسي ، **م. س**، الفصل الثاني.

78- **ن. م.**

79- بورد (بول): **التقرير...، م. س** ، ص .25

80- ريبان (شارل)، **محاضرات...، م س**، ص .99

81- بديرة (المارزي): **التحديث والمستوطنون...، م س**، ص .45

82- الأرشيف الوطني التونسي: سلسلة G. صندوق 9 ، ملف 26 . وثيقة .76

83- أ.و.ش.خ.س تونس 1885-1915، بك.154، ص 224، م 1، و 205-210: تقرير بورد موجه إلى المقيم العام ماسيكو حول اكتساح الجراد للبلاد التونسية بتاريخ 11 أفريل .1891

84- **ن. م**، ص 206.

85- **ن. م**، ص 206.

86- أ.و.ش.خ.س تونس 1885-1916، بك.154، **م. س**، و 206 وما يليها.

87- أ.و.ش.خ.س. تونس 1885-1916، بك.154، **م. س**، م 1، و 227-228: تقرير بورد موجه للإقامة العامة حول انتشار الجراد بالبلاد التونسية بتاريخ 16 ماي .1891

88- أ.و.ش.خ، بك.154، **م. س**، م 1، و .227

89- **م. س**، ص227 وما يليها.

90- **م. س**، ص227 وما يليها.

91- أ.و.ش.خ. بكرة 154، **م.س**، و.201

92- أ.و.ش.خ. بكرة 154، **م.س**، و.227

93- أ.و.ش.خ. بك 154،و206 وما يليها.

94- **م. س**، و227.

الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصّليبية بالمشرق الإسلاميمن بداية الفاطميين إلى نهاية المماليك

(362هـ - 922هـ /973م- 1517م)

أ/ محمد عيساوة

جامعة باجي مختار -عنابة -

الكلمات المفتاحية: المغاربة – الحروب الصليبيّة – المشرق الإسلامي – العهد الفاطمي – العهد الزنكي – العهد الأيوبي – عهد المماليك.

الملخص :

يتناول هذا المقال الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصليبيّة بالمشرق الإسلامي من بداية الفاطميين إلى نهاية المماليك، ومن منطلق هذا الدور الرّيادي الذي لعبه المغاربة في هذه الحروب، أردنا إماطة اللثام عن هذا الموضوع، من خلال سرد الشواهد التاريخية التي تثبت وقوف المغاربة صفا واحدا إلى جانب إخوانهم المشارقة للتّصدي لهذه الحملات الشرسة، ممّا يُعطي صورة واضحة لتواصل الغرب الإسلامي مع بلاد المشرق خلال العصر الوسيط في كل الميادين، لاسيما الميادين العسكرية .

Résumé :

Cet article traite du rôle militaire des Maghrébins dans les croisades à l'Orient islamique depuis le début des Fatimides à la fin de mamelouk, de ce rôle de pionnier joué par les Maghrébins dans ces guerres, nous avons voulu découvrir ce sujet par des preuves historiques prouvant le soutien des Maghrébins à leurs frères de l'Orient pour répondre à ces féroces campagnes, ce qui donne une image claire du contact de l'Occident musulman avec L'Orient au Moyen Age dans tous les domaines, en particulier les domaines militaires.

تمهيد:

كان العالم الإسلامي خلال الحروب الصليبية يعيش ظروفا سياسية صعبة كرّست الانقسام الحاصل والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين، وعلى الرغم من الظروف السّيئة التي أحاطت بالعالم الإسلامي نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام في الحياة، فإن الدّول الإسلامية، بما بقي فيها من اعتزاز بمنهج دينها، لم تستسلم لهذا الغزو الصليبي طالما فيها بقية على القدرة في المقاومة .

هذا ما أدى إلى إعلان حالة النفير في العالم الإسلامي للتصدّي لهذه الحملات الصليبية المنظّمة، تُرى ما هو رد فعل دول العالم الإسلامي إزاء هذه الحملات الصليبية؟، وهل كان للجالية المغربية التي استقرّت بمختلف الحواضر المشرقية دور في ذلك؟.

1- العهد الفاطمي (362- 567هـ)/ (973- 1171م):

عاصرت الحملة الصليبية الأولى[1] وجود الفاطميين ببلاد المشرق، ومن المعلوم أن المجتمع الفاطمي قد ضمّ في ثناياه قوة مغاربية كان عمادها قبيلة كتامة، والملاحظ أن هؤلاء المغاربة قد لعبوا دورا كبيرا في التصدي للصليبيين، إذ كان اشتراكهم في الحروب الصليبية في المشرق ليس غريبا في شيء، لا سيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت تعيش نفس الظروف في صراعها مع النصارى المسيحيين في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.[2]

استمد الفاطميون قوتهم الحربية من عنصرين أساسين هما العنصر المغربي والعنصر المشرقي، فالمغاربة هم من البربر، وكان من أهم قبائل البربر التي أمدّت الجيش برجالها فروع الكتامية والباطلية، والمصامدة والجوذرية "نسبة إلى قائدهم جوذر"، وزويلة التي جاءت مع جوهر الصقلي من المغرب[3]، ويؤكد ناصر خسرو على أن الجيش الفاطمي كان عماد قوته الكتاميين إذ يقول: "كان في الجيش الذي يخرج للقتال فرقة تسمى فرقة الكتاميين، هم من القيروان أتوا في خدمة لدين الله، وقيل أنّهم عشرون ألف فارس".[4]

ونود أن نشير إلى أن المغاربة، قبل أن يشتركوا في الحروب الصليبية المنظمة، قد ورد ذكرهم في المصادر التاريخية، حيث يورد المقريزي دورهم في التصدي للحملة البيزنطية التي قادها تزيمسكيس المعروف في المصادر العربية بابن الشمشقيق في أواخر سنة 364هـ، وأوائل سنة 365هـ- 976م، والذي قام بحملة برية ضخمة مستهدفة المدن

الداخلية بالشام، والتي كانت تحت حكم الفاطميين (حمص وبعلبك) ثم تحولت إلى مدن الساحل (بيروت وصيدا).[5]

يستفاد من الرواية التي ذكرها المقريزي أن جهود المغاربة بدأت مبكرة، ونقرأ ذلك من خلال ذودهم عن بلاد المشرق والتصدي للحملات البيزنطية.

هذا وتشير المصادر أيضا أن القائد الفاطمي نصير الخادم الصقلي وصل بيروت بطريق البحر ومعه عسكر كثير من المغاربة للدفاع عنها، إلى جانب مغادرة ريان الخادم دمشق ومن معه من المغاربة بغرض الدفاع عن طرابلس بعد أن جاءت الأخبار بنزول البيزنطيين لحصارها.[6]

وما يدل على مشاركة المغاربة أن الإمبراطور صاحب الحملة بعث برسالة إلى ملك الأرمن أشوط شاهان، ذاكرا له بأن هناك فرقة من المغاربة من حامية طرابلس تقدر بألفي رجل تقوم بمهمة استطلاعية، وترصد الطريق، وقد سمى المغاربة بالإفريقيين، هذا إلى جانب حضورهم القوي كمرابطين على ساحل صيدا، الذين شحنه الفاطميون بآلاف الجند المغاربة يتقدمهم القائد ابن كرامة المغربي.[7]

ومن القرائن أيضا على اشتراك المغاربة نذكر أنه في سنة 370هـ تولى أمر طرابلس قائد مغربي هو نزال الغربي الكتامي، والذي كان تحت إمرته ستة آلاف رجل، وكان لهم دور في مواجهة البيزنطيين حيث نازل هذا القائد ومن معه مدينة اللاذقية، التي كانت بأيدهم، كما نجح مع قائد فاطمي آخر يدعى ابن شاكر في أسر القائد البيزنطي المُعيّن عليها من طرف الإمبراطور باسليوس الثاني، ويورد النويري هذا الخبر في حوادث (372هـ- 982م) ويضيف أنّ نزال قد دخل القاهرة ومعه خمسة آلاف من الروم مقيدين بالسلاسل[8].

ومع بداية الحملات الصليبية المنظّمة نلمس دورا آخر للمغاربة، فإذا كان على الفاطميين أن يكافحوا الغزو الصليبي في المشرق، فقد كان على المرابطين أن يجاهدوا الإسبان في الأندلس، وهكذا تبدوا لنا الأوضاع السياسية، وكأنّ كل دولة منصرفة عن الأخرى بمشاكلها الخاصة.

لكن الملفت للانتباه أن الفاطميين لم يكونوا وحدهم من انشغل بالحروب ضدّ الصليبيين الغزاة، فالجبهة المغربية كانت هي الأخرى حاضرة وحسبنا شاهدا في ذلك ما يرويه ابن الأثير في حوادث سنة (499هـ)، إذ يقول: "ورد على بغداد أمير من الملثّمين (أي المرابطين) ملوك المغرب قاصدا دار الخلافة، فأكرِم وكان يرافقه أحد الفقهاء أتى

الخليفة وقام بالوعظ في جامع القصر، فاجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثّم لا يظهر منه غير عينيه، كان هذا الأخير قد حضر مع الأفضل أمير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاءا حسنا"[9].

يستنتج من حصاد ما سبق أنه على الرغم من العداء الذي كان بين الدولتين الفاطمية (الشيعية)، والمرابطية (السنّية) لم يمنع من مؤازرة بعضهم البعض وحسبنا في ذلك عدد المغاربة الذين شاركوا إخوانهم في جهادهم للصليبيين.

على أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا حيث سقطت في النصف الأول من القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، وقامت على أنقاضها دولة مجاهدة أخرى هي دولة الموحدين والتي قامت كحركة إصلاحية تهدف إلى توحيد المغرب، كما كانت ترنو إلى تخليص بيت المقدس والشام والأندلس من المستعمر الصليبي، وتأكيدا لهذا المطلب فتحت الباب على مصراعيه أمام المتطوعين من المغاربة للسفر إلى مصر والشام، ومشاركة إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبين برّا وبحرّا[10].

2- العهد الزنكي: (521 - 569هـ)، (1127- 1171م):

أثبتت الأحداث التاريخية التي جرت في المرحلة الأولى من المواجهة العربية الصليبية أن دولتي الخلافة العباسية والفاطمية، رغم ما قامتا به من دور في مواجهة الصّليبيين، إلاّ أنّهما لم ترقيا إلى المستوى المطلوب إذ لم تُمثّلا النموذج الأمثل لقيادة الأمة العربية.

وهكذا فرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلا مناسبا بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبين، فكانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل – حلب، هي السابقة التاريخية أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه، في ميدان الحرب ولقد تولّى، عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (521هـ - 1127م)، ليقود دولته الصغيرة في الموصل نحو هدف مزدوج هو توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين من الأراضي العربية الإسلامية[11].

ثم خلفه ابنه نور الدين (ت569هـ) وكانت تؤازره أسرة صلاح الدين الأيوبي منهم: نجم الدين أيوب وشيركوه، ثم صلاح الدين الأيوبي، وقد رحب هؤلاء القادة المشارقة

بجميع المجاهدين الوافدين من المغرب، واستعانوا بهم في جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية، وهنا يظهر دور المغاربة بوضوح في جهاد الصليبيين سواء في مصر أو الشام.[12]

ويتجلّى لنا دور المغاربة أكثر خلال الحروب الصليبية، إذ تذكر المصادر أنه لما نزل الفرنجة بنواحي دمشق، سنة (543هـ) في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، خرج المسلمون من دمشق للمصاف، فكانوا مائة وثلاثين ألف راجل، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان خامس يوم وصل غازي ابن أتابك وأخوه نور الدين في عشرين ألفا إلى حماة، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرع إلى الله، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع وضجّ النساء والأطفال مكشّفين الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله فأغاثهم، وفي هذه المعركة توفي أبو الحجاج يوسف ابن دوباس المغربي المالكي،[13] وكان فقيها عالما صالحا حلو المجالسة قتل في سبيل الله في حصار الفرنج لدمشق مُقبل غير مُدبر بالنّيرب.[14]

وتنهض إشارة ابن جبير دليلا إضافيا على مشاركة المغاربة ونقرأ ذلك في معرض حديثة عن مدينة بنياس ومروره بحصن تبنين قوله: "بأنه موضع لتمكيس القوافل وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم، وقال الإفرنج: أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم، ولا نرزأهم، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، "فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجليل في نكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم عنهم"[15].

وإلى جانب ما أسهم به المغاربة بجهودهم الحربية عن حياض الإسلام تطلعنا المصادر عن مشاركتهم الفعالة في التقدم الحضاري الذي عرفته مختلف حواضر المشرق، والذي ومن القرائن على ذلك هو ما ذكره ابن أبي أصيبعة (ت668هـ-1269م) حيث يذكر أن أبو المجد ابن أبي الحكم عبيد الله ابن المظفر ابن عبد الله الباهلي من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية كان يلقب بأفضل الدولة، إذ كان في دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكي رحمه الله، فكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله ولما أنشأ الملك العادل نور الدين

البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم[16]، كما قام الطبيب علي ابن بذوخ القلعي المغربي بدمشق سنين كثيرة، وكان يعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، توفي بدمشق في سنة خمس أو ست وسبعين وخمسمائة.[17]

ونظير هذه الجهود المغربية نجد أن المشارقة في عهد الزنكيين قد حرصوا على إظهار إعجابهم وتقديرهم لما بذله إخوانهم المغاربة ذودا عن حياض الإسلام والمسلمين في المشرق، بمثل اندفاعهم لدفع الأخطار عن بلادهم فاحتضنوهم، وتعاطفوا معهم، وتمادوا بتكريمهم ومساعدتهم، ونلمس ذلك في اهتمامهم بمسألة افتكاك الأسرى المغاربة من قبضة الفرنج، حيث اعتبروها واجبا دينياً يُنال الأجر من ورائها.

فذُكر أن نور الدين زنكي نذر في مرضة أصابته مبلغا كبيرا من المال لفداء أسرى من المغاربة، فلما ابتلّ من مرضه، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا مغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وأخرج عوضا عنهم من المغاربة، وقال: "هؤلاء يفتكّهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم"[18].

هذا ويذكر أسامة بن منقذ في سياق إشارته لافتكاك نحو أربعمائة من المغاربة وقعوا في أسر الفرنج أن معين الدولة أنر صاحب دمشق أصرّ على أن يُسهم بنفقات افتكاك هؤلاء الأسرى قائلا لأسامة: "لا، بل أنا أزن والله ثمنهم، وأنا أرغّب الناس في ثوابهم"[19].

وتقديرا للجهود التي كان يبذلها المغاربة خلال الحروب الصليبية، دفع الأمر بنور الدين زنكي إلى اتّخاذ بعض التّسهيلات والإجراءات الخاصة بهم، وهذا ما نلمسه في شهادة ابن جبير عند قوله: "وسائر الغرباء ممن ليس على هذا الحال، ممن عهد الخدمة والمهنة يسبب له أيضا أسبابا غريبة من الخدمة، إما بستانا يكون ناطورا فيه، أو حماما يكون عينا عليه، وحافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة، وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء"[20]، ومن مناقبه أيضا -رحمه الله- أنه كان قد عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامعي المبارك أوقافا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء، وحمام ودكانان بالعطارين.[21]

3- العهد الأيوبي: (569هـ - 650هـ)/ (1171م- 1252م):

بعد استقلال صلاح الدين بأرض مصر أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرأ المرسوم بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة، ثم تجرّدت همّته إلى الفرنج وغزوهم [22].

والجدير بالذكر أن اشتراك المغاربة في الفترة التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي الشهيد قد استمر، ويمكن القول أنّ أعدادهم قد ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبي، وظهرت مشاركتهم على وجهين الأول كمحاربين أساسين، والثاني كمرافقين للجيش يقومون بتقديم الخدمات التي لا تقل عن غيرها في ميدان الحرب.

كمثال على الوجه الأول نجد أن المغاربة وقفوا جنبا إلى جنب مع صلاح الدين في معارك التحرير، وكان هؤلاء المغاربة كالكثير من الشاميين الذين شاركوا في هذه الحروب، من غير الجيش النظامي الذي لم يكن يشكل كل القوة المحاربة، فقد بين الإنجليزي "جب" أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين في موقعة حطين لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألفا، أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم المغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب [23].

هذا وقد ذُكر أنه أثناء حصار العرب المسلمين لمدينة عكا جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي، قدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهدية فاستقبل الأسير بحفاوة وتقدير، الأمر الذي يدل على مدى إعجاب صلاح الدين بالمغاربة وتقدير جهودهم في الحرب ضد أعدائه [24].

ومن القرائن أيضا ما ذكره العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين الذي أشار إلى شخصية مغربية جليلة صاحبت صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين، هي شخصية الأمير عبد العزيز ابن شداد ابن تميم ابن المعز ابن باديس، الذي كان جده تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي، أحد ملوك الدولة الزيريّة في إفريقية [25].

أما عن الوجه الثاني فلم يكن اشتراك المغاربة على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح، بل تجلى بمرافقة الجيش، وتقديم خدمات جليلة ساهمت إلى حد كبير في رفع معنويات الجيش القتالية، فقد عرفت أعداد كبير منهم كانت مهمتهم الرئيسية تحضير الطعام، وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال[26].

لقد عاصرت الدولة الأيوبية بالمشرق دولة الموحدين بالمغرب، والتي كان خلفاؤها رمزا للجهاد والتضحية، حيث وصل بهم التفكير إلى تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين، خاصة وأن دولة الموحدين عملت في تلك الفترة على نشر الدعاية اللازمة لخلافتهم هناك، فأرسلوا الدعاة إلى مصر وكان عددهم واحدا وخمسين رجلا[27]، وتفيد إشارة ابن جبير الذي عاصر قيام دولة الموحدين دليلا على ذلك، إذ يذكر بأن المصريين كانوا يترقبون مجيء الموحدين[28]، على أن شهرة المغاربة في المشرق قد ذاعت بصفة خاصة في الجهاد البحري لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة، وفي فنون القتال البحري ولهذا عُرفوا بفرسان البحر.

ومن الشواهد التي تبين على مشاركة المغاربة في الجهاد البحري هو وقوفهم إلى جانب حسام الدين لؤلؤ إثر حملاته البحرية ضد الصليبيين في البحر الأحمر على عهد صلاح الدين الأيوبي، كما كان لهم الفضل في الإيقاع بالفرنجة وإطلاق سراح أسرى المسلمين الذين وقعوا في أسر الأمير الصليبي أرناط صاحب الكرك عام(587ه) بالمكان المسمى عيذاب بالبحر الأحمر[29].

هذا ويذكر العبادي نقلا عن العماد الأصفهاني إشارته إلى أن وحدات الأسطول المصري التي هاجمت أساطيل الصليبيين في مدينة صور أيام صلاح الدين كانت بقيادة قائد مغربي يدعى عبد السلام المغربي[30].

ولعلّ أكبر دليل على اختصاص المغاربة بالأساطيل البحرية في ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر التاريخية من أن صلاح الدين قد استنجد بالعاهل المغربي المنصور الموحدي (580-595ه) يطلب منه المساعدة البحرية، ذلك أنه لما استولى صلاح الدين على ديار مصر والشام، اعتزم على جهاد الصليبيين، وصار يفتح حصونها واحدا تلو واحد، حتى أتى على جميعها، وافتتح بيت المقدس سنة(583ه)، وهدم الكنيسة التي بناها النصارى فيه، وإثر هذا الفعل انفضت أممهم من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فلم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم[31].

فبعث صلاح الدين صريخه سنة خمس وثمانين وخمس مائة عن طريق موفده أبي الحرث عبد الرحمان بن منقذ إلى يعقوب المنصور الموحدي (580-595ه/1184-1198م)[32]، يطلب منه مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، وبعث مع موفده بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين، ومائة

درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلا من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوسا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة مثقلة[33].

وذلك أن سمعة الأساطيل التي كان المغرب يتوفر عليها قد وصلت إلى الديار المشرقية، وبخاصة أيام دولة الموحدين، الذين أنشأوا لهم دار الصنعة المتخصصة بإنشاء الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية، وردت فكرة الاستعانة بأسطول المغرب الذي كان يهيمن على مسالك البحر المتوسط والذي كان يخطط لفتح القسطنطينية قبل العثمانيين بقرنين وربع قرن على ما ترويه المصادر التركية (كبيري رايس في كتاب بحرية)[34].

إذ لا يُستبعد أن يكون اتصال صلاح الدين بيعقوب المنصوري الموحدي راجعا إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض القطع من الأسطول الموحّدي لدفع الخطر الصليبي، الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحرا، إذ عُني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس لرد الصليبيين الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس[35].

فوصل رسول صلاح الدين إلى المغرب، فصادف المنصور بالأندلس، فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقيه فأدى الرسالة وقدم الهدية، وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحمن البيساني المعروف بالقاضي الفاضل[36].

وكانت ديباجة الكتاب "من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب، أما بعد فإن الغرب مستودع الأنوار وكنز دينار الشمس، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ... استصرخ الكفار بالكفار فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا، ومنهم ملك الألمان الذي خرج في جموع ملأت الفجاج ... وربما وصل بهم إلى عكا في البحر تهيبا أن يسلك البر..."، ولما كانت حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أول من توجه إليه الإسلام بشكواه واستعان به على حماية نسله وحرثه...كان المتوقع لتلك الدولة العالية، والعزمة الغادية، مع القدرة الوافية، والهمة الهادئة، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين، فيملؤها عليهم جواري كالأعلام، وشواني كأنها الليالي مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام، آمالا وتطلع على الكفار آجالا، وقد سير لحصن مجلسه الأطهر، ومحله الأنور، الأمير الأصيل، سفير الملوك والسلاطين، أبو الحسن عبد الرحمن بن منقذ، كتب الله سلامته..."[37].

وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدي الغرض من سفارته، وعرض له طلب صلاح الدين الاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين الكفار في المغرب، وعدم تمكينهم بإرسال المدد إلى إخوانهم في الشام، مما يُمكّن مسلمي الشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا، مع بيان أهمية عكا بالنسبة للمسلمين[38].

فغمره المنصور من فيض عطاياه، حيث يذكر ابن خلدون أن المنصور أمجده بعد ذلك وجهز له مائة وثمانين أسطولا، ومنع النصارى من سواحل الشام[39]، وعند إكرام سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وتماديه في إكرامه مدحه بن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفا ومن القصيدة: (من بحر الطويل)

سأشكر بحرا ذا عُباب قطعته ** إلى بحر جُود ما لآخره ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى ** إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

قطعتُ إليك البر والبحر مُوقنا ** بأن نداك الغمر بالنجح كامل

وحُزت بقصيدك العُلا فبلغتها ** وأدنى عطاياك العدد والفواضل

فلا زلت للعلياء والجود بانيا ** تبلغك الآمال ما أنت آمل.[40]

ومن أجل ضمان صلاح الدين لتفوقه عمل على رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم، فقرّر أن يكون دينار الأسطول ثلاثة أرباع الدينار العام بعد أن كان خمسة أثمان ذلك الدينار، أي بزيادة عشرون بالمائة تقريبا[41].

وبعد وفاة صلاح الدين استمرّت الدولة الأيوبية في سياسة استخدام المغاربة في أساطيلها، وقد لاحظ ذلك الرحالة الأندلسي بن سعيد المغربي (ت 685هـ/1268م)، حينما زار الحكومة المصرية في ذلك الوقت، أي في النصف الأول من القرن السابع للهجرة (13م)، فذكر أن الحكومة المصرية، لجأت إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول استنادا إلى الفكرة الشائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل بمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر[42].

وهكذا نرى مما تقدّم أن هناك عددا كبيرا من المغاربة وقفوا إلى جانب إخوانهم المشارقة في جهادهم ضدّ الصليبيين في الشام بغية تخليص الأراضي المقدسة من أيديهم.

4- عهد المماليك: (648 - 922هـ)، البرجية(648-784هـ) والبحرية(784-922هـ):

لما ورث المماليك دولة الأيوبيين في مصر والشام، واصلوا سياستهم الجهادية نحو إخراج الصليبيين من الشام، ومن جزر البحر المتوسط ولا سيما جزيرة قبرص[43]، التي تزعم ملوكها آل لوزجنان مشروعات الصليبيين في المشرق العربي.

هذا الخطر الصليبي فرض على المماليك الاستعانة بالمغاربة، حيث كان تجنيدهم في الجيش المملوكي تقليدا مُتّبعا منذ احتدام الحركة الصليبية، فساهموا مساهمة فعالة في الجهاد ضد الصليبيين، وفي المرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر، فقد اشترك جماعة منهم في الجهاد مع نور الدين زنكي كما أسلفنا القول، إذ عين لهم زاوية المالكية بجامع دمشق والتي احتوت على أوقاف كثيرة. واشتركوا أيضا في الجهاد بالإسكندرية في بداية قيام الدولة الأيوبية، فأسس لهم صلاح الدين مدرسة ودارا وبيمارستانا.

كما تمثلت إسهامات المغاربة في الدفاع والذود عن بلاد الشام بتقديم الأموال من أجل تجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وغير ذلك، مثال هؤلاء: محمد بن أحمد أبو الوليد التجيبي الأندلسي إمام الحراب المالكية بدمشق المتوفي سنة 758هـ/ 1319م، والذي يقول عنه ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة: "... وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله ..."[44].

لذلك فليس غريبا أن يكون جزء كبير من تصرفات حكام المماليك الإيجابية تجاه الجالية المغربية في الشام كتخفيض الضرائب عن البضائع التجارية التي يأتي بها إلى الشام التجار المغاربة وغير ذلك تكون بسبب موقفهم العسكري ضد الأعداء[45].

ويتجلّى هذا الموقف زمن السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ)، حيث أنه لما تولى السلطنة اهتم بغزو جزيرة قبرص، فأرسل أسطوله بقيادة جمال الدين مكي بن حسون، وواضح من اسم هذا القائد ابن حسون أنه من أصل أندلسي، لأن اسمه في الأصل حسن، أما مقطع الواو والنون في آخر اسمه فليس إلا مقطعاً إسبانيا في الآخر، للدلالة على التعظيم والتكبير[46].

وضع الظاهر بيبرس تحت تصرف هذا القائد سبعة عشر شينيا لغزو قبرص سنة (669هـ- 1270م)، مستغلا في ذلك غياب الملك هيوم الثالث لوزجنان المشهور بأطماعه الصليبية في الشام، وجاءت بعد ذلك أسرة قلاوون (678- 741هـ) التي قضت على الإمارات

الصليبية الباقية في الشام، فاستولى السلطان قلاوون على طرابلس سنة (688هـ - 1289م) ثم استولى والده الأشرف خليل على عكا سنة (690هـ -1291م)، والناصر محمد على جزيرة أرواد شمال طرابلس (702هـ -1302م)، وبذلك خلت السواحل الشامية من الصليبين، ولا شك أن المغاربة لعبوا دورا كبيرا في هذه العمليات، بدليل ما ذكرته المصادر من أن أمير البحر الرئيس البطراني المغربي، كان من بين قادة الحملة البحرية التي أطبقت على جزيرة أرواد واستولت عليها[47].

على أن طرد الصليبين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية، وقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى، وكونها كانت مركزا تجاريا هاما، وسوقا عالمية للممالك الصليبية الغربية في حوض البحر المتوسط، كل هذا دفع بملوكها من آل لوزجنان إلى تبني الفكرة الصليبية ومحاولة استعادة بيت المقدس من جديد، والذي يهمنا هنا الملك بطرس الأول لوزجنان (1356-1369م)، حيث يقترن اسم هذا الملك بالغارة الوحشية التي شنّها على مدينة الإسكندرية سنة (767هـ-1365م)، وقد قام مغاربة الإسكندرية بدور بارز في مقاومة الغزاة القبرصية على المدينة آنذاك،[48] وكانت هذه الغزوة من أخطر الوقائع التي تعرضت لها الإسكندرية طوال عصرها الإسلامي، وكما جرى استخدام الغز الأتراك في صفوف القوى الموحدية، قام المماليك لا سيما البحرية (648- 784هـ) منهم باستخدام المغاربة النازيين بالإسكندرية على الأخص في القوى البحرية المملوكية، وظهر تحت قيادة الأمير المملوكي يلبغا الخاصكي عدد من قواد المغاربة في البحر ومنهم الرئيس إبراهيم التازي[49].

هذا الأخير كان يتولى رئاسة دار صناعة الإسكندرية في عصر الأشرف شعبان (764 - 778هـ) والذي لم يكن رئيسا للصناعة فحسب، بل قائدا بحريا من الدرجة الأولى، أبدى الكثير من ضروب البطولة، وغزا عددا من بلاد القبارصة في البحر، ومن رؤساء البحر بالإسكندرية زمن الظاهر بيبرس، شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الهواري المغربي[50].

وفي واقعة الإسكندرية هذه، كان القبارصة يترقبون عملا حاسما من جانب المسلمين، فلما أدركوا عدم اكتراثهم للأمر قدموا غرابا إلى الساحل فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين خاضوا في الماء وناوشوا من فيه القتال، وتمكنوا من الإمساك بالغراب في أيديهم ثم طلبوا من الزراقين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه، ولكن للأسف لم يهتم أحد

لذلك لقلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم، وما زال المغاربة ينادون في طلب النفط والنار، وأمام صراخهم المتواصل، دفع الزراقين بمدفع فيه نار كنار الحلفاء فوقع في الماء وانطفأ[51].

ويذكر النويري في كتابه "الإلمام بالأعلام" أن المغاربة دفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن المدينة، عندما نزلوا إلى المياه وأمسكوا القبرصية وجعلوا أجسادهم عرضة للنيران، ومن بين القواد المغاربة المشهورين والذين اضطلعوا بمهام عسكرية بحرية هامة الرايس إبراهيم التازي السالف الذكر، حيث أنه مع غضب السلطان المملوكي (الأشرف شعبان) من الغارة القبرصية كلف إبراهيم التازي بالإغارة على جزر العدو، وفي 29 رجب سنة 769هـ مارس 1367م، أقلع التازي من ثغر الإسكندرية في مركبتين حربيتين لهما خمسمائة مقاتل متجها إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر، فغنم سفينة للعدو وأرسلها إلى الإسكندرية بعد أن حجز معه رجالها، واستمر التازي في غاراته ثلاثة وعشرين يوما، عاد بعدها محملا بالغنائم والأسرى، فارتجت الإسكندرية لقدومه، وخرج أهلها إلى موضع منارها لاستقباله، واصطفّ الترك المجردة لحراسة الإسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم متطلعين إلى الغرابين القادمة، وقد ارتفعت عليهم أعلام السلطان[52].

وعلق النويري على بطولة إبراهيم التازي المغربي رئيس دار الصناعة بالإسكندرية بقوله: "ولأن الفرنج لا يقهرهم سوى المغاربة وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس يعرفون طرق حربهم وضعنهم وضربهم في بر وبحر"[53]

هذا وقد أثارت الغارة الوحشية على السكان الآمنين في الإسكندرية موجة من السخط والغضب في أنحاء العالم الإسلامي شرقا وغربا، ففي الأندلس غربا، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالإغارة على جيرانهم المسيحيين الإسبان في مدينة جيان التابعة لملك قشتالة، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين ابن الخطيب على لسان سلطانه أبي عبد الله الخامس(762-794هـ) إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له حملته على جيان ودوافعها بقوله: "سلام كريم بفتح الفتوح المؤيد بالملائكة والروح ...فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ...بعد سنة كاملة من وقعة الإسكندرية، ونادى منادي الحمية يا لثارات أهل الإسكندرية!!" [54].

هذه الصيحة الجميلة إن دلّت على شيء فإنما تدل على مدى السخط والغضب الذي ألمّ بالأندلسيين من جرّاء حملة القبارصة الوحشية على الإسكندرية، كما أنها تحمل

في طيّاتها معاني الأخوّة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدُت بينها المسافات.

ويسوق لنا النويري قصة طريفة في هذا الصدد، وهي أن رجلا من بلدة ملج بمصر كان قد دخل الإسكندرية يتسوّق منها لدكّانه التي ببلده على جاري عادته، فصادف بها وقعة القبرصي، فأُسر بها بجملة من أُسر ووقع في سهم رجل من نصارى إسبانيا، وانتقل معه إلى مدينة جيان، فلما ظفر السلطان ابن الأحمر بها كان في جملة من أسره منها، فقال الأسير المليجي: لما وقفت بين يدي سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد الخامس قلت له: "أيها الملك المنصور إنني رجل مسلم من ذرية المسلمين، ولم أكن نصرانيا ولا أبنائي ولا أجدادي نصارى". قال: ومن أين أنت؟ قلت: أنا من بلدة يُقال لها ملج من أرض مصر بين القاهرة والإسكندرية، دخلت الإسكندرية أتبضّع منها على جاري عادتي فصادفت وقعة القبرصي بها، فنُهبت وأُسرت وأتت بي النصارى إلى هذه الأرض، وقد خلصني الله تعالى من الأسر على يديك بما فتح الله عليك ...ثم قال لي: ووقعة الإسكندرية صحيحة كما قيل؟، قلت له: ظفر بها صاحب قبرص، نهبها وأسر منها، فقال السلطان عند ذلك: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنّا لله وإناّ إليه راجعون، لقد هتكتنا أهل الإسكندرية بين النصارى، أتاهم كلب من كلاب الجزر، فلّ عددهم، ونهب بلدهم، ولا أخذ لهم بثأر، فآه آه! لو كنا بالقرب من قبرص لكانت قبرص أكلة رجل من أهل الأندلس" [55].

ويضيف النويري أن بعض الأندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب الحج أخبروه بأن ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد أن دخله الرعب بسبب تخريبه لمدائنه، فقال السلطان لرسوله: "هو يريد أن يصالحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض مصر يقاتلوهم!؟، لا كان ذلك أبدا حتى ترد أموال الإسكندرية إليها مع أسراها، ويأتيني كتاب صاحب مصر بأنّكم اصطلحتم معه لأنه خادم الحرمين الشريفين وأنا خادمه بسبب ذلك، وحينئذ أصالح صاحبك القند (القمط)، وإلا السيف بيني وبينه حتى أملك أشبيلية وقرطبة وطليطلة، وأعيدها للمسلمين كما كانت لهم"، فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوابه [56].

أما على الصعيد المغربي، فقد عبر المغاربة عن استيائهم وحزنهم بإنشاء المراثي والقصائد التي يرثون بها الإسكندرية بمناسبة هذه الغارة الوحشية، ومثال ذلك قول الشاعر الصوفي المغربي أحمد ابن أبي مجلة (1325 - 1375م)، التلمساني الأصل، هذه

الأبيات يشيد فيها بالمجاهدين المغاربة في خلال قصيدته التي يرثي بها الإسكندرية، من "بحر الطويل":

وحقق عندي للفرنج مكائد ** فليت ولي الأمر يدري ما أدري

فمن لي بفرسان الجزيرة عندما** تعامل أهل الكفر في البحر بالنحر

ومن لي بأسطول أهل سبتة ** بغربانهم مثل النسور إذا تسري.[57]

أما في مصر والشام فقد تجلى الغضب على شكل إجراءات سريعة أهمها جمع الأموال، وإعداد الأساطيل والأسلحة، ويشير إلى أن مجاهدا مغربيا عرض على الأمير "إلاكز" سلاحا جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفمام مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر الرمانة مسدودة الفم الضيق بمشاقة (تشبه القنابل اليدوية في يومنا هذا)، ثم حكى له قصة استعمال هذا السلاح، ومدى تأثيره فقال: "بينما كنا مسافرين في البحر المالح بين سفاقص وطرابلس، صادفنا مركب للإفرنج فيه مقاتلة وتجار، فلما رأونا قصدونا، فلما قربوا منا القوا الكلاليب بمركبنا، وكنا قبل تكليهم لمركبنا نرمي عليهم بالسهام فلا تؤثر فيهم، حينئذ أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات فأمرت من بمركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنجة بها، فكان لها تأثير بالغ، حيث يصعد الجير بعد انكسارها في وجوه الفرنج فيدخل في أعينهم، ويصعد في خياشيمهم يفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم، وكان انتصارنا عليهم بعون الله تعالى بتلك القدور الكفيات المملوءة جيرا وبولا، قال: فلما رآها الأمير "إلاكز" أعجبه مرآها، واستحسنها، وأمر الفخاري أن يصنع مثلها أعدادا كثيرة، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ملئت جيرا ناعما مطفيا بالبول ورفعت بقصر السلاح في المدينة حاصلا لوقتها المحتاج إليها، وعملوا أيضا من القدور الكبار صارت حاصلا لرمي المجانيق، كما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة" [58].

على أن ذكر المغاربة ودورهم العسكري قد تواصل فيما بعد وإلى غاية بدايات القرن العاشر للهجري، وهذا ما نلمسه في بعض الإشارات الدالة على ذلك منها: أنه عندما هاجم الفرنج مدينة بيروت سنة 785هـ-1383م، وعلى إثر اتّصال المسؤولين عن إدارتها مع نائب دمشق بقصد المساعدة للدفاع عنها، تذرّع بأنه يحتاج إلى أمر سلطاني، فقام بعض المتنفذين من المماليك بدعوة الناس إلى التطوع من أجل الجهاد، فكان على رأس

الذين استجابوا لهذه الدعوة القاضي المالكي آنذاك مع مجموعة كبيرة من المغاربة الموجودين بدمشق.[59]

وإذا كانت أخبار المغاربة في القوة المصرية ومعاركها تتنافر في إشارات نادرة قد سجلها النويري وغيره، إلا أن الإشارة التي أوردها ابن أياس عن دورهم في الأسطول المملوكي الغوري (906-922هـ) تؤكد عدم انقطاع هذا الدورِ واستمرارَه، وأهميته عند سلاطين المماليك وسياستهم الحربية، إذ يقول واصفا لتجريدة خرجت لقتال الفرنج: "وكان العسكر الذي كان خرج في هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد الناس، وبعض مماليك سلطانية، والغالب منهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك".[60]

ولا جدال في أن قلة الإشارات المذكور عن المغاربة كان مرجعها ما أصاب مدينة الإسكندرية من اضمحلال في القرن التاسع الهجري- الخامس عشر هجري، بسبب تحويل الطريق التجاري إلى رأس الرجاء الصالح، وما قام به البرتغاليون من السيطرة على الطريق التجاري الشرقي في المحيط الهندي، وجنوب البحر الأحمر، لذلك عندما اهتم سلطان مصر الأشرف "قانصوه الغوري" (906-922هـ) ببناء أسطول كبير في السويس ليعقب به الفرنجة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ويحمي التجارة المصرية نجده في سنة 911هـ ربيع الآخر يستعرض عسكره ويعين فيها ثلاث تجاريد، أنفذ كلا منها في جهة معينة، منها التجريدة البحرية وجهها إلى بلاد الهند، اشتركت فيها قوة مغربية، وأوكل السلطان قيادتها إلى الأمين حسين الكردي، ووكّل قيادة المغاربة وحدهم إلى الخواجا نور الدين علي المسلّاتي المغربي[61].

وقصارى القول نستطيع أن نقول بأن جهود المغاربة قد استمرت مع السلاطين المماليك حتى إلى وقت اكتشاف الطريق التجاري رأس الرجاء الصالح.

نخلص في نهاية هذا المقال إلى مجموعة من النتائج نوردها كالآتي:

- التكامل المشرقي المغربي الذي حدث بعد عملية الفتح مباشرة ساهم في انتقال عدد كبير من المغاربة إلى بلاد المشرق خاصة زمن الفاطميين، مشكّلين بذلك جالية دائمة في المنطقة، كان لها دور بارز في الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد.

- تميزت أغلب المصادر التاريخية في وصفها للمشاركة العسكرية المغربية ضد الصّليبيين بالمشرق بالتركيز على المحاسن، ممّا جعل الصورة التي رسمها المؤرّخون والرحّالة تبدو واضحة وجلية.

- المغاربة الذين شاركوا إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبيين نجدهم في بعض الأحيان ربما كانوا أكثر اندفاعا وحرصا من أهل البلاد الأصليين، فلم تقعدهم الشيخوخة، ولا التقدم في السن، ولم يرهبهم الموت، أو فقدان الأموال، مسطّرين بذلك أنصع الصفحات وأنقاها، ممّا يدل على صدق انتمائهم العربي الإسلامي.

- نال المغاربة من السلاطين الزنكيين والأيوبيين ومن بعدهم المماليك كل الحفاوة والتكريم، لما يقومون به من تضحيات كبيرة وسخية في مختلف الحقول والميادين، إلى جانب جهادهم ضد الصليبيين على مدى سنين طويلة.

الهوامش:

(1)- في سنة (486هـ/1093م) قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى "بطرس الناسك" للحج والزيارة، ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لإنقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين، فكرّ راجعا إلى وطنه فرنسا وعرّج على روما حيث يوجد البابا أوربان الثاني فأخبره بذلك، فقام هذا الأخير بعقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وعُقد المجمع الكنسي في بليزانس بإيطاليا (1095م) إلا أنه لم ينجح فعُقد مرة ثانية في كليرمون في نوفمبر 1095م، واتُفق أن يكون موعد الانطلاق يوم 15 أوت 1096م، وكانت هذه الحملة شعبية بقيادة بطرس الناسك، ثم تلتها حملة رسمية في جانفي 1099م، توجّه خلالها الصليبيون نحو بيت المقدس، وتعتبر هذه الحملة هي الأولى ثم تلتها حملات أخرى، أنظر: عيسى، الحسن: تاريخ العرب – من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية – ط1،/ عمان – الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، 2008م، ص. ص 93، 94، 98.

(2)- زكي محمد، حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د ط، بيروت– لبنان: دار الرائد العربي، 1401هـ/1981م، ص 85.

(3) - عبد الرحمان، زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي – من الفتح العربي إلى معركة المنصورة، د ط، القاهرة: مكتبة الأنجاد المصرية، د ت، ص 30.

(4) - ناصر، خسرو: سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب، ط2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1943م، ص 109.

(5)- المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص 221.

(6) - عمر عبد السلام، التدمري: "المغاربة في ساحل الشام – تاريخهم السياسي والحضاري في العصر الفاطمي"، مجلة التاريخ العربي، ع 1991/2م، ص. ص 237، 238.

(7) - نفسه، ص 238.

(8) - نفسه، ص 240.

(9) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م، ج3، ص 97؛ "روى أن سبب مجيء هذا الملثم إلى بغداد أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل أراد مصالحتهم فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه ... فلما ولى ابنه الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا الملثم من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدا، وكان شجاعا، فتاكا،مقداما". أنظر: نفسه، ص97.

(10) - أحمد مختار، العبادي: "دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: د. ع/ 2000م، ص 84.

(11) - قاسم عبده، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، د. ط، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م، ص. ص 154، 155.

(12) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص 85.

(13)- هو يوسف ابن دوباس الفندلاوي المغربي، أبو الحجاج الفقيه المالكي، قدم الشام حاجا فسكن بانياس مدة، وكان خطيبا بها ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها على مذهب مالك –رضي الله عنه- وحدث بالموطأ وفي سنة 543هـ كان قد خرج فيمن خرج من المسلمين لقتال الفرنج، فلقيه الأمير المتولي وقد لحقه مشقة من المشي، فقال له: أيها الشيخ الإمام ارجع فأنت معذور للشيخوخة، فقال: لا ارجع، نحن بعنا واشترى منا يريد قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ -التوبة 111-، أنظر: الحموي، ياقوت ابن عبد الله: معجم البلدان، د ط، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت، ج4، ص. ص 277، 278؛ ابن القلانسي، أبو يعلى: تاريخ أبي يعلى، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر، ص 219؛ المقديسي: الروضتين في أخبار الدولتين – النورية والصلاحية- د ط، القاهرة: مطبعة وادي النيل، 1287هـ، ج1، ص 52؛ الشهابي، قتيبة: صمود دمشق أمام الحملات الصليبية – مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، د ط، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1998م، ص 164؛ عاشور، فايد حماد محمد: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية – العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي، ط3، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م، ص 215.

(14) - الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، د ط، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، د ت، ج2، ص. ص 463، 466.

(15) - ابن جبير: ، رحلة ابن جبير، ط2، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت274.

(16) - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، د ط، بيروت – لبنان: منشورات دار الحياة، د ت، ص 628؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، 1424هـ/2000م، ج4، ص 20.

(17) - ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص. ص 628، 629.

(18) - ابن جبير: المصدر السابق، ص 280.

(19) - ابن منقذ، أسامة: كتاب الاعتبار، د ط، القاهرة: مكتب الثقافة الدينية، د ت، ص 82.

(20) - ابن جبير: المصدر السابق، ص. ص 250، 251.

(21) - نفسه، ص 287.

(22) - السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط1، بيروت – لبنان: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م، ج2، ص 41.

(23) - علي، أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام – من نهاية القرن الخامس لهجرة وحتى القرن التاسع لهجرة، ط1، دمشق – سوريا: دار طلاس، 1988م، ص 306.

(24) - نفسه، ص 304.

(25) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص 86، ويشير الأصفهاني أن هذا الأمير المغربي أخبر بأن صلاح الدين لما مرض مرضه الشديد سنة 582هـ نذر إذا شفي من مرضه بألا يقاتل من المسلمين أحدا، وأن يكرس جهاده ضد الصليبيين، وأنه إذا انتصر وظفر بالبرنس أرناط صاحب الكرك تقرب إلى الله بإراقة دمه، فلما شفي وتحقق له النصر على أرناط وأسره في حطين بر بنذره، فكان هذا هو السبب في إراقة دم أرناط، أنظر: نفسه، ص 86؛ هذه الرواية تفند الرواية الأخرى المشهورة والتي تقول أن سبب مقتل أرناط هو استيلائه على قافلة مصرية كبيرة كانت سائرة إلى دمشق، فأقسم صلاح الدين الأيوبي بأن ينتقم منه وبأن يقتله بيده.

(26) - علي، أحمد: المرجع السابق، ص 304؛ فيما يخص تجهيز الحمامات نجد أنه عند منازلة صلاح الدين على عكا سنة 583هـ، كان في العسكر أكثر من ألف حمام، وكان أكثر من يتولاها المغاربة، يجتمع منهم إثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا، ويسيرونه بحطب وحصير، يقطعون حطبا من البساتين التي حولهم ويحمون الماء في قدور، فيصير حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر، فإذا كان في المعسكر ألف حمام وعلى كل حمام إثنان أو ثلاثة من المغاربة، كان عدد هؤلاء المغاربة وحدهم ألفين أو ثلاثة آلاف، هذا عدا آلاف غيرهم الذين كانوا يعملون في أمور شتى قصدوا الشام من أجلها، أنظر: صلاح الدين، المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1963م، ص 23.

(27) - حسن خضيري، أحمد: علاقات الفاطميين بمصر في دول المغرب (362-567هـ/973-1171م)، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت، ص 90.

(28) - نفسه، ص 90.

(29) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د ط، بيروت – لبنان: دار النهضة العربية، 1981م، ص. ص 261، 262.

(30) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص89 .

(31) - السلاوي، أبو العباس أحمد ابن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى– الدولتان المرابطين والموحدين، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، دار البيضاء - المغرب: دار الكتاب، 1954م، ج2، ص. ص 162، 163؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر

ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، د ط، بيروت – لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م، ج6، ص 330.

(32) - هو الأمير يعقوب يوسف –رضي الله عنه- كان كاملا، فاضلا، عدلا ورعا جزلا، مستظهرا للقرآن لكريم –كتاب الله تعالى- بشرحه في ناسخه ومنسوخه، قارئا لنصه، حافظا له على وقفه وابتدائه، عالما بحديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بصحيحه ومختلفة، لما تمت له البيعة أطاعته الرعية، ويقال أنه أخرج مئة ألف دينار ذهبا من بيت المال فقرها في الضعفاء من ببوتات بلاد المغرب، كتب إلى جميع بلاده في تسريح السجون، ورد المظالم التي فعلها العمال أيام أبيه، أكرم الفقهاء وراعا الصلحاء والفضلاء، كان ذا رأي وعزم ودين وسياسة كانت أيامه زينة للدهر وشرفا لأهل الإسلام، ولم يزالوا فيها عزة ظاهرين على العدو قاهرين له، انظر: بن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، بيروت، دار الأندلس، 1383هـ/1964م، ص 231؛ بن أبي زرع في كتابه: الأنيس المطرب،د،ط، الرباط، صور للطباعة والوراقة، 1972م، ص.ص 217، 218.

(33) - السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص 163؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 331.

(34) - عبد الهادي، التازي: أوقاف المغاربة في القدس الشريف – وثيقة تاريخية سياسية قانونية، د ط، المحمدية المغرب: مطبعة فضالة، 1981م، ص 76.

(35) - حسن إبراهيم، حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، بيروت – القاهرة: دار الجيل – مكتبة النهضة المصرية، 1416هـ/1996م، ج4، ص 216.

(36) - السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص 163.

(37) - عبد الهادي، التازي: المرجع السابق، ص 9.

(38) - ابتسام مرعى، خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي (524-936هـ/1130-1529م)، د ط، الإسكندرية: دار المعارف، 1405هـ/1985م، ص 159.

(39) - عز الدين عمرو أحمد، موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، د م: دار الشروق، 1403هـ/1983م، ص.ص 32، 37، 39.

(40) - علي محمد، الصلابي: دولة الموحدين، ط1، المنصورة - مصر: مكتبة الإيمان، 1424هـ/2004م، ص 187.

(41) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص 276.

(42) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص .89

(43) - كانت قبرص منذ أن سقطت عكا سنة 1291م، قد أصبحت معقلا هاما للصليبيين في الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين، أنظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، إعداد: فريق البحوث والدراسات الإسلامية، ط 7، القاهرة: مؤسسة اقرأ، 2007م، ج1، ص 494.

(44) -العسقلاني، بن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،د ط، بيروت–لبنان:دار الجيل،1414ه/1993م،ج3،ص 350

(45) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص 304.

(46) - نفسه، ص 304.

(47) - نفسه، ص 91.

(48) - من القرائن على ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلاني إذ يورد أن محمد ابن محمد الدمشقي المالكي الذي تولى قضاء دمشق إحدى عشر مرة في مدة خمس وعشرين سنة، قد كان أبوه جنديا ثم ألبس ولده كذلك واشتغل كثيرا في الوقعة الكبرى بمالك وأسرت له ابنته، وسكن عقب الفتنة بقرية من قرى سمعان إلى أن انزاح عن البلاد، فرجع إلى حلب على ولايته ثم توجه من حلب إلى دمشق، فقطنها وولى قضاءها، ومات بها في المحرم ولم يكمل الستين وهو قاضي دمشق، أنظر: العسقلاني، ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، د ط، القاهرة: المجلس الأعلى لشؤون الإسلامية بالاشتراك مع لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1391ه/1971م، ج2، ص 252.

(49) - ابتسام مرعى خلف الله: المرجع السابق، ص. ص 224، 225.

(50) - السيد عبد العزيز، سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، د. ط، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1982م، ص 495.

(51) - ابتسام مرعى، خلف الله: المرجع السابق، ص 225.

(52) - نفسه، ص. ص 225، 226. (نقلا عن النويري)

(53) - نفسه، ص 227.

(54) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 316.

(55) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص. ص 317، 318.

(56) - نفسه، ص 318.

(57) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، المرجع السابق، ص 95.

(58) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص. ص 324، 325.

(59) - علي، أحمد: المرجع السابق، ص 307.

(60) - ابتسام مرعى، خلف الله: المرجع السابق، ص 227.

(61) - نفسه، ص 227.

إقليم توات خلال القرن (09هـ/15م)، وموقف الشيخ المغيلي التلمساني من يهودها.

أ. شبايبـي ياسين

جامعة زيان عاشور -الجلفة-

الكلمات المفتاحية: توات، الصحراء الجزائرية، الشيخ المغيلي التلمساني، اليهود.

الملخّص:

يقوم هذا البحث بدراسة واقع إقليم توات الجزائري خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، انطلاقا من مرحلة بداية انتشار الإسلام بالمنطقة، مرورا بمحطات مختصرة من أوضاعه السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدور الذي لعبه اليهود بها، وموقف الشّيخ المغيلي التلمساني من تواجدهم من خلال فتوى أصدرها في حقهم، وبعد حربين شنها ضدهم، وأهم نتائجها وانعكاساتها.

Résumé:

Cette recherche de l'étude de la réalité du territoire "Touat" Algérienne au siècle 15 à partir d'un début de prolifération de l'islamdans la région, en passant par les stations abrégée de la situation politique, économique et social et le rôlejoué par les juifs, et la position du Cheikh El MeghiliAtlemcenide leurprésenceparl'avisconsultatifémis par le droit, après deuxguerreslancéecontreeux les principaux résultats de sesrépercussions.

مقدمـــة:

يعدّ الشيخ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني (ت: 909هـ/1503م) من أبرز العُلماء الذين عاشوا خلال القرن 09هـ/15م، وأنجبتهم بلاد المغرب الأوسط(الجزائر) سواء من ناحية إنتاجه الفكري، إذ تجاوزت مؤلفاته العشرين مؤلفا في العديد من المعارف والفنون، وحتى في كفاحه ومُشاركته السياسية والإصلاحيّة، سواء بتلمسان أو بتوات وحتّى ببلاد السودان الغربي، إذ كان من بين العُلماء النّاقمين على سياسة الحُكّام خاصّة في بلاد المغرب الإسلامي، ومن بين الثّائرين على تلك الأوضاع التّي آلت إليها البلاد، بسبب فساد حُكمهم الخارج عن الشّرع، وتخاذلهم عن حماية أراضيهم من الزّحف الأجنبي، بل وعجزهم حتّى عن لمّ شمل مجتمعاتهم، لذلك ارتحل عن تلمسان مسقط رأسه باتجاه واحات توات، ثم إلى إمارات السودان الغربي، حيث كان قاضيا وفقيها محدثا ومستشارا سياسيا. وقد عاصر فاجعة المُسلمين في سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس، كما كان مُطّلعاً على ما كانت عليه أوضاع المشرق الإسلامي تحت سلطة المماليك والتّتار.

وسنقتصر من خلال هذه الدراسة الموجزة على تتبع موقفه من يهود إقليم توات، وكيف واجه نفوذهم وتسلطهم بالمنطقة، بالإضافة إلى تتبع أصداء معركته ضدهم خارج الإقليم وذلك من خلال الإجابة على هذه التّساؤلات: ما المقصود بإقليم توات؟ وكيف انتشر الإسلام في هذا الإقليم؟ وكيف كان الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لهذا الإقليم قبل وأثناء هذه الفترة المدروسة؟ وكيف كان واقع اليهود بهذا الإقليم؟ وما هي أهم مظاهر تسلطهم ونفوذهم؟ وما هي أهم المسائل التي شغلت الشيخ المغيلي في حربه عليهم؟ وكيف انتهت الحرب عليهم؟ وكيف كانت انعكاسات ونتائج هذه الحرب على المستوى القريب والبعيد؟

التعريف بإقليم توات:

توات هي مجموعة من واحات الصّحراء بالمغرب الأوسط (الجزائر) تقع في الجهة الجنوبية الغربيّة، تُؤلّف في مجموعها إقليم عبور ما بين سفوح الأطلس الجنوبيّة وبلاد السّودان. ويحدّ إقليم توات شمالاً العِرق الكبير، ومنطقة تيكورارين، وكذا وادي السّاورة، وعرق الرّاوي، وغرباً وادي مسعود، ومن النّاحية الجنوبية الغربية عرق شاش، وشرقاً

هضبة تادميت، ومنطقة تيدكلت، ومن النّاحية الجنوبية الشّرقية سبخة مكرغان وصحراء تنزروفت[1].

وينقسم هذا الإقليم إلى ثلاث مناطق رئيسية هي: (تيدكلت) من فقّارة الزوي شرق عين صالح إلى تيمقطن، و(المنطقة الوسطى) من عريان الرّاس أو تسابيت إلى انتهنت أو رقّان، ثم منطقة قورارة من تيميمون إلى تبلكوزة[2]. ولعلّ أشهر الروايات التي تحكي سبب تسميتها بهذا الاسم؛ أنّها اسم مشتقّ من الإتاوات، وهي المغارم التّي كان يدفعها سكان الإقليم للأمراء الموحّدين[3].

انتشار الإسلام بإقليم توات:

قُصور توات ومدنها ممّا اختطّه المُسلمون؛ أي أنّها من بناء وإنشاء المُسلمين، وهي بذلك لم تُفتح صُلحاً أو عُنوةً كبعض أراضي وأقاليم المغرب الإسلامي[4]. وقد دخلها الإسلام في منتصف القرن الرّابع الهجري العاشر الميلادي[5]، فالفتوحات الإسلامية الأولى للشّمال الإفريقي وعلى الأخصّ لبلاد المغرب الإسلامي لم تكن كافية ليصل تيّار النّفوذ الإسلامي إلى الجنوب، فكان العامل الأساسي في انتشار الإسلام في الصّحراء راجعاً بالدّرجة الأولى إلى البربر الرّحّل الذّين تسبّبوا في تقلّص الممالك الوثنيّة التّي أقامها السّود على الضّفاف الجنوبية للصّحراء، كما كان لقيام دولة المُرابطين اللّمتونيين الذّين هم من بطون قبيلة صنهاجة البربريّة، وتوسّعاتهم الكبيرة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي دور كبير وهام في تثبيت الإسلام بإقليم توات، كما كان لتوغّل القبائل العربيّة إلى المنطقة دور بارز في نشر اللغة العربيّة وتعاليم الدّين الإسلامي[6].

نبذة عن تاريخ توات السياسي والاقتصادي والاجتماعي:

كانت توات خاضعة لسلطة عرب المعقل المنتسبين إلى عرب اليمن قبل مجيء المرينيين(668-869هـ/1269-1465م) أي في حدود القرن السّابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وقد ملك هؤلاء العرب قصور زناتة بالصّحراء مثل قصور السّوس غرباً، ثمّ توات وتسابيت شرقاً، وقد فرضوا عليهم الإتاوات والضّرائب[7]. وخضعت لسيطرة الدّولة المرينيّة منذ تأسيسها سنة 668هـ/1269م؛ كإقليم تابع لولاية سجلمّاسة منذ سنة 714هـ/1314م، وجعل المرينيّون الحكم الفعلي في القصور التّواتيّة في يد رؤساء قبائلها،

واكتفت بفرض ضرائب سنويّة على الأسواق التّجاريّة، والأراضي الفلاحيّة، والصّناعات والحرف اليدويّة. وبذلك كانت توات مورداً اقتصاديا هامّاً للمرينيين[8].

بعد سقوط دولة بني مرين وجد أهل توات أنفسهم مضطرّين إلى البحث عن مخرج للمشاكل التّي كانت تعيشها بلادهم، كاختلال الموازين التّي كانت تحتاج إلى ضبط شرعي، فوجدوا الحل لمشاكلهم في توسيع سلطة القُضاة، وجعل رؤساء القبائل أهلاً للحلّ والرّبط، فحكموا البلاد بنصوص شرعيّة ثابتة، كما كانت مُعظم أحكامهم مبنيّةً على أحكام الأعراف والتّقاليد التّي تميّزت بها المنطقة[9]. وكان قاضي الجماعة في هذه الفترة هو الشّيخ أبا زكريّاء يحي بن يدير بن عتيق التّدلسي التّلمساني(ت:877هـ/1473م) الذّي جاء إلى توات عام 845هـ/1441م[10]؛ حيث تولّ إدارة الشّؤون العامّة للبلاد من مقرّه بتمنتيط بمساعدة جماعة المسلمين.

كما خضعت توات لسيطرة الدّولة الوطّاسيّة وارثة المرينيين، باعتبارها كانت إقليماً تابعاً للمرينيين من قبل، غير أنّ الوطّاسيين قليلاً ما كانوا يتدخّلون في شؤون توات، نظراً لكثرة مسؤوليّاتهم سواء في الدّاخل في مجابهة الفتن الدّاخلية، أو في مواجهة خطر النّصارى المحدق بسواحلهم[11]، وكان الوطّاسيّون إلى جانب المعارضين للمغيلي منذ بداية حملته ضدّ اليهود، لأنّ موقفه هذا كان يُعارض مصالحهم الاقتصادية في توات[12]، التّي كانت في هذه الفترة مركزاً تجارياً هاماً، ومعبراً استراتيجيّاً لقوافل التّجارة نحو السّودان الغربي، وحلقة وصل بين تجارة الجنوب وأوربّا بفضل موانئ تلمسان، وقد كان يهود توات وتلمسان هم المحرّك الأساسي لهذه المبادلات التّجاريّة[13].

لقد برع التّواتيون في الميدان التّجاري نتيجة لموقعهم الجغرافي براعةً كبيرة؛ إذ كان لهم أحياء خاصّة بهم في مدن السّودان الغربي، وكان لهم وُكلاء تجاريون في كلّ مراكز ومعابر التّجارة الشّهيرة بالقارّة، كما كانت لتجارة القوافل التواتيّة أهمّية اقتصادية كُبرى لإمارات الغرب الإفريقي ووسطه[14] بعدما انتقل خطّ التّجارة إليهم منذ القرن الثّامن الهجري الرابع عشر ميلادي، حيث أهمِل الطّريق القديم، والذّي كان ممتدّاً من ناحية بلاد السّوس إلى ولاتة -تقع حالياً في موريتانيا الشرقية- لإغارة الأعراب على القوافل التّجاريّة التّي كانت تسلكه[15]. وكان امتناع التجّار التواتيين من التّعامل مع بعض مناطق السّودان

الغربي يُؤدّي في كثير من الأحيان إلى خلق أزمات اقتصادية حقيقيّة لها، الشّيء الذّي دفع أمير مملكة بورنو في سنة 843هـ/1440م إلى مراسلة عُلماء توات يشكو لهم فيها أوضاع بلاده المزرية، ويترجّاهم في العمل على حثّ التّجّار التواتيين للمُتاجرة في بلاده[16]. ومن المدن التجاريّة الهامّة بإقليم توات في هذه الفترة مدينة تمنتيط، التّي"اجتمع فيها العلم والعمارة، والولاية، والدّيانة، والرّياسة، وانتصبت بها الأسواق والصّنائع، والتجارات والبضائع"[17]، وكانت منطقة قُصور بودة[18] مخزناً كبيراً للبضائع بإقليم توات، تستقبلها من أسواق أوربيّة عن طريق تلمسان وتمنتيط ثمّ توجّهها نحو بلاد السّودان الغربي عبر ولاّتة. ومع ضخامة النّشاط التّجاري الذّي عُرِف به التّواتيون اضطرّوا لصكّ عملة خاصّة بهم، فوضعوا المثقال الذّهبي، وهو يُقابل أربع غرامات ونصف من الذّهب[19]، وكانت مدينة تمنتيط هي دار ضرب السّكّة[20].

يضمّ المُجتمع التّواتي في تركيبته البشريّة: البربر والعرب واليهود والحراثين أو(الحراطين)، والعبيد، أمّا البربر فهم السّكّان الأصليين للإقليم كباقي أقاليم بلاد المغرب الإسلامي، لذلك نجد أغلب تسميات القصور التواتية جاءت بلغتهم الزّناتيّة البربريّة.

والعرب ينتمون في أصولهم إلى سبعة عشر قبيلة عربيّة هاجرت إلى توات بدءً من سنة 501هـ/1117م، كانت أوّلها قبيلة أولاد عبد الجليل[21]، وقد كان لبعض القبائل العربية الكبيرة دور هامّ في مُجريات الأوضاع السّياسية والحضارية بإقليم توات كقبائل عرب المعقل، وقبيلة أولاد علي بن موسى، والكنتيّين الذّين استقرّوا عند قدومهم إلى توات بمواطن تُعرف "بعزى" بجانب قصور تمنتيط[22]. أمّا الحراثيون فهم فئة في المُجتمع التواتي أصلهم من السّودان الغربي، وهم سمر الوُجوه، يأتون في مرتبة بعد الأشراف والمرابطين، وطبقة عوام السّكّان من البربر والعرب، ويأتي بعدهم العبيد، والمماليك، من السُّود والزّنوج[23]، ويُقال أنّهم من المولّدين من الجواري، وكلمة "حرثانيين" تعني أنّهم من صنف ثاني بعد الأحرار. وقد كان العبيد يجلبون من بلاد السودان الغربي، وكلّ من كان يقع في الأسر أو يختطف يباع إلى التجّار فيُؤتى بهم إلى بلاد المغرب، وكانت توات تموّل أسواق فيجيج بالعبيد والإماء، وكانوا يستخدمون في خدمة الأرض مع قساوة الطّبيعة التواتيّة الصّحراويّة، فيحفرون الفقّارات ويغرسون الأرض، وباقي الأعمال الشّاقّة[24].

أمّا اليهود فقد ارتبط تواجدهم بتوات كباقي مناطق بلاد المغرب الإسلامي، فقد وُجدوا في المنطقة قبل دُخول الإسلام إليها، واستوطنوا البلاد عبر عدّة هجرات تاريخيّة[25]، وقد تكاثر عددهم بعد توالي سقوط المدن الإسلامية في الأندلس، حيث اضطهدهم الإسبان، كما اضطهد المُسلمون باعتبارهم جميعاً خارجين عن الدّيانة المسيحيّة، فكانت موجات الهجرات من الأندلس باتّجاه سواحل المغرب الإسلامي، واستقرّوا في سائر البلاد من الشّمال إلى تُخوم الصّحراء واستوطنوا بالأخصّ في المراكز التّجاريّة التّي تمرّ منها أو تنتهي إليها قوافل التّجارة[26].

واقع اليهود بإقليم توات:

يذهب المستشرق إيشاليي(Echallier -J.C) إلى القول أنّ أغلب يهود توات ذوي أصول بربريّة، اعتنقت الدّيانة اليهوديّة دون تعلّم اللّغة العبريّة، كما ينفي تواجدهم الكبير في إقليم توات[27]، ويفسّر قوله الأوّل بأنّ معظم الوثائق المخطوطة التّي وُجدت بقصور توات إنّما هي مكتوبة بالعربيّة، وأنّ النّقوش الأثريّة هي مكتوبة باللّيبيّة البربريّة القديمة، وهذا رأي يبدو أنّه يحتاج إلى المزيد من البحث والتّمحيص، فكما نعلم أنّ اليهود عبر تاريخهم الطّويل كانوا يندمجون مع ثقافات الشّعوب التّي عاشوا إلى جوارها، كما هو الحال مع يهود شبه الجزيرة العربية، الذّين كانوا يتكلّمون العربية، كما أنّ جُلّ المصادر التّاريخيّة القديمة والحديثة تشير إلى الهجرات اليهودية بين حقبة تاريخية وأخرى إلى بلاد المغرب الإسلامي[28]. كما يبدو أنّ نفيه لتواجد اليهود الكبير في إقليم توات في العُصور الوُسطى هو بعيد عن الصّحّة، فقد أحصى المستشرق اليهودي يعقوب أوليل (Jacob Oilil) في كتابه "يهود الصّحراء، توات في العصور الوسطى" عدد المناطق السّكنية والقرى التي يقطنها اليهود بتوات قبل مجيء الشّيخ المغيلي إليها بحوالي ثلاثين قرية يهودية، تبدأ من تبلكوزة شمالاً إلى تاورير جنوباً، وأكثر المناطق التواتية كثافة باليهود هي في وسط إقليم توات[29]، وبالأخص في تمنتيط والتّي كان بها لوحدها ما يفوق عن ثلاثمائة وستّين صائغاً يهودياً يُتاجرون في الذّهب والفِضّة[30].

كان يهود توات يُشكّلون الفئة الغنيّة بين سكان هذا الإقليم، كوّنت ثراءها الفاحش عن طريق المُعاملات الرّبوية، والتّجارة غير المشروعة عن طريق استغلال

الضّعفاء واحتكار السلع، فطغت وتجبّرت على الأهالي، وتحكّمت في رؤساء القبائل والقادة، وهيمنت على كلّ حياة القُصور التواتية، فنجد الرّحّالة الإيطالي "مالفانت الجنوي" الذّي زار المنطقة في سنة 851هـ/1447م أثناء رحلته في اكتشاف طريق الذّهب الآتي من السّودان الغربي يصفهم بقوله: "يتكاثر اليهود هنا، وتسير حياتهم في سلم تحت ظلّ الرّؤساء الذّين يُدافع كلّ منهم عن أتباعه، ولهذا يتمتّع اليهود بحياة سهلة وتسير التّجارة بواسطتهم، وهناك الكثير هنا يضعون ثقتهم فيهم...".

كان لبعض رُؤساء القبائل في مدينة تمنتيط أثره في تشجيع يهودها على بناء بيعة كبيرة لهم تجاوزت في ضخامتها تلك الحُدود التّي قد يُمكن للمسلمين أن يسمحوا لهم بها[31]، كما بنوا بيعاً أخرى في غيرها من واحات توات التّي يتواجدون فيها، حتّى بدا إقليم توات كأنّه مملكة يهوديّة لهم، وليس أرضاً إسلاميّة. وقد اعتبر المغيلي ذلك مساساً بالشّعور الإسلامي، وتطاولاً على كرامة المُسلمين الدّينيّة، فما كان منه إلاّ أن حمل على عاتقه مسؤوليّة مُقاومة هذا التّطاول ووضع حدّ لهذا الاستعلاء اليهودي، فيُعيد اليهود إلى مكانهم الطبيعي كجالية يهوديّة في بلاد إسلاميّة[32]، حيث ظهرت عليه في ذلك حماسة وجرأة وإصرار إلى درجة الاعتقاد بأنّ حركته اتجاه اليهود نابعة ليس فقط من موقف ديني شرعي، بل أيضاً من كراهية شخصيّة وحقد ذاتي على اليهود[33].

مواجهة الشيخ المغيلي للنفوذ اليهودي:

اتّخذ الشيخ المغيلي من توات مقرّاً دائماً له، وذلك منذ أن ترك تلمسان وانتقل إليها سنة 870هـ/1465م، فكانت مُنطلقاً لأسفاره ورحلته باتّجاه السّودان الغربي، وقد انتشر فيها صيته، وكثرت جماعته، وزاد أنصاره بها؛ حيث يذكر أنّه قال: "دخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقرّ أكابر وأعلام، فانتفعنا بهم، وانتفعوا بنا، لولا ما ابتلينا به من محنة أخباث اليهود لعنهم الله، وقد حمدنا الله جلّ جلاله على أن أهلكهم على أيدينا"[34].

تتلخّص المحاور الأساسيّة التي تلخص موقف الشيخ المغيلي من يهود توات في أربع مسائل وإشكالات أساسيّة حاول الإجابة عليها في كتابيه "رسالة إلى كلّ مسلم ومسلمة"، و"عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفّار.."[35] ، وفي مناظراته ومراسلاته مع عُلماء عصره، وهي: هل تهدم بِيع يهود توات أم لا؟ وما حكم أنصار اليهود

ومُساندِيهم(الغلايف)؟ وهل تجوز خِدمة المُسلمين لأهل الذّمّة خاصّة اليهود منهم؟ وهل يُلغى عقد ذمّة يهود توات، فتحِلّ دِماؤهم وأموالهم؟.

مسألة بناء بِيع يهود توات:

تزعّم الرّأي المخالف للشيخ المغيلي في مسألة هدم البِيع التّي أحدثها اليهود الشّيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني(ت:927هـ/1521م) قاضي توات، وقد أنكر الشيخ المغيلي عليه موقفه السّلبي المُعارض، وتشدّد في عتابه له إلى درجة أنّه نعته بالدّجّال وبالشّيطان[36]، ووصل الخلاف بين الشّيخين إلى مُراسلة عُلماء فاس، وتونس، وتلمسان للاستفتاء من جهة، وكسب التّأييد والنّصرة من جهة أخرى، حيث انقسموا في هذه المسألة إلى قسمين رئيسيين؛ القسم الأوّل تزعّمه المغيلي، والذّي قال بوُجوب هدم بيع اليهود، ومن العُلماء الذّين وافق رأيهم ما قال به المغيلي في وُجوب هدمها نجد أحمد بن يحي الونشريسي(ت:914هـ/1507م)، وإبراهيم بن عبد الجبّار الفيجيجي(ت:954هـ/1547م)، والشيخ أبي مهدي الماواسي(ت:896هـ/1490م)، وكذا الشيخ محمّد ابن يوسف السّنوسي (ت:895هـ/1490م)، والشيخ محمد بن عبد الله التّنسي (ت:899هـ/1493م). أما القسم الثّاني فقد تزعّمه الشيخ العصنوني، والذّي قال بأنّ هؤلاء اليهود في غاية الذّلّة والصّغار، وأنّهم لم يخرجوا عن عقد ذمتهم حتّى تهدم بيعهم ويُنكّل بهم، ومن بين العلماء الذّين وافقوه على رأيه في نازلة يهود توات نجد أحمد بن محمّد بن زكري المانوي التلمساني (ت:899هـ/1493م)، وأبي زكرياء يحي بن أبي البركات(ت:910هـ/1504م).

إلغاء عقد ذمّة يهود توات وحلّ دِمائهم وأموالهم:

لقد رأى المغيلي منذ الوهلة الأولى من مجيئه إلى توات ذلك التّجاوز الخطير لليهود على الحدود الشّرعيّة، واستعلاءهم الكبير على المُسلمين، حتّى أنهم أكثروا من التّعدّي والطّغيان والتّمرّد على الأحكام الشّرعيّة الخاصّة بأهل الذمّة بتولية أرباب الشّوكة أو خدمة السّلطان[37]. كما أنّه رأى تساهلاً من المسلمين مع هؤلاء اليهود، حتّى كان الواحد منهم يُقرّب اليهوديّ منه فيستأمنه على نفسه وعياله، ويستعمله في أعماله وأمواله، ووصل من الأمر أنّه رأى بعض المُسلمين في جملة خَدمة اليهود في أعمالهم، وحتّى في بناء بِيعهم،

وقد أنكر عليهم ذلك، فهو من باب التّعاون على الإثم والعُدوان، ومعصية كبيرة، وإهانة لمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان لا يجوز لمسلم أن يعين على بناء كنيسة بأرضه، فأحرى به ألاّ يُساعدهم على بنائها بيده، "فإنّ ذلك من الإعانة على الضّلال ومُباشرته، وإذلال المُسلم نفسه للكافر، مالا يرضى به إلاّ مُنافق أو فاسق"[38]. وقد كان القائمون على ضرب السّكّة من اليهود؛ حيث كانوا يغشون المسلمين، ويُطفّفون في وزن المثقال الذّهبي، كما كان لهم أنصاراً يُدافعون ويتنافسون، بل ويستميتون في الدّفاع عنهم يُسمّون بالغلائف أو المهاجريّة - هم يهود في الأصل اندمجوا مع المسلمين بدعوى أنّهم ينحدرون من آباء وأجداد اعتنقوا الإسلام- فأسقطوا عنهم الجزية وسائر الأحكام كالزّيّ الخاصّ بهم، وتقليدهم للمُسلمين في شتّى الأعمال، وقد استغلّ اليهود ذلك في إنماء ثروتهم، حتّى طغوا واستهزؤوا بالمسلمين وصاروا يسُبّون الفقهاء[39]، وكانت كلّ واحة وبيت يخضع لسيطرة أحدٍ من هؤلاء اليهود[40].

كان المغيلي يرى في يهود توات بألاّ ذمّة لهم، وهم كغيرهم من يهود بلاد المغرب، وكثير من مدن إفريقية وتلمسان، لأنّ الذّمّة التّي ترفع السّيف عنهم في نظره هي الذّمّة الشّرعيّة، لا ذمّة الجاهليّة[41]، وهي كالتّي اشترطها نصارى الشّام على أنفسهم لعمر بن الخطّاب-رضي الله عنه- وهي حوالي خمسة عشر شرطا، "وقد اختلف العُلماء في نقض عهدهم، وقتلهم، وسبيهم إذا أخلوا بواحدةٍ، فكيف بيهود لم يأتوا ولا بواحدة، بل وتمرّدوا على الأحكام الشّرعيّة بسكنى البلاد السّائبة، والتّعلّق بأرباب الشّوكة، والتّغصّب بأموالهم على من يتسبّب من العلماء في إذلالهم، فهؤلاء ونحوهم لا خِلاف في نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم (...) وكلّ يهوديّ تعلّق بخدمة سلطان ونحوه مناقض لشروط الذّمّة من الصّغار والذلّة"[42]، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لاَ نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ».

حرب الشيخ المغيلي الأولى على اليهود:

بدأ الشيخ المغيلي ثورته الأولى على اليهود سنة 882هـ/1477م، وكانت أولى خطوات هذه الثّورة هي هدم بيعهم التّي أحدثوها في تمنتيط وغيرها من الواحات والقصور التّواتية، وكان وُصول جواب العُلماء المُوالين لرأيه، خاصّةً جواب الشيخين التّنسي والسّنوسي هي الشّرارة الأولى التّي زادت في حماسة وجرأته في حربه على اليهود، حيث أمر

المُناصرين له من أهالي توات بالاستعداد والتّجهّز بآلات الحرب، فقصدوا بيعهم، كما أمر بقتل من عارضهم دونها أو وقف في طريقهم، سواء من اليهود أو من المُدافعين عنهم؛ حيث كان يقول: "ويل لأولياء اليهود، وهم الذّين ينصرونهم في تعدّي الحُدود ﴿..أُولَئِكَ الذِّينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الاَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِم، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[43].

هناك العديد من الرّوايات الشّعبية المحلّية التّي تعلّل سبب انتفاضة المغيلي الأولى على اليهود، والتّي عمل على إجلائهم من خلالها، منها أنّ أحد اليهود تعدّى على فتاةٍ مسلمة من أهالي توات، ومنها أيضاً: أنّه كان هناك يهودي متنكّراً في زيّ إمامٍ مسلم طيلة أربعين سنة، أمّ المُسلمين في مسجد عمر بن يوسف بتمنتيط طيلة هذه المُدّة، وكان منافقاً يُظهر الإسلام ويبطن كفره، بلغ من كيده للإسلام والمسلمين، أن يرشّ المُصلّين بالبول في صلاة الفجر، وغيرها من الصّلوات، فاحتال المغيلي على إظهار كيده، ونفاقه في الدّين، فجعل قنديلاً في إناء مغلق وأتى به المسجد في صلاة الفجر، فما إن بدأ اليهودي يرشّ النّاس حتّى فتح المغيلي الإناء، وظهر الضّوء فوجد الرّش بولاً، فأسرع اليهودي هارباً فتبعه الشّيخ حتّى لحق به عند القرارة من أرض سبع، فقتله[44].

ومهما يكن من أسباب ودوافع أدّت بالمغيلي إلى مُحاربة وإجلاء اليهود، فإنّه تمكّن من جمع أنصاره وأصحابه فخرّبوا بيعة تمنتيط وهدموها عن آخرها، كما هدموا البيع الموجودة في الواحات الأخرى[45]، كما نظم في ذلك عدّة قصائد في مدح النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وذمّ اليهود ومن ينصرهم، وجعل فيها حبّ النّبيّ يُقابله بغض اليهود[46].

في هذه الأثناء وقعت حادثة تمثّل صورة من صُور الاستعلاء الذّي كان عليه يهود توات، حيث كانوا يمرّون على المسلمين بدون تقديم التّحيّة والسّلام عليهم، ففي أحد المرّات كان الشّيخ المغيلي في ضيافة أحد أعيان قصر تاخفيفت- يعتبر أقدم مركز يهودي في إقليم توات-، فمرّ بجوارهم عدد من اليهود وأنصارهم ولم يقدّموا التّحيّة، بل تجاوزوا هذا الحدّ عندما تطاول منهم أحد شيوخ القبائل المُساندة لليهود برمي حفنة من الرّمال على مجلسهم[47]. وبعد هذه الأحداث والتّطوّرات وجد يهود توات أنفسهم مضطرّين إلى السّرعة في اختيار مصيرهم المحتوم والذّي هو بين الموت أو الفرار، ويبدو أنّهم كانوا أضعف وأجبن من أن يصدّوا إصرار وحماسة المسلمين بقيادة الشيخ المغيلي. حيث كان

يُخاطب أنصاره قائلاً: "يجب على كلّ مؤمن أن يستحضر بغض كلّ كافرٍ لنبيّنا، وسيّدنا، ومولانا، وشفيعنا، ويستحضر عظيم عداوتهم لنا وطعنهم علينا في ديننا، وإنّ كلّ كافر منهم وليّ الشّيطان اللّعين العدوّ المبين (...) بل إنّ كلّ يهودي هو إبليس بعينه"[48]، فما كان من أغلبيّة اليهود إلاّ أن هلعوا وفزعوا لريح هذه الحملة المُناوئة لتواجدهم بتوات، فجعلوا اللّيل ستاراً لهروبهم وراء ظلمته للابتعاد عن المنطقة إلى حين، والنّجاة بأنفسهم[49].

بعد انتفاضة الشيخ المغيلي الأولى على يهود توات، قرّر السّفر إلى فاس لاستقطاب التّأييد لقضيّته من السّلطة الوطّاسيّة، ولإطلاع عُلماء فاس على دسائس اليهود، وخُبثهم، وتنكّرهم للأحكام الشّرعيّة الخاصّة بهم في كنف المجتمع المسلم، ولكي يُوضّح أفكاره التي حوتها رسالته التّي بعث بها إلى العُلماء والفقهاء، ويُذكر أنّ المغيلي اصطحب في هذه الرّحلة ستّة من المماليك السّودانيين كانوا يحفظون المُدوّنة، ويبدو أنّ غرضه الأساسي من وراء هذه الرّحلة كان مناظرة العُلماء المُخالفين لرأيه في مسألة بيع يهود توات بحضرة السّلطان الشّيخ ابن أبي زكريّاء الوطّاسي؛ حيث تلقّاه العلماء خارج مدينة فاس للسّلام عليه والتّرحيب به، "فلمّا تمكّن بالجلوس بالفقهاء عند حضرة السّلطان قال لأحد المماليك: تكلّم مع الفقهاء في نازلة اليهود، فأنفوا الكلام مع المملوك وعادوا إلى ديارهم، فلمّا كان من الغد ركبوا إلى السلطان، وقالوا له: لأجل المُنافسة المركّبة في الجنس إن هذا الرّجل إنّما مُراده الظّهور والملك، وليس مراده الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر". لقد كان لهذه الوشاية وقع كبير في موقف السّلطان الوطّاسي من المغيلي حيث اتّهمه بالطّموح السّياسي، ومحاولة الوُصول إلى السّلطة لا الإصلاح، الشّيء الذّي أنكره الشّيخ المغيلي عن نفسه، ودافع عن موقفه وآرائه بشدّة[50].

بعد هذه الرّحلة التّي كُلّلت بالفشل في ظاهرها، أسّس المغيلي إمارة صغيرةً، خاصّة به تقع في النّاحية الشّرقية من توات، وعاصمتها بوعلي بعدما كانت تمنتيط عاصمة لهذا الإقليم، وتقوم أساسا على تطبيق مبادئ الشّريعة الإسلامية، والأحكام المُعيّنة بالشّرع، من الكتاب والسّنّة واجتهاد الصّحابة، والتابعين من السّلف الصّالح، لا على أهواء القضاة وأحكام العُرف التّي كانت مُضلّة في كثير من الأحيان، حيث كانت تخدم بدرجة أكبر رؤساء القبائل، والمُدافعين عن اليهود، وتهمّش الصّالح العام لأهالي الإقليم التواتي. وكان

جهاز الشّرطة من أولى الأولويّات التّي سعى المغيلي إلى إقامتها؛ حيث عيّن عليه ابنه عبد الجبّار، وكان يضمّ في صفوفه أفراداً من خيرة أنصاره والمُوالين لحملته الأولى على اليهود، وكان غرضه الأساسي من إنشائه هو حماية النظام الدّاخلي لإقليم توات، ببسط الأمن في كامل القصور التّابعة للإمارة الجديدة.

كما أصبح لإقليم توات بعد هذه التّطوّرات الجديدة قاضيان شرعيان، الأوّل في الجهة الشّرقيّة هو الشّيخ المغيلي، وقاضي ثاني في الجهة الغربية من الإقليم هو الشّيخ العصنوني، وكانا يقضيان في المسألة الواحدة، وحكم كلّ واحدٍ منهما مُغاير لحكم الآخر في كثير من الأحيان[51].

ولعلّ الإشكال المطروح هذه المرّة هو: إذا كان المغيلي قد رفض فكرة الطّموح السّياسي في مقابلته للسّلطان الوطّاسي في رحلته التّي قادته إلى فاس، ونفى بشدّة أن يكون عمله الإصلاحي بتوات يُخفي من ورائه أهدافاً سياسيّة، فلِم أقبل على إنشاء إمارته بعد عودته مباشرة إلى توات؟

يبدو أنّ المغيلي كان صادقاً إلى حدّ ما في نواياه، فكان لابدّ له من إكمال ما بدأ به في دعوته الإصلاحيّة في تغيير منكر اليهود، ووضع حدّ لتسلّطهم وتطاولهم على الإسلام والمسلمين بتوات، كما كان إنشاؤه للإمارة بدافع الحفاظ على الطّابع الإسلامي والشّخصية الإسلامية للأهالي؛ حيث كان مركزها بزاويته التّي أسّسها بقصر بوعلي، كما أنّه لم يستغرق وقتاً طويلاً حتّى ارتحل إلى بلاد السّودان الغربي للدّعوة والإصلاح، وإلاّ كان ليبقى بتوات حتّى يهنأ بالحياة الجديدة بين التّرف والسّلطة!

يصعُب وضع تاريخ محدّد لبداية هذه الرّحلة، والأرجح أنها كانت في السّنوات الخمس الأولى من بعد ثورته الأولى على اليهود، وقد دامت رحلته هذه أزيد من خمس عشرة سنة، حيث يذكر صاحب كتاب "أضواء على إقليم توات" أنّ عودة المغيلي من بلاد السّودان الغربي كانت مع أوّل القرن العاشر الهجري، وفيها كانت ثورته الثّانية على اليهود[52].

حرب الشيخ المغيلي الثّانية على اليهود:

بعدما سافر الشيخ المغيلي إلى بلاد السّودان الغربي قصد الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ، ومُحاولة إصلاح القيم والأخلاق من شوائب البدع والخُرافات التّي استحكمت في كثير من شعوب تلك البلاد، جاءه الخبر بمقتل ابنه عبد الجبّار بتوات من جهة اليهود، بينما كان هو موجوداً بكاغو. وقد أثار ذلك في نفسيّته الحقد والغضب من جديد على اليهود وأنصارهم؛ حيث أنّه طلب من أمير كاغو الأسقيا الحاج محمد الأول القبض على التواتيين المتواجدين ببلاده، غير أنّه تراجع عن ذلك، بعدما تدخّل الشّيخ أبو المحاسن محمود بن عمر، وكان من المقرّبين للأسقيا[53].

عندما وصل المغيلي إلى توات وجد اليهود قد عادوا إلى البلاد، وكان الذّي سعى في إرجاعهم هو الشّيخ عمر بن عبد الرّحمن (ت:933هـ/1529م) وكأنّ شيئاً لم يكن حيث عادوا إلى أماكنهم وصنائعهم بتمنتيط، وغيرها من الواحات والقصور.

لقد صعّب تواطأ الدّولة الوطّاسيّة مع أعداء المغيلي من رؤساء قبائل، وشيوخ بارزين، في حربه على اليهود في هذه المرّة؛ فقد أمدّتهم بالأسلحة والمؤونة[54]، إضافة إلى اتّحاد بعض القبائل بتمنتيط في نُصرة اليهود، وقد كانت مُتنازعة قبل هذا العهد، وتولّت الزّعامة في هذا الحلف قبيلة أولاد علي بن موسى، حيث يُذكر أنّ "أهل تمنتيط على شهوة في الرّعاية -أي الزّعامة- التّي أرادها العرب، وأهلها يأبون ذلك لعُلوّ نسبهم في الأصل، ولكنّهم دار رياسة وشماخة، إن لم يملكوا فلا أقلّ من أن لا يملكهم أحد، فإذا امتنعوا وتصلّبوا وقع الصّلح، وبقيت كلمتهم بيدهم لا لغيرهم".

ومن القبائل التّي ضمّها هذا الحلف قبيلة أولاد نسلام، وقبيلتا أولاد الحاج، وأولاد ملوك وهما قبيلتان عربيتان، أمّا أولاد ملوك فهم أولوا قوّة وشجاعة ونجدة، وليس في عرب توات أقطع منهم، ولا أشدّ منهم بأساً وأمّا أولاد الحاج فهم عُصبة. في حين كان في صفّ المغيلي قبيلتا أولاد أمحمّد والبرامكة، وبدأ يرفع من همم أنصاره بأن جعل لكلّ من يقتل يهودياً سبعة مثاقيل ذهبيّة[55]، وحثّهم على الجهاد، والاستشهاد في سبيل رفع الحقّ، والتّخلّص من ظلم، وتحكّم اليهود.

بعدما تمكّن الشّيخ المغيلي من إعداد جيشه زحف به إلى قصور زاقلو- من القرى الواقعة حاليّاً ببلديّة زاوية كنتة، ولاية أدرار-، وتماسخت، وتمالت لحمر- وهما من القصور الكبيرة التّابعة لقصور تمست، والواقعة في المنطقة الوُسطى من إقليم توات-، وغيرها من القصور، قبل أن يصل به إلى تمنتيط؛ حيث قتل بها كلّ من وجده من اليهود، وعندما اقترب من تمنتيط خرج إليه الشّيخ عمر بن عبد الرّحمن في جيش كبير، والتقى الطّرفان حذو قصر أولاد إسماعيل الواقع في الجهة الشّرقيّة من تمنتيط؛ أين وقعت بينهما ملحمة عظيمة، مات فيها جمع غفير من كلا الطّرفين، وكان النّصر في النهاية للشيخ عمر بن عبد الرحمن، وكان وُقوع ذلك في حُدود سنة 902هـ/1496م. وبعد هذا الفشل الكبير الذّي مُني به المغيلي في حربه على اليهود، استقرّ به المقام في زاويته ببوعلي، إلى أن وافاه الأجل سنة 909هـ/1503م[56].

نتائج وانعكاسات حرب الشيخ المغيلي على يهود توات:

كان لأصداء قضيّة يهود توات، وموقف المغيلي منها، أبعاد بالغة الأثر على المستوى المكاني والزّماني القريب، وحتّى البعيد. فقد أدّى إجلاؤهم بعد الحملة الأولى عليهم إلى خلق أزمة اقتصاديّة في المنطقة؛ حيث كانت توات مركزاً تجاريّاً هامّاً، وحلقة وصل بين تجارة بلاد المغرب الإسلامي وأوربّا من جهة، وبلاد السّودان الغربي من جهة أخرى، وكان اليهود هم المُحرّك الأساسي لهذه التّجارة لطبيعة علاقاتهم الخارجيّة الجيّدة، وخبرتهم في السّمسرة، ونفوذهم الكبير في العديد من الإمارات والحُكومات. وبإجلائهم تعطّلت تجارة الذّهب الآتية من بلاد السّودان الغربي والمتّجهة نحو أوربّا عبر موانئ تلمسان لمدّة حوالي عشرين سنة[57]، وهي الفترة الممتدّة بين الثّورة الأولى عليهم والتّي كانت في سنة 882هـ/1477م والمنتهية بإجلائهم، إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري حيث عادوا وبقوّة بعد هزيمة المغيلي في حربه الثّانية عليهم.

كانت دعوة المغيلي الإصلاحيّة بتوات، والمتمثّلة أساساً في مُحاربته لليهود الذّين خرجوا عن عقد ذمّتهم، سبباً في التّقارب الكبير الذّي جمع بين السّلطة الوطّاسيّة من جهة، وبين زعماء قبائل الإقليم التّواتي المُناهضين لدعوة المغيلي من جهة أُخرى، ممّا مهّد السّبيل لإخضاع كامل هذا الإقليم للنّفوذ الوطّاسي، والقضاء على أيّة حركة -قد

تكون عِدائيّة- اتّجاه هذه الدّولة بالمنطقة، وحتّى تضمن الحفاظ على مصالحها الماليّة من ضرائب وإتاوات؛ إذ كان تُجّار توات خاصّة اليهود منهم، يُمثّلون مورداً اقتصاديّاً هامّاً، ودائماً لجميع الدّول التّي سبقت دولة الوطّاسيّن، وفي سبيل ذلك عيّنت الشّيخ عمر بن عبد الرّحمن نقيباً لها على توات، وسلطته كانت تمتدّ من تسابيت إلى تيدكلت، وقد استطاع هذا الأخير القضاء نهائيّاً على ما تبقّى من أنصار المغيلي في سنة 909هـ/1503م، حيث أقبل على تخريب وهتك قُصور قبيلة أولاد أمحمّد، الذّين كانوا من أكبر شيعة الشّيخ في حربه على اليهود[58].

كما أنّ حملة الشيخ المغيلي الإصلاحيّة في إجلاء اليهود من توات، لقيت استحساناً كبيراً في غيرها من المناطق سواء في الصّحراء، وحتّى في بلاد السّودان الغربي؛ حيث وقع التّضييق على اليهود، ومُنِعوا من الإقامة في بعض الجهات، وإذا كان تمركز الوطّاسيّن قضى عمليّاً على جميع النّزعات الإصلاحيّة التّي قد تُضيّق على اليهود، فإنّ أفكار المغيلي ظلّ صداها يتردّد في أرجاء المغرب طوال عهد هذه الدّولة، فكان الفقيه المفتي أبو القاسم بن علي بن خجو الحساني(ت: 956هـ/1549م)في الرّيف بشمال المغرب الأقصى، وعبد الله بن علي بن طاهر الحسني في تفيلالت بالمغرب الأقصى كذلك، وغيرهما من الدّعاة والمُصلحين يرون في اليهود رأي الشّيخ المغيلي. وقد وقعت في عهد الأمير أبي حسّون الوطّاسي (ت:961هـ/1557م) حادثة احتدّ فيها الخلاف بين فقهاء سوس، عندما سمح هذا الأمير لليهود ببناء بيعة لهم في فناء الحيّ الذّي خصّصه لهم، كما سمح لهم باتّخاذ مقبرة خارج المدينة لبعد مقبرة اليهود القديمة بإفران ببلاد السّوس من المغرب الأقصى، وقد دافع الفقهاء الموالون للأمير ما استطاعوا تبريراً لعمله الذّي أثار حساسيّة ونزاعاً بين الأهالي، لكنّ خُصومهم كانوا أقوى وعزائمهم أشدّ، ويبدو أنّهم إلى جانب حججهم التّي اعتمدوها قد استشهدوا بموقف المغيلي ضدّ اليهود، وبرأيه في بيعهم المستحدثة في أرض المُسلمين[59].

وفي إمارة تنبكتو ببلاد السّودان الغربي، أصدر الأسقيا محمّد الأوّل مرسوماً يقضي بتحريم بلاده على أيّ تواجد للجالية اليهوديّة، سواءً كانوا أفراداً كالتّجّار والحرفيّين، أو كجماعات تريد الاستقرار بأرضه، كما منع التّعامل معهم لأيّ سبب من

الأسباب، ويبدو أنّ ذلك كان قبل رحلة المغيلي إلى بلاد السّودان الغربي؛ حيث تناقلت قوافل التّجارة أصداء معركته مع اليهود.

خاتمـــة:

يبدو أنّ الشيخ المغيلي في موقفه الذّي ظلّ ثابتاً ضدّ يهود توات، كان من أكبر روّاد النّزعة الأخلاقيّة التّجديديّة في الإسلام في زمانه وفي البيئة التّي عاش فيها، وهي نزعة تهدف إلى إصلاح الأمّة من داخل ذات أبنائها، فكان من المفروض أن تجد دعوته الإصلاحيّة في توات صدىً واستحساناً، ودعماً وتأييداً من ذوي الحلّ والعقد، خاصّة من جهة الفقهاء؛ لكنّ أغلبهم استنكروا عليه موقفه هذا حتّى من أقرب زملائه الشّيخ العصنوني، والذّي رافقه في التتلمذ بتوات على يد شيخها يحيى بن يدير.

يتمثّل العمل الإصلاحي للشيخ المغيلي في قضيّة يهود توات، أنّه حاول تطبيق مبادئ الإسلام في هذه الأرض، فكان عليه أن يبدأ بتنفيذ العقوبات الشّرعية على أهل الذّمّة بهدم بيعهم التّي أحدثوها، ثمّ مُحاربتهم؛ حيث حلّت دماؤهم وأموالهم إن بقوا بتوات، إذ أنّهم لم يأتوا بالعديد من شروط عقد الذّمّة، وما دامت أرض توات كانت تسير تحت حُكم قُضاتها، ومشايخها الذين أكثروا من سُكوتهم على الباطل، وقلّة جُرأتهم على تغيير المُنكر فقد خوّل لنفسه مُهمّة ردعهم.

رغم نجاح الشيخ المغيلي في حربه الأولى على اليهود إذ استطاع إجلاءهم إلاّ أنّه فشل في حربه الثّانية عليهم؛ حيث استوطنوا الإقليم التّواتي من جديد، ويعود هذا الفشل إلى عدّة اعتبارات منها: تدخّل الدّولة الوطّاسية في القضيّة لمصالحها الاقتصادية بتوات، بالإضافة إلى النّفوذ الكبير الذّي كان يتمتّع به اليهود، وعلاقاتهم الواسعة داخليّاً مع شيوخ الإقليم، وحتّى مع القادة وأهل السّلطة في خارج الإقليم. وكذا بالتّحالف الذّي تمّ بين بعض القبائل التواتية مع اليهود.

الهوامـــش:

[1]-عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها (ق 09- ق 14ه)، عين مليلة (الجزائر): شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط01- سنة 2005م، ص: 17.

[2]-محمّد باي بلعالم، الرّحلة العليّة إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات، وما يربط توات من الجهات، الجزائر: دار هومة: ط01- سنة 2005، ج01، ص: 09.

[3]-الصّدّيق حاج أحمد، التّاريخ الثّقافي لإقليم توات(ق11- ق 14ه)، أدرار: مديريّة الثّقافة، ط01- سنة 2003م، ص: 26 وما بعدها.

[4]-الونشريسي(أحمد بن يحي)، المعيار المُعرِب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: مجموعة من الدّكاترة بإشراف محمّد حجّي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، دع س، ص: 227.

[5] -Echallier (J.C), Village désertés et Structures agraires anciennes du Touat, Gourara Algérien, Paris: AMG, S.D 1972, P: 16.

[6]-إسماعيل العربي، الصّحراء الكبرى وشواطئها،الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط01- سنة 1983م، ص: 216، 217.

[7]-مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، دع- سنة 1982م، ص: 235.

[8]-عبد الحميد بكري، المرجع السّابق، ص: 27.

[9]-أحمد الحمدي، (محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكريّة بتوات عصره وآثاره)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: د.عبد المجيد بن نعمية(نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية-جامعة وهران- الموسم الجامعي: 1999-2000م)، ص: 50 وما بعدها.

[10]-ابن عبد الرّحيم(محمّد الطّيّب المعروف بابن بابا حيدة)، القول البسيط في أخبار تمنتيط، تحقيق: فرج محمود فرج، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسّسة الوطنية للكتاب، دع- سنة 1977م، المصدر السابق، ص: 31.

[11]-عبد الكريم كريّم، المغرب في عهد الدّولة السّعدية (دراسة تحليلية لأهم التّطوّرات السّيّاسية ومختلف الظّواهر الحضارية)، الرّباط: جمعيّة المؤرّخين المغاربة، ط03- سنة 2006م، ص: 06 وما بعدها.

[12]-أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 55، 56.

[13] -Jacob Oilil, Les Juifs au Sahara(Le Touat au Moyen Age), Paris : Edition (CNRS Histoire) -1994, P: 50,51.

(14)-عبد القادر زبايدية، (الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي جهوده و شهرته خارج الجزائر)، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بمنطقة أدرار (13- 14 شعبان/03- 04 ماي1985م)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دع- سنة 1988م، ص: 80.

(15)-الأمين عوض الله، (تجارة القوافل بين المغرب والسّودان الغربي وآثارها الحضارية حتى نهاية القرن19م)، مجلّة البحوث والدراسات العربية(تصدرهاالمنظّمة العربية للتّربية والثّقافة والعلوم)- عدد خاص بتجارة القوافل- بغداد، سنة 1984م، ص: 77.

(16)-Jacob Oilil, Op, Cit, P: 104.

(17)-ابن عبد الرحيم، المصدر السابق، ص: 14.

(18)-**بودة:** هي أكبر قرى توات وأهم قصورها: المنصور وهو القصر الرئيسي بها، بالإضافة إلى قصر غرام علي، وزاوية سيدي حيدة، و قصر بن دراع، وهذه القصور متاخمة لمنطقة تيمي. **ينظر:**

A-G-P.Martin, Quatre Siècles D'histoire Marocaine(au Sahara de 1504 à 1902-au Maroc de 1894 à 1912), Paris: Librairie Filix Alcan-1923, P.:08

(19)-عبد الحميد بكري، المرجع السّابق، ص: 38.

(20)-ابن عبد الكريم (محمّد)، أضواء على إقليم توات، تحقيق: مبروك مقدم، تلمسان: مؤسّسة الجزائر كتاب، ط 01- سنة2002م، ص: 157.

(21)-محمّد باي بلعالم، (التّعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائريّة وحضارتها)، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بمنطقة أدرار (13- 14 شعبان/03- 04 ماي1985م)، ص: 43، 44.

(22)-محمد حوتية، (قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد- دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلّية أثناء القرنين 12-13هـ/18-19م)- رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، بإشراف: د. ناصر الدين سعيدوني، (نوقشت بمعهد التاريخ- جامعة الجزائر- الموسم الجامعي:1992/ 1993م)، ص: 18.

(23)-عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشريّة والحضاريّة، الرّباط: مطبوعات وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية المغربية، دع- سنة 1976م، ج1، ص: 86.

(24)-فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعيّة، دع- سنة 1977م، ص: 34، 35.

(25)-Jacob Oilil, Op, Cit, P: 14.15.

(26)-محمد حجّي، الحركة الفكريّة بالمغرب في عهد السّعديين، الرّباط: دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، دع- سنة 1976م ، ج01، ص: 267.

(27)-Echallier (J.C), Op, Cit, P: 15., 16.

(28) -Jacob Oilil, Op, Cit, P: 14.,15

(29) -Ibid, P: 140.

(30)-ابن عبد الرّحيم، المصدر السّابق، ص: 14.

(31)-عبد القادر زبادية، (الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي جهوده وشهرته خارج الجزائر)، المهرجان الثقافي الأول للتعريف بمنطقة أدرار (13-14شعبان/03-04 ماي1985م)، ص: 211، 212.

(32)-يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 02- سنة1995م، ج02، ص: 147.

(33)-فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، الجزائر: شركة دار الأمّة، دع- سنة 1996م، ص: 61.

(34)-مولاي التّهامي، سلسلة النوات في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، أدرار: المطبعة الحديثة للفنون المطبعيّة، ط01- سنة 2005م ، ص: 41.

(35)-نسختان مصوّرتان عن المخطوطتين موجودتان بخزانة كوسام بأدرار، تقع الأولى في 17 ورقة، بخط مغربي صغير، تقع كل ورقة منها في 19 سطرا. وتقع الثانية في 42 ورقة، تمّ نسخها سنة 1208هـ على يد الناسخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر، بخط مغربي كبير، تقع كل ورقة منها في 19 سطرا).

(36)-المغيلي، مخطوطة عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، و: 15و.

(37)-المغيلي، مخطوطة رسالة إلى كلّ مسلم ومسلمة، و: 1و.

(38)-المغيلي، المخطوطة نفسها، و: 12و.

(39)-المغيلي، مخطوطة عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفّار، و: 1و-1ظ.

(40) -A-G-P.Martin, Op, Cit, P: 79.

(41)-المغيلي، مخطوطة رسالة إلى كلّ مسلم ومسلمة، و: 7و- 7ظ.

(42)-المخطوطة نفسها، و: 8و.

(43)-سورة الرّعد، الآية: 05.

(44) -SelkaAbderrahman, Notice sur le Touat, Bulletin de la société de géographied'Alger et du l'Afrique du Nord. 3eme trimestre 20-11-1922, N :90, P:530.

(45)-التنبكتي(أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، تحقيق: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدّينيّة، ط 01- سنة2004م ، ج02، ص: 265.

(46)-المغيلي، مخطوطة رسالة إلى كلّ مسلم ومسلمة، و: 3و.

(47)-A-G-P.Martin, A la Frontière du Maroc (Les Oisis Saharienne : Gourara- Touat- Tidikelt), Alger: Edition de l'imprimerie Algérienne, 1908, P.:128

(48)-المغيلي، مخطوطة رسالة إلى كلّ مسلم ومسلمة، و: 4ظ.

(49)-L.Boulga, (AbdelkrimMaghili), Bulletin de la société de géographie et d'archéologied'Oran,Année 1980, P.:07

(50)-محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة النّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمّد حجّي، الرّباط، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ط02- سنة 1977م ، ص: 131.

(51)-أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 116.

(52)-ابن عبد الكريم، المصدر السابق، ص: 158.

(53)-التنبكتي، المصدر السابق، ج 02، ص: 266.

(54)-أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 120.

(55)-التنبكتي، المصدر السابق، ج02، ص: 265.

(56)-ابن عبد الكريم، المصدر السّابق، ص: 158.

(57)-Jacob Oilil, Op, Cit, P.:51

(58)-ابن عبد الكريم، المصدر السّابق، ص: 160.

(59)-محمد حجّي، المرجع السّابق، ج01، ص:271 ، 272.

الأواني النحاسية الجزائرية الموقّعة والموقّفة

في العهد العثماني

أ.د/ شريفة طيان ساحد

معهد الآثار- جامعة الجزائر2

الكلمات المفتاحية: نحاس، توقيع، وقف، حرفة.

الملخص: تعتبر القطع النحاسية وثائق مهمة في الدراسات الأثرية والتاريخية كونها تحمل أسماء لصناع، وكتابات تسجيلية تتضمّن تاريخ صنعها، وألقابا ورتبا وإمضاءات رسمية منفذة بخط الطغراء، تؤكد بعض القطع النحاسية الموقعة، أن أصحابها ينتمون إلى الجيش العثماني، إذ كانوا يوقّفون ممتلكاتهم عند نهاية مهامهم، أو وصولهم إلى سن التقاعد، لصالح المنتسبين إلى اوجاق معيّن والقاطنين بغرفة معيّنة في الجيش الإنكشاري، بالإضافة إلى انضمام الحرفيين والتجّار إلى الجيش العثماني لكسب الحماية، وانضمام أفراد الجيش إلى التنظيمات الحرفية، وهي ظاهرة معروفة في كل الولايات العثمانية، ومن أهم الحرف التي كان يتعاطاها الجيش الانكشاري هي البابوجية والحفافة والجقماقجية والقندقجية والحياكة والقزازة والخياطة وغيرها من الحرف.

أبرزت هذه التسجيلات الاتجاهات السياسية والحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة في الفترة العثمانية، حيث نفذت باللغتين العربية والعثمانية، استعملت فيها كل أنواع الخطوط، دون تخلي الفنان الجزائري عن الخط المغربي الذي كان منتشرا في بلاد المغرب والأندلس، وإن استعماله في القطع النحاسية لدليل واضح على تمسّك الفنان بتقاليده الفنية، رغم التأثيرات الفنية الكبيرة التي تسربت إلى الفنون الجزائرية في هذه الفترة.

Résumé :

Les objets fabriqués en cuivre sont considérés comme documents importants dans les études archéologiques et historiques, comportant ainsi les noms d'artisans dinandiers algériens , inscriptions dotées, dates de fabrication, titres, grades et les signatures officielles exécutées en toughra. Ces pièces confirment l'appartenance de ses propriétaires à l'armée janissaire. Ils dotaient leurs propriétés à la fin de leurs fonctions, ou arrivant à l'âge de la retraite en faveur des affiliés des odjaks résidant des odas dans l'armée janissaire. En outre on note l'adhésion des artisans et commerçants dans l'armée janissaire pour obtenir la protection, parmi les métiers exercés par l'armée on compte : Babouchiers, coiffeurs, armuriers, tisserands, fabricants de soie, couturiers et autres.

Ces inscriptions ont mis en évidence les tendances politiques, la vie sociale et économique dans la période ottomane, écrites en langues arabe et ottomane utilisant différentes calligraphies, sans renoncer la calligraphie maghrébine répandue dans tout le Maghreb et l'Andalousie, prouvant ainsi l'attachement de l'artiste à ses traditions artistiques malgré les grandes influences ottomanes.

تعتبر القطع النحاسية الموقعة والموقفة وثائق مهمة في الدراسات الأثرية والتاريخية، كونها تحمل أسماء لصناع، وكتابات تسجيلية تتضمّن تاريخ صنعها، وأسماء أشخاص صنعت لأجلهم، وعبارات الوقف والحبس، إضافة إلى تضمّنها آيات قرآنية وعبارات دعائية وأمثال وحكم دوّنت باللغتين العربية والعثمانية، تتناسب في مضمونها طبيعة التحفة ووظيفتها.

بالنسبة لنوعية الخط المستعمل في هذه القطع فيمكن تمييز كل أنواع الخطوط، دون تخلي الفنان عن الخط المغربي الذي كان منتشرا في بلاد المغرب والأندلس، وإن استعماله في القطع النحاسية لدليل واضح على تمسك الفنان بتقاليده الفنية، رغم التأثيرات الفنية الكبيرة التي تسربت إلى الفنون الجزائرية في هذه الفترة المميزة.

ومن مجمل العبارات و المصطلحات العثمانية المستعملة في هذه القطع يمكن ذكر ما يلي[1]:

- **أوده:** تعرف لغويا الغرفة، كما يقصد بها جزء من الأوجاق.

- **أوجاق:** كلمة تركية تعني المعسكر ويقصد بها المنظمة العسكرية المتكونة من الأتراك أو من الإنكشاريين[2]، وهو مقسم إلى أودات تحمل كل أودة رقما، وتضم ضمن وحداتها عدد من الرجال يتراوح عددهم ما بين احد عشر وستة عشرة رجلا، يرأس كل اوده رجل يطلق عليه اوده باشا[3].

كما يحمل المصطلح عدة معان، وهو كل ما ينفخ و يشعل فيه النار من طين أو قرميد أو حديد، وأطلق كذلك على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد، ثم أطلق على مجتمع أرباب الحرف، وأطلق كذلك على الصنف من الجند كالسباهية الذين هم فرق من العساكر في الجيش العثماني المعروفين بالخيالة.

- **رئيس:** لقب أطلق على أمير البحر في القرن 11هـ/ 17م، ثم استبدل بلقب قبطان أي قبودان.

- **أوردوجي:** مصطلح يطلق على صاحب المهنة الذي خرج من الجيش في المعركة، أو فئات معينة من أهل الحرف.

كدك، كديك، كودك: مصطلح يدل على أصحاب الوظائف الحكومية أو العسكرية الذين يشغلون وظائف معينة، كما له عدة معان أخرى، كأنه يعني مرتب للأوقاف[4]، وهو أيضا لقب يطلق على من يستمر في الخدمة العسكرية.

- **آغا:** مصطلح من أصل فارسي يعني السيد، استعمل لدلالات كثيرة منها أنه يطلق على الضباط الأميين مثل الإنكشارية الذي لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة، ومنها صاحب المنصب الكبير. وكان هذا اللقب مهما جدا في عهود القوة والنفوذ، وفي الفترة الأخيرة للعهد العثماني أصبح يطلق على الإنسان الكريم صاحب المكانة العالية، وصاحب الفضيلة، كما كان يدل في الوقت ذاته على التكبر والتفاخر.

- **خواجه:** كلمة فارسية تعني السيد أو رب البيت أو التاجر الغني والحاكم والمعلم والكاتب والشيخ والعالم وذو الأملاك والرئيس، أدخلت إلى اللغة التركية العثمانية في صيغة **خوجه**، التي تعني المسجل والكاتب والناسخ والمعلم والمتعلم والخاص، و كان الخوجه يسجل كل القضايا التي تتعلق بالجماعة.

- **قبودان باشا:** أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية.

- **حبوس:** لغة: المنع والإمساك، فيقال حبسه عن فعل أي منعه، واصطلاحا: هو كالوقف لكنه لمدة معينة وتنتهي وقفيته بانتهاء وقفيته بانتهاء الوقت المحدد. أملاك الحبس هي أملاك موقوفة لوجه الله، حبّس أملاكه وقفها على الأعمال الخيرية.

- **كوجوك أوده:** الغرفة الصغيرة التي يقبل فيها المستجدون من أفراد التجنيد.

- **حاج أو حاجي:** يبدو أنه مصطلح يستعمل لدى الطبقة الحاكمة، وهو من ألقاب مقدمي الدولة، وأرباب الحرف والسلطة.
- **سيد:** هو من الألقاب السلطانية أطلق على بعض الولاة والوزراء.

تميزت بعض القطع النحاسية باحتوائها على إمضاءات منفذة بخط الطغراء، وهي الشعار الذي اتخذه السلاطين العثمانيين علامة لهم وتوقيعا، كان يدون به المعاهدات والفرمانات (الأمر السلطاني) وغيرها من الوثائق، يقوم بكتابته في أعلى وسط الوثيقة نشانجي Nisanci، المعروف باسم التوقيعي أيضا(يصنع ختم السلطان). لا يمكن إهمال أو تجاهل أو التخلي عن هذا الشعار بأي شكل من الأشكال، إذ أن غياب الطغراء عن الوثائق وغيرها يعني الإخلال بشرعيتها ورسميتها، كما أن تغييبها يعني الخروج على الشرعية وإنكار السيادة[5].

من خلال ما ذكر عن هذا التوقيع، يتضح أن القطع النحاسية التي تحمل الاسم والتوقيع بخط الطغراء، ينتمي أصحابها إلى الجيش العثماني، وقد كانوا يوقّفون ممتلكاتهم عند نهاية مهامهم أو وصولهم إلى سن التقاعد[6]، تعرف هذه الفئة باسم معزول اغا، كما يعرف المتقاعد باللغة العثمانية امكدار Emektar.

لقد أوقفت هذه القطع النحاسية لصالح المنتسبين إلى اوجاق معيّن والقاطنين بغرفة معيّنة في الجيش الإنكشاري. وهذا ما يؤكد تآزر أفراد الجيش بل والحكام أيضا مع فقرائهم وذوي الحاجة ممن يقيمون بالثكنات[7]، كما حملت بعض هذه القطع أرقاما خاصة بالاوجاق وأخرى خاصة بالغرف. بالإضافة إلى ما سبق عرف انضمام الحرفيين والتجار إلى المؤسسة العسكرية أي الجيش العثماني لكسب الحماية، وانضمام أفراد الجيش إلى التنظيمات الحرفية، وأن احتكار الأمانة من عناصر الاوجاق الهدف منها المراقبة، وهي ظاهرة معروفة في كل الولايات العثمانية[8]. ومن أهم الحرف التي كان يتعاطاها الجيش الانكشاري هي البابوجية والحفافة والجقماقجية والقندقجية والحياكة والقزازة والخياطة والصمارة والقوقجية والدخاخنية[9].

ومن جهة أخرى وردت أسماء لنساء كن يوقفن أملاكهن، كما يؤكده .Devoulx A في عقد مؤرخ بتاريخ 1241هـ/ 1825م حيث يذكر أن سيدة تدعى دومة بنت محمد وقفت قدورا نحاسية تملكها لفائدة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي للاستعمال اليومي كالطبخ وأمور أخرى، كما يتم تصليحه وتبييض(قصدرة) الأواني من مداخيل دكان تملكه[10]. وأخرى تدعى موني بنت الحاج محمود من أثرياء مدينة الجزائر[11].

يتأكد مما سبق أن كل الأواني النحاسية الموقّعة تعتبر وثائق مهمة في معرفة أسماء الصناع وبعض قادة الجيش في العهد العثماني وألقابهم، بالإضافة إلى رتب أصحابها والطبقة التي ينتمون إليها، وأن القطع التي تحمل كتابات خاصة بطبقة حاكمة وغنية، وقد برزت هذه التسجيلات الاتجاهات السياسية والحياة الاجتماعية (من خلال الوقف) والاقتصادية السائدة في الفترة العثمانية.

نماذج لبعض الأواني الموقعة والموقفة:

1 – النماذج المؤرخة

صورة رقم:1 - طبق كسكسي من النحاس الأحمر ارتفاعه 23 سم و قطره 27,5 سم، ذو حافة مسطحة يتكوّن من صحن ذي قاعدة مسطحة وغطاء ينتهي بزر ماسك، يتميز الطبق ببساطته وخلوه من الزخرفة. يحمل الغطاء توقيعا باسم "**الحاجي محمد خوجه سنه 1098**" منفذ بخط الطغراء[12].

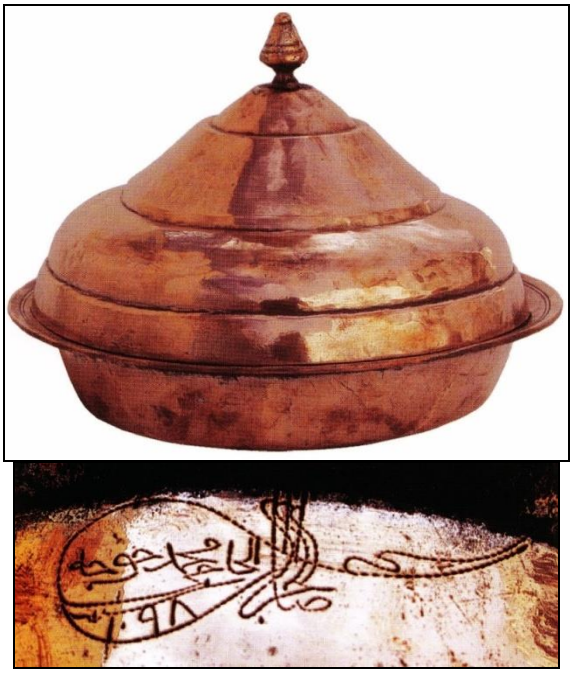

صورة رقم: 1- طبق كسكسى مؤرخ في1098 هـ/1686 م
محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية-الجزائر-

صورة رقم: 2- مسمنة من النحاس الأحمر مركّبة من بدن كروي عميق يرتكز على قاعدة، يعلو البدن غطاء يحتوي على زر ماسك يقدر ارتفاعها 18,5 سم، وقطر القاعدة 9 سم، و

قطر الفوهة 15,5 سم، يعلو الغطاء كتابة بخط النسخ تحمل اسم الصانع وتاريخ الصنع"**سيد طاهر1125** "[13].

ملاحظة:الاسم الكامل للصانع هو **الطاهر بن محمد بن مهران** من جماعة الصفارين. تصدرت العائلة أمانة جماعة الصفارين مرتين اذ تولاها الطاهر بن محمد بن مهران والحاج عبد الرحمن الصفار بن مهران (عائلة ثرية)[14].

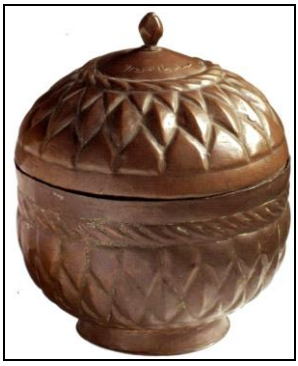

صورة رقم:2- مسمنة بيضاوية الشكل مؤرخة في 1125هـ/1713م. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.

صورة رقم:3 - طبق كسكسي من النحاس الأحمر يتكون من صحن وغطاء ينتهي بزر ماسك يقدر ارتفاعه 15 سم ويقدر قطر القاعدة 13.5 سم. يتوسط أعلى الغطاء كتابة منفذة بأسلوب الطغراء نصها: "**صاحب الحاج مصطفى خوجه سنه 1144**". **ملاحظة:** مصطفى خوجه هو أمين القزازين توفي في 1767-1768 [15].

صورة رقم:3 طبق من النحاس الأحمر مؤرخ في 1144 هـ/1731 م. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

صورة رقم:4 (أ/ب)- إبريق من النحاس الأحمر يرتكز على قويعدة قطرها 13 سم، يعلوها بدن كمثري الشكل يقدر إرتفاعه 36 سم. زود الإبريق بمقبض كمثري الشكل وصنبور، زود الإبريق بمعلاج. يضم بدن الإبريق كتابة داخل أربعة جامات سداسية الأضلاع نصها: "**عمل الواثق برب الناس، محسن بن عبد النبي النحاس، جزايرلك تسع في شهر الحج المبارك، في سنة ألف وماية وخمسين.**

ملاحظة: تحمل القطعة اسم صانع جزائري(محسن بن عبد النبي) وانتسابه للجزائر، كما تعتبر القطعة الوحيدة في المجموعة التي كتب تاريخها بالحروف، بالإضافة إلى لفظ -**عمل**- **القليل الاستعمال.**

صورة رقم:4 - أ- ب إبريق من النحاس الأحمر مؤرخ في 1150هـ/1737م.
محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

صورة رقم:5- طبق كسكسي من النحاس الأحمر يتكون من صحن وغطاء يقدر ارتفاعه 17 سم، وقطر قاعدته 15 سم، يحمل الغطاء كتابة منفذة بأسلوب الطغراء نصها: **"صاحبه محمود خواجه سنه 1169".**

ملاحظة: محمود خوجه هو خوجه الحرارين 1181هـ/ 1767م.

صورة رقم:5 طبق من النحاس الأحمر مؤرخ في 1169هـ/1755م .محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة.

(عن: آيت سعيد نبيلة، التحف المعدنية العثمانية المحفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009)

صورة رقم:6- طبق كسكسي من النحاس الأحمر يتكون من صحن وغطاء ينتهي بزر ماسك، يقدر ارتفاع الطبق 24 سم، وقطر القاعدة 19,6 سم، سجل بغطاء الطبق كتابة تحمل صاحب الطبق نصها: **"صاحب محمود خواجه سنة 1174"**. كما وجدت نفس الكتابة بالحافة مع إضافة رقم 41، التي يبدو أنها رقم الغرفة.

ملاحظة:صاحب القطعة هو نفس الشخصية الواردة في الصورة رقم:5.

صورة رقم: 6 طبق كسكسي من النحاس الأحمر مؤرخ في 1174 هـ / 1760 م
محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة. (عن: آيت سعيد نبيلة)

صورة رقم:7- طبق كسكسى مستدير الشكل له حافة مسطّحة ارتفاعه 5 ,27 سم، وقطره 40,5 سم يتكوّن من غطاء وصحن ذي قاعدة مسطحة، زخرف الطبق بمفصّصات، يعلو الغطاء جزء مسطّح فصل عن المفصّصات بشريط زخرفي يتوسّطه كتابة بخط الثلث تحمل اسم صاحب الطبق وتاريخه، عبارة عن إمضاء بخط الطغراء نصها:" **صاحب الحاج سيد عمر سنه 1196"**.

ملاحظة: يبدو أن صاحب القطعة هو الحاج عمر(دون ورود سيد) ممن كانوا يترأسون أمانة الحرارين بين سنتي 1200 و 1210م.

صورة رقم:7- طبق كسكسى من النحاس الأحمر مؤرخ في 1196هـ/1781م.
محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية

صورة رقم: 8- مسمنة من النحاس الأحمر تتكوّن من إناء وغطاء خاليين من الزخرفة، يقدر ارتفاعها 21 سم، وقطرها 16,5 سم. يتميز الإناء ببدن متكوّن من جزء سفلي بارز ومنتفخ يعلو القاعدة مباشرة وجزء علوي مسطّح وجزء عريض يحتوي على شريط مشكّل من نقش خطّين متوازيين خاليين من أي زخرفة، ينتهي بحافة بسيطة لشد ومسك الغطاء الذي يعلوه جزء بارز منتفخ ثم جزء مسطّح آخر في مستوى أعلى لينتهي بجزء ثالث بارز يعلوه زر ماسك على شكل قبة بداخله فصوص. تحتوي المسمنة على كتابة نصها ما يلي:" **صاحب الحاجي محمد علي قبودان سنه 1204**"[16].**ملاحظة:** تحتوي الكتابة على لقبي صاحب القطعة، الحاجي وقبودان السابق ذكرهما.

صورة رقم:8- مسمنة مؤرخة في 1204هـ/1789م. محفوظة بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية.

صورة رقم:9- كوب من النحاس الأحمر يقدر ارتفاعه 10 سم، قطر القاعدة 8,2 سم، وقطر الفوهة 18,5 سم، تحتوي حافة الإناء على كتابة منفذة بأسلوب الطغراء تحمل اسم صاحب القطعة، نصها: "**صاحب حاجي حسن خوجه جزايرلي 1207**".

ملاحظة:صاحب القطعة كما يظهر هو حسن خوجه الجزائري، ارتبط بسلطانة بنت عبدي باشا وهو الداي كرد عبدي باشا حكم في 1724- 1732م.

صورة رقم:9 كوب من النحاس الأحمر مؤرخ في سنة 1207هـ/1792م. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

صورة رقم: 10- سطلة من النحاس الأحمر قطرها 23.5 سم ذات قاع مسطح وحافة ارتفاعها 4 سم خاصة بطبخ أو تحضير القطايف، تعرف محليا باسم التحميرة. تحتوي الحافة على كتابة نصها:" **جزائر واليسي دولتلو حسن باشا حضرتلرى سنه 1216.** يبدو من خلال هذه الكتابة أن هذه السطلة كانت ملك لوالي دولة الجزائر حسن باشا، بالإضافة إلى الألقاب التي كان يتمتع بها الباشا[17]. (الوالي والحضرة)

ملاحظة: تزوج حسن باشا السيدة فاطمة بنت حسن الخزنجي قبل أن يتولى منصب الداي.

صورة رقم:10 سطلة من النحاس الأحمر مؤرخة في 1216هـ/1801م. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.

صورة رقم:11- طاوة من النحاس الأحمر تتكون من طاس عمقه 3, 7سم ومقبض طوله 15 سم. يحمل في جهته الخارجية كتابة نصها:" **وقف في سبيل الله ياكين كوجك عثمان سنه 1223".** تستعمل الطاوة لتوزيع الحساء من القازان وهي خاصة بالثكنات[18].

صورة رقم: 11 طاوة من النحاس الأحمر (1223هـ/ 1808م). محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة

صورة رقم:12- غطاء طبق من النحاس الأصفر ناقوسي الشكل ينتهي بزر ماسك على شكل هلال، يقدر ارتفاعه 17,5 سم، وقطره 24,5 سم، يحمل كتابة منفذة بخط مغربي نصّها: **"حبس متع الشيخ سيد عبد الرحمن سنه 1246". ملاحظة**: يلاحظ استعمال مصطلح حبس، ومتع باللغة العامية الذي يعني خاص أو ملك.

صورة رقم:12 غطاء طبق مؤرخ في1246 هـ/1830 م. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

2- النماذج غير المؤرخة

صورة رقم:13- صينية مستديرة الشكل قطرها 73,8 سم وعمقها 2 سم، بحافة عالية عرضها 1,2 سم، شغلت الصينية بزخارف قوامها أشكال نباتية وهندسية وعمائرية متناسقة فيما بينها منفّذة بالتناوب مكوّنة موضوعا زخرفيا غاية في الدقة والإتقان[19].

تحتوي الحافة على نص باللغة العثمانية:"**كودك عثمان اوده سنده وافقدر**".

ملاحظة: عدم ذكر تاريخ الصنع أو تاريخ الملكية، ويمكن ترجمة الكتابة أن هذه الصينية وقفت في غرفة عثمان الذي يبدو أنه صاحب وظيفة حكومية أو عسكرية كما يدل على ذلك مصطلح كودك (كما سبق ذكره آنفا).

صورة رقم: 13- صينية مستديرة الشكل من مدينة الجزائر. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة

صورة رقم:14- غطاء طبق من النحاس الأصفر ناقوسي الشكل ينتهي بزر ماسك، يقدر ارتفاعه 14,5سم وقطره 21,5 سم. يحمل كتابة منفذة بالخط النسخي نصها: " **حبوس على سيدي عبد الرحمان الثعالبي".**

ملاحظة: عدم ذكر التاريخ، استعمال الخط النسخي، استعمال مصطلح حبوس عوض حبس، تغير كلمة سيدي عوض سيد، وظهور لقب الشيخ (الصورة رقم 12).

صورة رقم: 14 غطاء من النحاس الأصفر. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة (عن: آيت سعيد نبيلة)

صورة رقم: 15- سطل من النحاس الأحمر محدّب الشكل قطر فوهته 16 سم، وعمقه 9,7 سم. مزوّد بمقبض منبسط نصف دائري ومتحرّك يعرف باسم معلاج، مثبّت في الإناء بواسطة دسر ومزوّد بحلقة دائرية مخصّصة للتعليق تعرف باسم الخطاف. يحمل المعلاج كتابة نصها: "**حبوس على شيخ عبد الرحمن الثعلبي**".

ملاحظة: يظهر في هذه القطعة الاختلاف في كتابة اسم الثعالبي إلى ثعلبي، واختفاء لقب السيد. يرجع ذلك ربما إلى صغر المساحة المخصصة للكتابة، أو لكون الكتابة جاءت داخل المعلاج غير ظاهرة للعيان لذا لم يهتم بإبرازها، أو كان الغرض منها التسجيل فقط.

صورة رقم:15– سطل محدب الشكل من النحاس الأحمر. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

(عن: شريفة طيان)

صورة رقم:16- غطاء لطبق كسكسي من النحاس الأحمر يعلوه زر ماسك من النحاس الأصفر، يقدر ارتفاع الغطاء 22 سم وقطره 45,5 سم، يحمل كتابة نصها: **"محمود بن قدور الفضيل في الجزاير".**

ملاحظة: يبدو في هذه القطعة جليا اسم الصانع (محمود بن قدور الجزائري) واسم المدينة (الجزائر)

صورة رقم:16 غطاء طبق من النحاس الأحمر. محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة

(عن: آيت سعيد نبيلة)

صورة رقم:17- مسمنة من النحاس الأحمر يقدر ارتفاعها 21,4 سم، وقطر قاعدتها 11,5 سم، وقطر الفوهة 17,8 سم، تتكون المسمنة من بدن وغطاء، تحتوي على كتابة في حافة البدن نصها: **"صاحبه الحاجي مصطفا اغا"**.

ملاحظة: حاجي مصطفى آغا هو أمين جماعة القزازين وكان من قبل أمينا، مارس النشاطين في آن واحد وتأدية المهام العسكرية والإشراف على الجماعة، وقد كان من كبار الأثرياء (1817-1826).

صورة رقم:17مسمنة من النحاس الأحمر. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة

الهوامش:

[1] معظم التعريفات مأخوذة من: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، 2000.

[2] وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980،ص 33.

[3] Devloux A., Tachrifat, recueils des notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, 1852. p.26

[4] Safsafy A.M., Safsafy sozlugu,turkce- arabca , ayn sams uni. Ed. fakultesi, 1979, p. 143.

[5] أنظر: سهيل صابان، المرجع السابق.

[6] وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 33.

[7] عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث،ج.1، 2000-2001، ص 133.

[8] نفسه، ص 285.

[9] نفسه.

[10] Devoulx A., Op.cit., p.41.

[11] عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 337.

[12] شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج.1، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص 124.

[13] نفسه، ج.2، ص 481.

[14] عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 162.

[15] لمزيد من المعلومات أنظر: عائشة غطاس.

[16] شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2 ص 485.

[17] حورية شريد، تطور المطبخ المغربي وتجهيزاته من عصر المرابطين إلى نهاية العصر العثماني،ج.2، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2010-2011، ص 489.

[18] نفسه، ص 519.

[19] شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 457.